**مؤسسة الدراسات الفلسطينية**

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ـ الصهيوني. وليس للمؤسسة أي ارتباط حكومي أو تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبِّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة أو وجهة نظرها.


شارع أنيس النصولي ـ متفرع من شارع فردان
ص. ب.: ٧١٦٤ ـ ١١
الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠
بيروت ـ لبنان
هاتف: ٨٠٤٩٥٩. فاكس: ٨١٤١٩٣
هاتف/ فاكس: ٨٦٨٣٨٧
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIES
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164
Postal Code: 11072230
Beirut - Lebanon
Tel.: 804959. Fax: 814193
Tel. & Fax: 868387
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

يسرّ مؤسسة الدراسات الفلسطينية
أن تعرب عن بالغ تقديرها وشكرها
لمعالي الشيخ أحمد زكي يماني
الذي تمّ إصدار هذا الكتاب بفضل معونته

فلسطين
في العهدين الأيوبيّ والمملوكيّ
(١١٨٧ - ١٥١٦)

# فلسطين
# في العهدين الأيوبيّ والمملوكيّ
# (١١٨٧ - ١٥١٦)

خليل عثامنة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

Filasṭīn fī al-ʻahdayn al-ayyūbī wa-al-mamlūkī (1187-1516)
Khalīl ʻAthāminah

Palestine in the Ayyubid and Mamluk eras (1187-1516)
Khalil Athaminah

© حقوق الطباعة والنشر محفوظة

ISBN 9953-453-12-8

الطبعة الأولى – بيروت
نيسان/ أبريل ٢٠٠٦

# المحتويات


**قائمة الصور والخرائط** ........ XXI

**مدخل** ........ ١

**مقدمة** ........ ٥
فلسطين عشية الغزو الصليبي ........ ٥
فلسطين والتركمان ........ ٦
فلسطين تحت سيطرة التركمان الناوكية ........ ٩
دولة التركمان ونهايتها ........ ١١
فلسطين تحت حكم السلاجقة ........ ١٤

**الفصل الأول: فلسطين بين الفرنجة وصلاح الدين** ........ ١٧
وحدة الفرنجة وفرقة المسلمين ........ ١٧
الانتصار الفرنجي السهل ........ ١٩
الفاطميون والفرنجة ........ ٢٢
تهاون الفاطميين وسقوط فلسطين ........ ٢٤
الهيمنة الفرنجية وتخاذل المسلمين ........ ٢٥
الصحوة الإسلامية وفريضة الجهاد ........ ٢٨
محور دمشق ـ الموصل ........ ٣٠
الجهاد مطلب شعبي ........ ٣٢
تجذر فكرة الجهاد ........ ٣٤
الجهاد بين مد وجزر ........ ٣٦

الأسرة الزنكية ومسيرة التحرير ........ ٣٩

زنكي ومحور حلب ........ ٤٠

زنكي ومحور دمشق ........ ٤٣

سقوط إمارة الرها الفرنجية ........ ٤٥

نور الدين زنكي ومسيرة التحرير ........ ٤٧

دمشق بين نور الدين والفرنجة ........ ٤٩

دمشق واستمرار الضغط الفرنجي ........ ٥١

فشل الحملة الصليبية الثانية والتطورات على الجبهة ........ ٥٤

سقوط مدينة عسقلان ........ ٥٥

استيلاء نور الدين زنكي على دمشق ........ ٥٧

مقدمات المعركة بشأن مصر ........ ٦٠

فوز نور الدين زنكي بمصر ........ ٦٢

نتائج توحيد سورية ومصر ........ ٦٥

النفور بين نور الدين وصلاح الدين ........ ٦٦

أزمة الثقة وقرار التنحية ........ ٦٩

موت نور الدين زنكي وقيام الدولة الأيوبية ........ ٧١

قيام الأسرة الأيوبية ........ ٧١

الصراع مع الفرنجة ........ ٧٣

هزيمة صلاح الدين في الرملة والمواجهات على أرض فلسطين ........ ٧٥

صلاح الدين ومسيرة التوحيد ........ ٧٧

- الاستيلاء على حلب ........ ٧٧
- استئناف جهود التوحيد ........ ٧٩
- صلاح الدين يمتلك حلب ........ ٨٠

الحرب ضد الفرنجة توسع أم تحرير؟ ........ ٨١

بين فتح حلب وانتصار حطين ........ ٨٤





فتح الموصل يعجل في المعركة الفاصلة ........ ٨٧

مقدمات حطين ........ ٨٩

انتصار حطين والطريق إلى القدس ........ ٩٠

مسيرة التحرير ........ ٩٣

الطريق إلى بيت المقدس ........ ٩٧

تحرير مدينة القدس ........ ٩٩

آخر جيوب المقاومة الفرنجية في فلسطين ........ ١٠١

انتكاسة المسلمين في صور والمسؤولية عنها ........ ١٠٣

تحرير حصون الفرنجة الداخلية ........ ١٠٧

الهجوم الفرنجي المضاد ........ ١١٠

حصار عكا وسقوطها في أيدي الفرنجة ........ ١١١

استعادة الفرنجة للساحل الفلسطيني ........ ١١٤

**الفصل الثاني: فلسطين بعد صلاح الدين** ........ ١١٩

فلسطين وتقسيم المملكة ........ ١٢٠

القدس بين التبعية لمملكة دمشق والتبعية لمصر ........ ١٢١

الملك الأفضل ضحية طموحات الملك العادل ........ ١٢٤

الملك العادل يستولي على مصر والشام ........ ١٢٦

أبناء صلاح الدين يضيّعون عرش مصر ودمشق ........ ١٢٧

العادل يستولي على المُلك ........ ١٢٩

ردة الفعل على اغتصاب العادل للمُلك ........ ١٣٠

فلسطين أيام الدولة العادلية ........ ١٣٢

فلسطين بعد موت الملك المعظم عيسى ........ ١٣٣

الناصر داود يخسر عرش دمشق وولايته على فلسطين ........ ١٣٥

تسليم مدينة القدس للفرنجة ........ ١٣٧

الملابسات التي أدت إلى التسليم ..... ١٣٨
اتفاقية يافا ..... ١٤١
التطورات السياسية بين تسليم القدس وتحريرها الثاني سنة ١٢٣٩ ..... ١٤٢
الناصر داود والتحرير الثاني للقدس ..... ١٤٤
القدس تُسلَّم للفرنجة مرة ثانية ..... ١٤٦
الخوارزمية يحررون القدس ويرجحون كفة الصالح أيوب ..... ١٥٠
انحراف الخوارزمية عن الصالح أيوب ..... ١٥٢
نهاية حكم الأسرة الأيوبية في مصر ..... ١٥٣
الأيام الأخيرة للأيوبيين في مصر ..... ١٥٥
محاولات الأيوبيين اليائسة لاستعادة عرش مصر ..... ١٥٧
فرار المماليك البحرية إلى فلسطين ..... ١٥٨
النظام المملوكي يرسخ أقدامه ..... ١٦٠
قطز وعين جالوت وكسرة التتار ..... ١٦٢
اغتيال قطز وقيام الظاهر بيبرس ..... ١٦٣
الظاهر بيبرس وسياسة التحرير والجهاد ..... ١٦٥
بيبرس ومقدمات حرب تحرير فلسطين ..... ١٦٧
العلاقة بالفرنجة تميل إلى التصعيد ..... ١٦٩
الظاهر بيبرس يبدأ مسيرة التحرير في فلسطين ..... ١٧١
قيسارية وعثليث ..... ١٧١
فتح صفد ..... ١٧٣
استمرار العمليات العسكرية ..... ١٧٦
فتح يافا ..... ١٧٧
اتساع رقعة التحرير الظاهري ..... ١٧٨
خلفاء الظاهر بيبرس واستكمال مسيرة التحرير ..... ١٨٠
تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ..... ١٨٣





حصن المرقب ..... ١٨٣
تحرير طرابلس ..... ١٨٥
فتح عكا ونهاية المطاف ..... ١٨٧
فلسطين من طرد الفرنجة إلى الغزو العثماني ..... ١٨٩

**الفصل الثالث: سكان فلسطين بين غزوين: الغزو الفرنجي والغزو العثماني** ..... ١٩٣

أهل المدن الفلسطينية بين الإبادة والتهجير ..... ١٩٣
الريف الفلسطيني تحت حكم الصليبيين ..... ١٩٧
الصليبيون والبدو ..... ٢٠١
الاستيطان الصليبي في فلسطين ..... ٢٠٢
استيطان الأقليات العرقية المشرقية في فلسطين ..... ٢٠٧
(١) التركمان ..... ٢٠٧
(٢) الشهرزورية ..... ٢١١
(٣) المغاربة ..... ٢١٣
(٤) الخوارزمية ..... ٢١٥
(٥) الأويراتية والهجرات المغولية ..... ٢١٥
الأقليات الدينية (أهل الذمة) ..... ٢١٨
الطوائف المسيحية ..... ٢١٩
مظاهر الاضطهاد الديني ضد أهل الذمة ..... ٢٢٧
أهل الذمة والشروط العمرية ..... ٢٣٠
السلاطين وسياسة الغيار ..... ٢٣١
الطائفة اليهودية ..... ٢٣٣
اليهود في ظل الحكم الأيوبي والمملوكي ..... ٢٣٤
القدس تستقطب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ..... ٢٣٦

**الفصل الرابع: المجتمع المدني في فلسطين ........................ ٢٤٣**
المدن الفلسطينية بين الهدم والبناء ........................ ٢٤٥
أنماط العمران المدني ........................ ٢٤٩
المدينة الفلسطينية ........................ ٢٥١
القرية الفلسطينية ........................ ٢٥٧
القبائل العربية ونمط البداوة ........................ ٢٦٢
عشائر فلسطين وبطونها ........................ ٢٦٤
(١) بنو بشارة ........................ ٢٦٥
(٢) بنو ثعلبة ........................ ٢٦٧
(٣) بنو جرم ........................ ٢٦٨
(٤) آل الجيوسي وعربان جبل نابلس ........................ ٢٧٠
(٥) بنو حارثة وآل طراباي ........................ ٢٧٤
(٦) بنو العائد ........................ ٢٧٨
(٧) بنو عُقبة ........................ ٢٧٩
(٨) بنو مهدي ........................ ٢٨١
علاقة الدولة بالعربان: مؤسسة إمرة العرب ........................ ٢٨٢
مؤسسة الإمرة ومتعلقاتها ........................ ٢٨٤

**الفصل الخامس: الترتيبات الإدارية في فلسطين ........................ ٢٨٩**
الترتيبات الإدارية في العهد الأيوبي ........................ ٢٩٠
طبيعة المؤسسات المركزية وعيوبها ........................ ٢٩١
الوحدات الإدارية في فلسطين الأيوبية ........................ ٢٩٣
الإدارة المملوكية في فلسطين ........................ ٢٩٩
نيابات الشام وفلسطين ........................ ٣٠٠
مراتب نيابات فلسطين بين نيابات بلاد الشام ........................ ٣٠٣



شراء منصب النيابة ........................ ٣٠٦
المتاجرة بالوظائف ........................ ٣٠٩
نشوء النيابات الفلسطينية ........................ ٣١٠
نيابة صفد ........................ ٣١٠
نيابة القلاع ........................ ٣١٤
نيابة غزة ........................ ٣١٥
نيابة القدس ........................ ٣٢٣
ولاية الرملة ........................ ٣٣٢
ولاية نابلس ........................ ٣٣٤
الجهاز القضائي في النيابات الفلسطينية ........................ ٣٣٦
القضاء على المذاهب الأربعة ........................ ٣٣٩
إصلاحات الظاهر بيبرس القضائية ........................ ٣٤١
الإصلاح القضائي في بلاد الشام ........................ ٣٤٢
قضاء العسكر ........................ ٣٤٣

**الفصل السادس: الاقتصاد الفلسطيني في ظل الإقطاع العسكري ........................ ٣٤٧**
كلمة عن الإقطاع ........................ ٣٤٧
الإقطاع العسكري في فلسطين ........................ ٣٤٩
استمرارية الإقطاع الوراثي أيام المماليك ........................ ٣٥٢
توقف العمل بإقطاع التمليك/ الروك الناصري ........................ ٣٥٤
التحايل لتوريث الإقطاع ........................ ٣٥٧
مؤسسة الوقف ونشوء الأرستقراطية في فلسطين ........................ ٣٥٩
مصادرة الأوقاف ........................ ٣٦١
القرية الفلسطينية في ظل النظام الإقطاعي ........................ ٣٦٣
تفريق الإقطاعات ومنع اتصالها جغرافياً ........................ ٣٦٦

الفلاح الفلسطيني والإقطاع المملوكي ........ ٣٦٧
الفلاح وتبعات القنانة الشخصية والاجتماعية ........ ٣٦٧
أهل فلسطين والتجنيد الإجباري ........ ٣٧٠
أهل فلسطين يدفعون نفقات التجاريد ........ ٣٧٢
استسلام الفلاحين لقدرهم وانتظار المعجزة ........ ٣٧٤
منزلة القنانة وتبعاتها المالية والاقتصادية ........ ٣٧٦
(أ) الالتزامات المباشرة ........ ٣٧٦
(ب) التزامات مادية غير مباشرة على الفلاحين ........ ٣٧٩
النظم الإقطاعية تضرب في المدن ........ ٣٨٢
شمولية ظاهرة الرمي/الطرح ........ ٣٨٥
السياسة الضريبية في دولة المماليك ........ ٣٨٦
مكوس السلطان ........ ٣٨٧
الضرائب والمكوس في فلسطين وبلاد الشام ........ ٣٨٩
(١) مكس القراريط ........ ٣٨٩
(٢) مكس المغاني والأفراح ........ ٣٩٠
(٣) رسوم البغاء ........ ٣٩١
(٤) رسوم الخمور والمسكرات ........ ٣٩٢
(٥) مكس الغَلّة ........ ٣٩٣
(٦) مكس القطن ........ ٣٩٤
(٧) مكس الغنم ........ ٣٩٤
(٨) مكس الملح ........ ٣٩٥
(٩) مكس الموتى ........ ٣٩٥
(١٠) مكس السجون ........ ٣٩٥
(١١) مكوس التجارة ........ ٣٩٦



**الفصل السابع: الثقافة وأحوال العمران أيام الأيوبيين والمماليك ........ ٣٩٩**
الثقافة والعمران في العهد المملوكي ........ ٤٠١
الخدمات التعليمية ........ ٤٠٢
المدارس في فلسطين ........ ٤٠٤
تمويل المدارس ورواتب طواقم التدريس ........ ٤٠٥
انعكاسات تدني رواتب التدريس ........ ٤٠٦
نواب التدريس والمعيدون ........ ٤٠٧
مدارس المدن الفلسطينية ........ ٤٠٨
الخوانق والزوايا والربط ........ ٤٠٩
المؤسسات الصوفية وطبيعة خدماتها ........ ٤١١
الترب والمشاهد والمزارات ........ ٤١٢
الترب في فلسطين ........ ٤١٣
المشاهد والمزارات ........ ٤١٥
المنشآت الصحية في فلسطين/المستشفيات ........ ٤١٦
النهضة الطبية أيام المماليك ........ ٤١٧
الطب ومشاهير الأطباء في فلسطين ........ ٤١٨
نظام العمل في البيمارستان ........ ٤٢٠
مياه الشرب في المدن الفلسطينية ........ ٤٢١
قناة العرّوب ........ ٤٢٣
مشاريع مبكرة لتوفير مياه الشرب في القدس ........ ٤٢٥
مشاريع المياه في مدن فلسطينية أُخرى ........ ٤٢٦
سماط الخليل ........ ٤٢٧
الحمامات العامة ........ ٤٣٠
الخانات على الطرق السلطانية ........ ٤٣٣
الخانات في فلسطين ........ ٤٣٤

خان الظاهر في ضاحية القدس ..... ٤٣٥

الخانات على الطرق في فلسطين ..... ٤٣٦

الجسور والقناطر ..... ٤٣٨

الجسور على نهر الأردن (الشريعة) ..... ٤٣٩

جسر دامية ..... ٤٣٩

جسر المجامع ..... ٤٤٠

**الفصل الثامن: بلدانية فلسطين في الحقبة المملوكية ..... ٤٤١**

**المصادر ..... ٤٥٣**

**المراجع ..... ٥٠١**

باللغة العربية ..... ٥٠٣

باللغة الأجنبية ..... ٥١٥

**ملاحق ..... ٥٢١**

(١) كتاب يبشر فيه السلطان صلاح الدين الخليفة العباسي في بغداد بفتح مدينة القدس ..... ٥٢٣

(٢) فزع الإفرنج ونزوحهم المتعجل عن مدينة القدس بعد تحريرها ودخول السلطان صلاح الدين إليها ..... ٥٢٦

(٣) غدر أمير الكرك الصليبي، رينالد دو شاتيون، بقافلة التجار المسلمين ..... ٥٢٨

(٤) المؤرخ ابن شداد يصف فتح صفد وتحريرها من الصليبيين .. ٥٢٩

(٥) الهدنة العامة بين صلاح الدين وملك الإنكليز ريتشارد قلب الأسد ..... ٥٣٠

(٦) الظاهر بيبرس يوزع قرى المثلث إقطاعاً بين قادته ..... ٥٣٢

(٧) نصٌ على بلاطة في سور قلعة صفد أمر به الظاهر بيبرس ..... ٥٣٥





(٨) وصية وردت في مرسوم أحد سلاطين المماليك عيّن فيه أحد أمرائه في وظيفة ناظر الحرمين في مدينة القدس ..... ٥٣٦

(٩) مرسوم سلطاني بتعيين أحد الأطباء مدرساً للطب في المستشفى المنصوري في القاهرة ..... ٥٣٧

(١٠) مرسوم سلطاني بتعيين أحد الأمراء المماليك نائباً للسلطان في مملكة صفد ..... ٥٤٠

(١١) مرسوم سلطاني بتعيين أحد الأمراء والياً على جنين وناحية مرج ابن عامر ..... ٥٤٢

(١٢) وصف موكب زوجة أحد سلاطين المماليك ..... ٥٤٤

**فهرست ..... ٥٤٧**

# قائمة الصور والخرائط

**الصور**

- عَمواس، ١٨٥٥ - ١٨٦٠ .......... ٢٦
- أبو غوش، ١٨٨٣ .......... ٢٦
- قلعة خان يونس، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٧٠
- يافا، ١٨٥٥ - ١٨٦٠ .......... ١٩٥
- نابلس، ١٨٣٩ .......... ٢٠٠
- عكا، ١٨٣٠ - ١٨٤٠ .......... ٢٠٦
- عكا، ١٨٣٥ - ١٨٤٠ .......... ٢٠٨
- كفركنا، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٢٤١
- الرملة، ١٨٣٩ .......... ٢٤٤
- صفد، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٢٥٠
- جنين، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٢٧٧
- طبرية، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٢٩٨
- الخليل، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٣٢٠
- نبع العذراء - الناصرة، ١٨٧٥ - ١٨٨٠ .......... ٤٢٢

**الخرائط**

- الإمارات الصليبية في بلاد الشام .......... ١٦
- الدولة الزنكية في الجزيرة والشام ومصر .......... ٤٨
- الدولة الأيوبية أيام صلاح الدين الأيوبي .......... ٨٥

- الإمارات الصليبية والقلاع المسيحية والإسلامية قبل تحرير المسلمين لها ..... ١٠٦
- دولة مصر والشام أيام صلاح الدين الأيوبي ٥٦٤ - ٥٨٩هـ/ ١١٦٨ - ١١٩٣م ..... ١١٨
- دولة مصر والشام: عصر المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ - ١٣٨٢م وعصر المماليك البرجية ٧٨٤ - ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧م ..... ١٦٤
- تصفية الوجود الصليبي في الشام بعد صلح الرملة ..... ١٨٤
- المماليك ونهاية الصليبيين بالشام: تحرير عكا ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م ..... ١٩٠



# مدخل

لا يخفى على القارئ المطلع أن فلسطين، خلال الحقبة التاريخية التي تغطيها هذه الدراسة، لم تكن وحدة جيوسياسية واحدة، مثل القطر المصري أو القطر اليمني على سبيل المثال، وإنما كانت، في الواقع، مكونة من عدد من الوحدات الإدارية المستقلة إدارياً بعضها عن بعض، تعرف باسم النيابات، يدير شؤونها أمير مملوكي يحمل لقب «النائب» وتعيّنه السلطات. وكانت هذه النيابات ثلاثاً: نيابة صفد، ونيابة غزة، ونيابة القدس. ويجب أن نذكر، مع ذلك، أن هذا التقسيم الإداري لم يكن قائماً طوال الحقبة الزمنية التي نحن بصدد دراستها. ففي إبان الفترة الأيوبية التي امتدت قرابة ٧٠ عاماً، لم تكن فلسطين تشكل كياناً سياسياً/ إدارياً واحداً، وإنما كانت مقسمة بين الأيوبيين من جهة، وبين الفرنجة والصليبيين من جهة أُخرى. فكانت منطقة الساحل الممتدة من يافا حتى رأس الناقورة، مضافاً إليها النصف الشمالي من فلسطين، الذي شمل مرتفعات الناصرة ومنطقة غور الأردن الشمالي والجليل الشرقي والغربي، يخضعان للاحتلال الصليبي كجزء من مملكة القدس اللاتينية، بينما كانت الأجزاء الداخلية الواقعة شرقي السهل الساحلي، والتي كانت تشمل ولايتي نابلس والقدس بالإضافة إلى ساحل غزة، تابعة للدولة الأيوبية القائمة على أرض مصر وعلى أجزاء من أقاليم بلاد الشام. في هذا المناخ السياسي كان ملوك الأسرة الأيوبية، الذين كانوا يتعاقبون على الحكم في القاهرة أو في دمشق، يتبادلون السيادة على الجزء التابع لدولتهم من مناطق فلسطين. فمرة يكون هذا الجزء تابعاً سياسياً لملوك القاهرة، ومرة أُخرى يكون تابعاً لملوك دمشق. وظل الوضع السياسي لفلسطين الأيوبية على هذا الحال من التذبذب حتى دالت دولة بني أيوب وقامت على أنقاضها دولة سلاطين المماليك الأتراك بعد أواسط القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري. وبعد أن بسط سلاطين المماليك نفوذهم على مصر وبلاد الشام انحصرت التبعية السياسية لفلسطين في القاهرة، قاعدة مُلك السلاطين وعاصمتهم السياسية. ولم يكن ذلك مصير فلسطين الأيوبية فحسب، بل أيضاً مصير باقي مناطق فلسطين التي كانت تتحرر من قبضة الصليبيين فتُلحق هي الأُخرى تباعاً بسلطان القاهرة، سواء كانت ضُمت إلى نيابة صفد أو إلى نيابة غزة.

ومن الجدير بالذكر، في هذا السياق، أن الحدود السياسية/ الإدارية لفلسطين المملوكية لم تكن تقتصر على الحدود السياسية لفلسطين الانتدابية، التي رسمتها

اتفاقيات ترسيم الحدود بين إنكلترا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، إذ كانت حدود فلسطين المملوكية تعدت حدود الانتداب شمالاً لتشمل مساحات وأراضي وقرى في الجنوب اللبناني وفي منطقة البقاع الجنوبي، وذلك ضمن ثلاث ولايات لبنانية هي: ولاية صور، وولاية شقيف أرنون، وولاية تبنين وهونين، حتى إنها اتسعت في بعض المناطق لتلامس مجرى نهر الليطاني ومصبه جنوبي صيدا.

وفي مقابل هذا الاتساع رأينا أن بعض المناطق الفلسطينية الجبلية التي تقع غربي مجرى نهر الأردن، كناحية نابلس، أو كناحيتي القدس والخليل، وأحياناً نواحي ولاية الرملة، كانت تُلحق في بعض الفترات التاريخية بنيابة دمشق. واستمر إلحاق هذه المناطق إدارياً بنيابة دمشق إلى حين إنشاء نيابة القدس في نهاية القرن الرابع عشر كنيابة ثالثة في فلسطين، إضافة إلى نيابتي صفد وغزة.

على أساس من هذه الخلفية الجيوسياسية، واستناداً إلى هذا التداخل الإداري بين أقاليم فلسطينية من جهة وبين أقاليم وولايات سورية ولبنانية من جهة أُخرى، بات من الصعب الفصل بين تاريخ فلسطين الأيوبي والمملوكي وبين تاريخ أقاليم بلاد الشام الأُخرى، وخصوصاً الأقاليم التابعة لنيابة دمشق في الجنوب والغرب. ويبدو أنه نتيجة هذا التداخل رسخ في الأذهان مصطلح جغرافي بديل من مصطلح فلسطين عند بعض كبار الباحثين المعاصرين، هو مصطلح «جنوب بلاد الشام» الذي كان يشمل فلسطين وشرقي نهر الأردن معاً.

من ناحية أُخرى، ساهم نظام المركزية السياسية، الذي طغى على أنظمة حكم السلاطين الأيوبيين والمماليك، في توثيق أواصر هذا الترابط الجيوسياسي القائم بين فلسطين، ممثلة بنياباتها الثلاث، وبين الأقاليم والوحدات الإدارية الأُخرى في مصر وبلاد الشام، حيث كانت النظرة الشمولية التي تميز فلسفة الحكم المملوكي تسود كل ولايات ونيابات الدولة، لا يستثنى منها إقليم ولا يخرج عن نطاقها ولاية. فكانت نظم الإدارة ونظم الحكم ومؤسساته هي النظم نفسها والمؤسسات ذاتها في كل ولاية وولاية، فما كان قائماً أو معمولاً به في دمشق والقاهرة كان معمولاً به في نيابات صفد وغزة والقدس.

وعلى غرار هذه المشاكلة بين النسق والترتيبات الإدارية في كل ولاية وولاية، كانت الأنظمة الاقتصادية والهياكل المجتمعية والسياسة النقدية والمالية وأنظمة الضرائب والتجنيد واحدة كذلك، إذ كانت جميعها مختزلة في نظام الإقطاع العسكري الذي كان سائداً في جميع نيابات الدولة وأقاليمها وولاياتها، منذ نشأته أيام الأيوبيين الأولى حتى نهاية العهد المملوكي.

وقد انعكست رؤية المركزية على الحكم، والتي جعلت المقر السلطاني في



القلعة، قلعة الجبل في القاهرة، هو منطلق التاريخ ومنطلق الحدث، فتم التأريخ لكل النيابات في مصر وفلسطين وبلاد الشام من خلال ما يجري في قصور السلاطين، ومن خلال ما يصدر عنها من مراسيم وقرارات. وهو ما جسدته الحوليات التاريخية لكبار مؤرخي العهدين الأيوبي والمملوكي، كابن شداد وأبي شامة، ومن بعدهما المقريزي وابن تغري بردي وابن إياس. وجسده كذلك المؤرخون الذين ترجموا لبعض السلاطين، كابن شداد واليوسفي وابن عبد الظاهر، ثم مَنْ اهتموا بتراجم أعلام هذين العهدين، كالصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» وكابن تغري بردي في كتابه «المنهل الصافي». كما جسده مَنْ جعل تاريخ المدن محوراً لكتابة التاريخ كابن أبي جرادة في «تاريخ حلب»، والحمداني في «تاريخ صفد»، وصالح بن يحيى في «تاريخ بيروت»، ومجير الدين الحنبلي في «تاريخ القدس والخليل».

وحيال هذا الواقع الذي انعكس في المصادر التاريخية لتلك الحقبة، بات من المستحيل على من يرغب في كتابة تاريخ قطر من الأقطار أن يغض الطرف عما كان يجري في الأقطار الأُخرى؛ فعندما يؤرخ لمدينة القدس، على سبيل المثال، لا يمكنه أن يتغاضى عن دراسة تاريخ دمشق وحلب وطرابلس وبيروت والقاهرة والإسكندرية.

من هذا المنظور فإن كتابة تاريخ فلسطين، شأنها شأن كتابة تاريخ الأقطار الأُخرى، لن تكون سهلة ميسرة، إذ يتعين على من يريد ذلك أن يرجع إلى مصادر وموارد المعرفة والمعلومات من كل صنف من أصناف التأليف، مثل كتب الجغرافيا، وأدب الرحلات، وكتب الأنساب، ومؤلفات الفقه والقانون، ونظم الإدارة، وكتب الأدب والنوادر، وحتى تراجم الشعراء ودواوين شعرهم. ولعل الاطلاع على قائمة المراجع الواردة في آخر هذه الدراسة يشهد على ما نقول.

# مُقـدّمـة

## فلسطين عشية الغزو الصليبي

بعد ما يناهز خمسين عاماً من الفوضى العارمة التي عمت أرض فلسطين خلال الربع الأخير من القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر الميلاديين (٩٧٩ - ١٠٢٩م)، جرّاء الفتن والثورات التي تزعمها الأمراء العرب من بني الجرّاح الطائيين، والتي ساهم فيها حلفاؤهم من بني كلب وبني مرداس، نعمت فلسطين بفترة من الهدوء النسبي شهدت خلالها نوعاً من الاستقرار السياسي. فبعد معركة الأقحوانة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م)، جهة الشواطئ الجنوبية لبحيرة طبرية، هزم جيش فاطمي يقوده أمير الأمراء أنوشتكين الدِزْبِري قوات هذا التحالف القبلي الثلاثي وشتت شملها.[١] لكن فترة الهدوء التي أعقبت هزيمة التحالف لم تكن كافية لإصلاح ما أفسده نصف قرن من الفوضى على الرغم من الجهد الكبير الذي بذله الولاة الفاطميون الذين تولوا إدارة شؤون فلسطين. فقد كان الدمار الذي أصاب البلد من كبر الحجم والشمولية بحيث تضاءلت جهود الإعمار المبذولة، ولم تطل إلاّ أجزاء محدودة منه. فظلت الأوضاع المعيشية لأهل فلسطين على حالها من السوء لم تتغير. وفوق ذلك كله، تدخلت يد القدر لتساهم هي الأُخرى في تعطيل عملية الإعمار والترميم، بل لتزيد في حجم الدمار الذي حل بالبلد، وفي معاناة أهله. إذ تعرضت فلسطين على مدى العقود الأربعة التي أعقبت معركة الأقحوانة لسلسلة من الكوارث الطبيعية المتلاحقة، فضربتها زلازل مدمرة أتت على ما تم ترميمه من العمائر والمرافق والمنشآت، ودمرت ما ظل سالماً منها في إبان أعوام الفتنة. ومما زاد الطين بلّة أنه رافق هذه الزلازل أعوام من القحط شحت فيها الأمطار وجفت الينابيع والآبار، فهلك الزرع والضرع، وابتلي الناس بالمجاعات، وتفشت الأوبئة والطواعين فيهم. فمن لم يهلك منهم جوعاً وعطشاً فتكت بهم الأوبئة التي استعصت على العلاج. ولم تكن هذه الكوارث من نصيب فلسطين وحدها، بل عمت أيضاً بقية بلاد الشام ومصر، أرض الكنانة، فسُدَّت أمام الناس آفاق النجاة، وتقطعت بهم سبل الإغاثة. فكان هَمّ العربي في هذا الجزء من العالم الإسلامي أن ينجو بنفسه، وصار ينطبق عليه المثل القائل «أَنْجُ سعدٌ فقد هلك سعيد.»[٢]

في هذه الأثناء بدأت تلوح في الأفق مخاطر جدية من الشرق تمثلت بظهور الأتراك السلاجقة على المسرح السياسي في مشرق العالم الإسلامي. فلمّا شعر

الفاطميون، حكام فلسطين وبلاد الشام، بهذا الخطر رأوا من الحكمة أن يتصالحوا مع الإمبراطورية البيزنطية، جارتهم الشمالية التي كانت تعتبر إلى هذا التاريخ خصمهم اللدود، وذلك استعداداً للمواجهة المقبلة مع السلاجقة الخصم الجديد.(٣)

لكن المواجهة العسكرية المباشرة بين الفاطميين والسلاجقة لم تحدث بمجرد سيطرتهم على الخلافة العباسية في بغداد، وإنما تأخرت إلى ما بعد تنصيب الملك السلجوقي ألب أرسلان على كرسي السلطنة (١٠٦٣ - ١٠٧٢م). ففي سنة ١٠٦٩ بعث الوزير الفاطمي المنشق، ناصر الدولة الحسين بن حمدان، إلى السلطان ألب أرسلان يدعوه إلى تسلم مصر وإلحاقها بالدولة العباسية. فاغتنم ألب أرسلان الفرصة، ودخل جيشه بلاد الشام في طريقه إلى مصر. ولمّا وصل الجيش السلجوقي إلى حلب، أعلن أميرها ولاءه وطاعته للسلطان السلجوقي. وبينما كان الجيش يتهيأ لمغادرة حلب متجهاً نحو دمشق وصل الخبر بتحرك الإمبراطور البيزنطي على رأس جيش ضخم بنية الهجوم على خراسان. فاضطر السلطان ألب أرسلان إلى أن يصدر أوامره بعودة جيشه من حيث أتى، وجمّد خطته لغزو مصر.(٤)

### فلسطين والتركمان

بينما كان جيش السلاجقة يخوض حروبه ضد الجيش البيزنطي على أراضي آسيا الصغرى (أو بلاد الروم)، كانت مجموعات إثنية من الترك منخرطة فيه تشاركه في القتال ضد البيزنطيين، فحدث أن تمرد زعيم إحدى هذه المجموعات ضد سيده القائد السلجوقي. كانت هذه المجموعة تنتمي إلى فئة عرقية من الترك عرفت باسم التركمان الناوكية. وما لبث زعيمها أن قُتل على أرض الأناضول، فحل محله في الزعامة قائد آخر اسمه أتْسِز بن أُوق، وتعرّفه المصادر بأنه إيلغازي الخوارزمي.

جرت هذه الأحداث عندما كان والي فلسطين وبلاد الشام، الأمير الفاطمي بدر الجمالي، يخوض مواجهات عسكرية ضد الوزير الفاطمي المنشق الحسين بن حمدان من أجل الاحتفاظ بولايته، والتصدي لمحاولات الأخير الاستيلاء على فلسطين وبلاد الشام وانتزاعها منه. أسفر هذا الصراع عن فقدان بدر الجمالي سيطرته على أغلبية المناطق والمدن الفلسطينية، ولم يبق تحت سيطرته إلاّ مدينتان: عكا في فلسطين، وصيدا في ساحل لبنان. إزاء الوضع العسكري المتدهور الذي آلت إليه سلطة بدر الجمالي في فلسطين لم يكن أمامه من سبيل، وقد حالت قوات الحسين بن حمدان بينه وبين الاتصال البري بمصر، إلاّ أن يفتش عن نصير يمده بالعساكر والمقاتلين عسى أن يسترد ما فقده من مدن فلسطين، أو على الأقل يساعده في الاحتفاظ بما



LAU LIBRARY
BEIRUT

بقي تحت سيطرته. وكان رجاله الذين يستطلعون له الأخبار قد أفادوه بحركة التمرد التركمانية التي حدثت على أرض الأناضول، فأُجريت الاتصالات بعناصرها من أجل التحاقهم بعسكره، وتمخض ذلك فعلاً عن انضمامهم إليه. لم تحدد الروايات التاريخية عدد العساكر الذين قادهم أتسز بن أوق من التركمان الناوكية، فقدرهم المقللون بـ ٦٠٠٠ فارس، بينما جعلهم المكثرون ١٢,٠٠٠ فارس. ولمّا دخلوا أرض فلسطين، سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠ - ١٠٧١م، أناط بدر الجمالي بهم مسؤولية التصدي لغارات البدو، أبناء القبائل العربية الذين اعتادوا الإغارة عبر نهر الأردن على ما يصادفهم من القرى والمزارع والأموال والمواشي داخل فلسطين، فضلاً عما كانت تخلفه هذه الغارات من تدمير المرافق وإزهاق الأرواح وسبي الحرائر والغلمان. ومن أجل تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل أقطعهم بدر الجمالي البلاد والضياع في منطقة الغور والمناطق الأُخرى التي تتاخم حدود البادية، يستغلون جباياتها وخراجها في الإنفاق على أنفسهم وأهلهم، وعلى ما يحتاج إليه مقاتلوهم من خيول وأعلاف وسلاح.(٥)

لم يكن التركمان الناوكية أول جماعة تركمانية تصل إلى أرض فلسطين. فقبل وصولهم بسبعة أعوام، وبالتحديد سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، استدعى أحد أمراء المرداسيين في حلب مجموعة منهم، مستعيناً بها في نزاعه ضد أبناء عمومته بشأن الإمارة. فوصل إلى حلب عدة آلاف من الفرسان بزعامة قائد تركماني عرف باسم ابن خان، وبقوا هناك أربعة أعوام نشب في نهايتها خلاف بينهم وبين سيدهم الأمير المرداسي، غادروا في إثره المدينة وانضموا إلى القاضي ابن أبي عقيل، والي مدينة صور، الذي استعان بهم في أثناء تمرده على سلطة والي الشام الفاطمي بدر الجمالي. ويبدو أنهم حاولوا استغلال جو الصراع والمنافسة بين الزعيمين الفاطميين من أجل الحصول على أقصى ثمن ممكن. ومن أجل ذلك اتصلوا سراً ببدر الجمالي. ولمّا علم والي مدينة صور بذلك أوجس من التركمان خيفة، وأمر رجاله باغتيال زعيمهم ابن خان. وعندها خرج التركمان من صور وانضموا إلى حليفهم الجديد بدر الجمالي، الذي رحب بخطوتهم تلك وضمهم إلى عساكره ليتقوى بهم.(٦) ويبدو أن هذه المجموعة من التركمان الذين استقروا بفلسطين كانت قليلة التأثير في مجريات الأحداث، إمّا بسبب قلة عددها، وإمّا لأن بدر الجمالي استوعب أفرادها في مجمل عساكره. وذلك على عكس ما تركته مجموعة التركمان الناوكية من بصمات على مسرح الأحداث في فلسطين. كان السبب المباشر الذي دفع بهذه المجموعة إلى التحرك هو اقتناع أفرادها بأن الإقطاع الذي منحهم إياه بدر الجمالي في مقابل خدماتهم العسكرية لم يكن كافياً لسد حاجاتهم وإشباع نهمهم، وطمعوا بالمزيد، وأخذوا يلحون عليه في أن يصرف

لهم رواتب نقدية غير الإقطاع الذي مُنحوه. ولمّا لم يستجب بدر الجمالي لمطالبهم أعلنوا ولاءهم لخصمه المتمرد على سلطته والي مدينة صور، ثم بادروا بهجوم مفاجئ على مدينة طبرية وناحيتها. وعندما أرسل بدر الجمالي حلفاءه من العرب أبناء القبائل لطردهم من طبرية، ألحقوا بأبناء هذه القبائل هزيمة منكرة، واقتفوا آثار المنهزمين شرقي الشريعة، واجتاحوا منطقة البلقاء، ودخلوا قلعة عمّان ونهبوا ما فيها من ذخائر وسلاح وغلال.[٧]

بات التركمان الناوكية بعد واقعة طبرية أحد الأطراف السياسية الفاعلة على مسرح الحدث في فلسطين، جنباً إلى جنب مع الدولة الفاطمية والأمراء السلاجقة الذين سيقتحمون الساحة الفلسطينية بعد بضعة أعوام من هذه الواقعة. وبذلك تغيرت مكانة التركمان الناوكية تغيراً جوهرياً. فعندما وصلوا إلى فلسطين، أول ما وصلوا، كانوا مجرد قوة عسكرية رديفة، كجيش مرتزق يؤجر أفراده سيوفهم لمن يزيد في ثمنهم، ثم تحولوا إلى قوة سياسية مناهضة للقوة الأصيلة التي يجسدها بدر الجمالي، كممثل شرعي للخلافة الفاطمية، صاحبة البيت في فلسطين وبلاد الشام.

كان التركمان الناوكية هؤلاء ينتمون إلى خليط متعدد من الجماعات الإثنية والشعوب التي كانت تعيش خارج حدود الحضارات القروسطية. وكان علماء الاجتماع العرب المسلمون صنفوا هذه الكتلة العرقية ضمن هذه المجموعات الهمجية، مثلها مثل الشعوب والأعراق الأُخرى التي سبقتها أو لحقتها، كالسلاجقة والتتار والمغول، والتي اخترقت حاجز الهمجية وألقت بنفسها في متاهات مجتمعات الحضارة.[٨] بمثل هذا الموروث الهمجي المناقض للفكر الحضاري، كان من المفترض بالتركمان الناوكية أن يتصرفوا على سجيتهم مطلقين العنان لطبائعهم وغرائزهم الهمجية في أول احتكاك لهم بالمجتمعات المتحضرة، كما فعل من جاء بعدهم من التتار والمغول. لكن، وعلى عكس كل التوقعات بشأنهم فقد أظهروا قدراً من الوعي الحضاري الذي حكم سلوكهم مع أهل فلسطين. وقد انعكس ذلك في سعيهم لإعادة إعمار ما كان خرب من المدن والقرى الفلسطينية التي خضعت لسيطرتهم. وهذا ما فعلوه في مدينة الرملة التي كان دمرها الزلزال الكبير، الذي خربها وخرب باقي أجزاء فلسطين سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧ - ١٠٦٨م، فأصبحت بعده خاوية على عروشها خالية من سكانها. فقام التركمان الناوكية بتوطين الفلاحين في الرملة، وشجعوهم على عمارتها وإحياء بساتينها ومزارعها، وشرعوا في تنظيم الجبايات على غلالها. كذلك شجعوا استئناف التجارة وضمنوا أمنها وأمن القوافل التي تتحرك على طرق فلسطين، والتي تتحرك ما بين ميناء عكا ومدينة دمشق، بل سعوا للسيطرة على عكا والتحكم في مرفئها وفي السفن التجارية التي ترسو فيه وتقلع منه.[٩]



LAU LIBRARY BEIRUT

## فلسطين تحت سيطرة التركمان الناوكية

تميز التحرك السياسي للتركمان الناوكية بقدر كبير من الواقعية السياسية، فلم يسقطوا من حساباتهم موازين القوى المتغيرة بين القوتين الإسلاميتين العظميين: الدولة الفاطمية في مصر وبلاد الشام، والخلافة العباسية في العراق والمشرق وذراعها التنفيذية الفاعلة التي تمثلها سلطنة السلاجقة. ومع أن التركمان الناوكية كانوا يدينون بمذهب أهل السنّة والجماعة، مثلهم مثل التركمان السلاجقة الذين أصبحوا حماة الخلافة السنّية في بغداد، إلاّ إنهم لم ينقادوا لأهوائهم المذهبية، ولم يفصحوا عن عداوتهم للفكر الشيعي، الذي تمثله الخلافة الفاطمية في مصر، على الرغم من أنه كان في نظرهم فكراً هرطقياً خارجاً عن الفكر الديني الذي يطرحه أهل السنّة والجماعة. والدليل على ذلك أن التركمان الناوكية لم يعلنوا ولاءهم السياسي لخلافة بغداد على أي من منابر فلسطين التي خضعت لسيطرتهم في مراحل نشاطهم السياسي المبكر. وعلى العكس من ذلك فقد حرصوا على إظهار ولائهم للفاطميين، واستمروا في إلقاء الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر، تعبيراً عن رغبتهم في كسب دعمه في صراعهم ضد واليه في بلاد الشام بدر الجمالي، أو على الأقل لتحييده في هذا الصراع.[١٠]

بعد أن استولى أتسز بن أوق، زعيم التركمان الناوكية، على الرملة وبعض الأجزاء الداخلية من فلسطين صرف اهتمامه للسيطرة على مدينة القدس، فتوجه نحوها سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢ - ١٠٧٣م، وحاصرها، فاضطر قائد حاميتها الفاطمي إلى الإذعان وطلب الأمان. وبسقوط القدس في أيدي التركمان الناوكية خضعت أغلبية فلسطين لسيطرتهم، ولم يبق تحت سيطرة بدر الجمالي إلاّ طبرية ومدينتا الساحل عسقلان وعكا.[١١]

أثار احتلال أتسز بن أوق مدينة القدس غضب الخليفة الفاطمي، لأنها كانت إحدى أهم ركائز الشرعية التي تستند إليها الخلافة الفاطمية، فكان فقدانها يعني فقدان تلك الشرعية. وإدراكاً من أتسز بن أوق لهذه الحقيقة، وتفادياً لعواقب غضب الخلافة الفاطمية، فقد سارع إلى إعلان ولائه السياسي للخليفة العباسي القائم بأمر الله، ولسلطانه السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان، الذي تولى السلطنة بعد وفاة أبيه، وألقيت الخطبة باسميهما على منابر فلسطين. ثم بعث أتسز بن أوق برسالة إلى بلاط الخليفة العباسي تحمل البِشارة بفتحه القدس. فتلقى الخليفة هذه البشارة بالفرح والاستبشار، ورفع ذلك من مكانة الزعيم التركماني في نظره ونظر سلطانه السلجوقي لأنه انتزع من الفاطميين الشيعة، أعداء الخلافة العباسية السنّية، رمزاً عزيزاً من الرموز

الإسلامية المقدسة، وقدمه على طبق من ذهب إلى خليفة بغداد.[١٢]

بعد النجاح العسكري والسياسي الذي أحرزه أتسز بن أوق في إثر انتزاعه مدينة القدس من الفاطميين، شعر بمزيد من الثقة والعزم على توسيع دائرة طموحه في الاستيلاء على مناطق جديدة من أراضي فلسطين وبلاد الشام. فاستغل عودة الأمير الفاطمي بدر الجمالي إلى مصر بعد أن استدعي لمعالجة بعض التطورات في القاهرة، وحاصر مدينة عكا التي سقطت وتم الاستيلاء عليها سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤ - ١٠٧٥م. عيَّن أتسز أخاه شكلي والياً على عكا ليتفرغ بنفسه لمهاجمة دمشق وتخليصها من أيدي الفاطميين. لكن لم يمض وقت طويل على تعيين شكلي بن أوق في هذا المنصب حتى نازعته نفسه الاستقلال بالسلطة والانشقاق على سلطة أخيه أتسز، فأعلن ولاءه للخلافة الفاطمية، وأعاد الخطبة للخليفة على منابر عكا آملاً بالفوز بدعمه لحركته الانفصالية. صمد شكلي أمام الضغط العسكري الذي مارسه أتسز ضد مدينة عكا، وساعده في ذلك الاتصال البحري بين ميناء عكا ومدن الساحل الأُخرى الخاضعة للدولة الفاطمية. لكن استمرارية الضغوط العسكرية التي جوبه بها اضطرته إلى البحث عن حلفاء محتملين يستعين بهم على التصدي للهجمات البرية التي يشنها جيش أخيه أتسز. وجد الأمير شكلي في أبناء أسرة قتلمش السلجوقية، التي كانت تقيم ببلاد الروم، حلفاء في حربه ضد أخيه. وكانت هذه الأسرة تنافس أبناء عمومتها سلاطين السلاجقة في بغداد والمشرق وتنازعهم الزعامة. وجد أمراء هذه الأسرة في توجه الأمير شكلي بن أوق التركماني فرصة يتصدون فيها لمخططات سلاجقة بغداد لتوسيع نفوذهم في بلاد الشام، ولهذا السبب استجابوا لطلب العون، وأرسلوا أحد أمرائهم على رأس قوة عسكرية لتقاتل مع شكلي على أرض فلسطين. أمّا أتسز بن أوق فلم يبق مكتوف اليدين إزاء نجاح أخيه شكلي في تحويل الصراع المحلي بينهما إلى صراع إقليمي، وقام بطلب العون من السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان، الذي لبى الطلب وأرسل من العراق جيشاً من غلمانه (من الميليشيات الخاصة)، قوامه ٣٠٠٠ فارس، نجدة لأتسز بن أوق. خاض الطرفان، أتسز بن أوق وأخوه شكلي بن أوق، وحلفاؤهما من السلاجقة معركة عند مدينة طبرية أسفرت عن مقتل شكلي وأسر حليفه ابن قتلمش أمير السلاجقة الروم. وعلى الرغم من أن انتصار أتسز أنهى تمرد أخيه فإن النتيجة النهائية لم تكن في مصلحته، إذ استطاع الفاطميون إعادة سيطرتهم على ميناء عكا مستغلين انشغال أبناء الأسرة الناوكية بالفتنة التي قادها شكلي بن أوق.[١٣]

والأهم من ذلك كله أن الفتنة داخل الأسرة الناوكية كانت مقدمة لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في فلسطين وبلاد الشام، إذ تحولوا خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى اللاعب الرئيسي



في المناطق الداخلية من بلاد الشام وفلسطين بعد أن انحصر النفوذ الفاطمي في بعض المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط، من عسقلان في جنوب فلسطين حتى ميناء طرابلس على الساحل اللبناني في الشمال.

### دولة التركمان ونهايتها

لم تتوقف مطامح التركمان الناوكية عند الاستيلاء على فلسطين والمناطق الجنوبية من بلاد الشام. ففي الوقت الذي كان أتسز بن أوق يتصدى لتمرد أخيه في عكا تثبيتاً لسيطرته على أرض فلسطين، أخذ يشن الغارات على مدينة دمشق التي كان لا يزال يحكمها حتى هذه اللحظة الوالي الفاطمي مُعَلّى بن حيدرة بن منزو. فتواصلت الغارات عليها حتى انهارت القوات المدافعة عنها، وسقطت المدينة في يد أتسز بن أوق سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥ - ١٠٧٦م. وبسقوط دمشق أصبحت مملكة أتسز التركماني تمتد من حمص في الشمال حتى حدود فلسطين الجنوبية المتاخمة لشبه جزيرة سيناء، ما خلا مدينتي عسقلان وعكا الساحليتين اللتين ظلتا في قبضة أمير الجيوش الفاطمي بدر الجمالي.

كانت تتربص بأتسز قوتان كبيرتان لا طاقة له بهما: الفاطميون من الغرب يمثلهم بدر الجمالي، الذي استولى على منصب الوزارة في مصر وصار بذلك القوة الفاعلة الوحيدة فيها، والسلطان السلجوقي من الشرق. أمّا الفاطميون فكانوا يعدون العدة لاستعادة ولاياتهم التي فقدوها في بلاد الشام، وأمّا السلطان السلجوقي فكان ينتظر الفرصة المؤاتية للتخلص من مطامح أخيه إلى السلطة عن طريق إشغاله بالاستيلاء على بلاد الشام. أمام هذا التهديد الذي كان يواجه دولة أتسز بن أوق لم يكن أمامه من حيلة سوى مهاجمة مصر قاعدة خصمه الموتور بدر الجمالي. وكان يقدّر أن هجوماً سريعاً ومباغتاً عليها سيضمن له على الأقل فرصة تدمير القوة العسكرية الهجومية التي كان يعد لها بدر الجمالي لاستعادة أملاك الفاطميين المفقودة في فلسطين وبلاد الشام، أو أن هجوماً كهذا سيمكنه من الاستيلاء على مصر لتصبح عمقاً استراتيجياً يوفر له حرية الحركة وإمكانات الصمود أمام هجوم سلجوقي قادم من المشرق في المستقبل المنظور.

من أجل ذلك حشد أتسز جيشاً من مرتزقة التركمان ومن أعراب بلاد الشام ومنطقة دمشق قدر بـ ٢٠,٠٠٠ مقاتل، وسار على الطريق الساحلية وتوغل في أرض مصر. لكنه فوجئ بالإعداد الجيد الذي كان بدر الجمالي ينتظر فيه مثل هذا الهجوم. هزم أتسز عند بلبيس هزيمة منكرة أطاحت أغلبية جيشه (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦ - ١٠٧٧م)،



LAU LIBRARY
BEIRUT

وعاد فاراً مع بضعة عشر نفر من عساكره ووصل إلى غزة، حيث ثار أهلها في وجهه، ففر منها مسرعاً إلى الرملة ليجد أهلها وقد ملأهم شعور التشفي بهزيمته وإذلاله، فواصل مسيره حتى وصل إلى دمشق، وشرع في ترميم جيشه وعساكره.[١٤]

كان لفشل الحملة العسكرية، التي قادها أتسز بن أوق على مصر، مضاعفات على الصعيدين المحلي والإقليمي انعكست آثارها على مجريات الأحداث في فلسطين. فعلى الصعيد المحلي تفجرت في مختلف المدن الفلسطينية ثورة شعبية عارمة شملت مدن القدس والرملة وغزة ويافا. فشق الناس عصا الطاعة على أتسز التركماني وأعلنوا ولاءهم للخليفة الفاطمي، وأعادوا الخطبة له على المنابر. وكان التعبير عن هذه الثورة أكثر حدة في مدينة القدس، حيث وقف قاضي المدينة وطاقم الشهود (أي موظفو الجهاز القضائي) على رأس التمرد الشعبي، فصادروا خزائن المال التي كان أتسز بن أوق أودعها المدينة واقتحموها. وعمدوا إلى نساء الأسرة الحاكمة وحريم ونساء التركمان وأخذوهن سبايا، واسترقوا أبناءهن، واستولوا على جواريهن وعبيدهن.

خرج أتسز من دمشق نحو مدينة القدس ومعه عساكره من التركمان لمعالجة التمرد. ولمّا اقترب من المدينة أُغلقت أبواب السور، ولم يتمكن هو وجنوده من اقتحامها، ولم تنفع الحيل التي عملها في إقناع المتمردين بفتح الأبواب على الرغم من أنه كان بذل لهم الأمان. وكانت أسرة أتسز تقيم ببرج داود، داخل قلعة القدس، ولم يتمكن المتمردون من الوصول إليها. فاستغل أفراد الأسرة فرجة في سور القلعة تفضي إلى خارج الأسوار، وخرجوا منها من دون علم المتمردين، ودلوا أتسز وجنوده عليها، فدخل منها مع بعض الجنود، وفتح الأبواب لباقي عسكره. ثم شرع في تقتيل أهل المدينة حتى قيل إنه قتل ٣٠٠٠ إنسان، وفر الباقون واحتموا بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة، وكان ذلك سبباً في نجاتهم، إلاّ إن أتسز فرض عليهم فدية باهظة في مقابل استحيائهم. أمّا قادة التمرد، القاضي ورجاله، فألقى القبض عليهم، وأمر بإعدامهم وهو ينظر إليهم. بعد ذلك أطلق أتسز أيدي جنوده عبثاً وفساداً ونهباً في دور المدينة، وحملوا ما نهبوه وباعوه في أسواق دمشق.

بعد فراغ أتسز من تأديب مدينة القدس وأهلها توجه نحو الرملة، وكان أهلها تركوها وفروا نجاة بأنفسهم وحريمهم وأموالهم لهول ما سمعوه عما ارتكبه هذا الطاغية من جرائم بحق أهل مدينة القدس. فترك الرملة وأسرع نحو مدينة غزة ليعمل سيف الانتقام بأهلها حتى قيل إنه لم يترك فيها عيناً تطرف. ثم مضى وجنوده في قرى غزة وريفها حتى بلغوا حدود العريش وهم يمعنون في النهب والقتل وانتهاك المحارم. وتوجه من هناك نحو مدينة يافا ليكمل تصفية الحساب مع أهل فلسطين. وعندما سمع أهلها باقترابه أغلقوا أبواب المدينة ليعوقوا دخوله حتى يتسنى لهم ركوب



LAU LIBRARY BEIRUT

البحر والنجاة بأنفسهم وأموالهم إلى ميناء صور اللبناني. ولمّا فشل أتسز في بلوغ هدفه، ولم يتمكن من إشفاء غليله، صب جام غضبه على أسوار مدينة يافا فدكها دكاً.[١٥]

على الصعيد الإقليمي لم تسفر حملة أتسز الفاشلة على مصر عن أي تغير في ميزان القوى، فظلت مصر الفاطمية وسلطنة السلاجقة في بغداد تشكلان خطراً استراتيجياً على دولة أتسز التركمانية في فلسطين، وتهددان تطلعاته إلى الاستقرار وطموحاته إلى التوسع والانتشار. بل إن وضعه السياسي والعسكري بعد الهزيمة أولاً، وبعد تمرد أهل فلسطين ثانياً، أصبح أكثر هشاشة وأكثر عرضة للأذى عما كان عليه قبل حملته على مصر. وعلى ما يبدو فإن أتسز شعر بهذا الضعف الطارئ الذي أصاب مكانته وشرخ جدار هيبته. وقد أكدت ذلك رسالة التطمين المذعورة التي أرسلها إلى السلطان السلجوقي ملكشاه يعبر فيها عن نيته شن غارة جديدة ضد الفاطميين في مصر. ولم يكن السلطان ملكشاه بحاجة إلى مثل هذه الرسالة، أو إلى أي مؤشر آخر، ليكتشف أن أتسز لم يعد قادراً على الاستمرارية والصمود.

في سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧ - ١٠٧٨م، أصدر السلطان السلجوقي مرسوماً يعطي بموجبه أخيه تُتُش (Tutush) بلاد الشام إقطاعاً. وفي العام التالي، خرج تتش على رأس جيش من غلمانه نحو الشام، وبدأ بمدينة حلب فحاصرها بعد أن كان أخضع جميع المناطق الممتدة ما بين ديار بكر حتى حمص لنفوذه. وعلى الرغم من أن المرسوم الذي أصدره السلطان إلى أخيه لم يشمل المناطق الجنوبية من بلاد الشام، وخصوصاً دمشق وأرض فلسطين، وهي المناطق الواقعة ضمن دولة التركمان الناوكية، فإن مخاوف أتسز بن أوق من دخول تتش أرض الشام، كانت أكبر من أن يخفيها. فأرسل كتاباً آخر إلى السلطان يبرئ نفسه فيه من أي مخالفة قد تغضب السلطان، أو قد تبرر إرسال جيوشه إلى بلاد الشام، ويكرر فيه استعطافه واعتذاره.

وبينما كان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي في معسكره في منبج إلى الشمال الشرقي من حلب، بعد أن أخفق في الاستيلاء على المدينة بعد حصارها، وصل إليه كتاب استغاثة من أتسز في دمشق يستحثه على نجدته ضد الهجوم الفاطمي الذي بادر إليه الأمير بدر الجمالي، وزير الخلافة الفاطمية. فبعد تلكؤ لأكثر من عامين، بعد الغارة الفاشلة التي قام بها أتسز بن أوق على مصر، أرسل الوزير بدر الجمالي جيشاً فاطمياً يقوده الأمير ناصر الدولة الجيوشي إلى الشام لإخراج أتسز من دمشق وفلسطين. ولمّا وصل الجيوشي إلى دمشق حاصرها، ولذا أرسل أتسز بن أوق كتاب الاستغاثة إلى القائد السلجوقي تتش بن ألب أرسلان أكد فيه أنه يضع نفسه في تصرفه، وأنه سيكون مجرد نائبه في حكم بلاد الشام.[١٦]

رأى الأمير السلجوقي تتش بن ألب أرسلان في دعوة أتسز إلى التدخل لإنقاذه من الهجوم الفاطمي فرصة طال انتظارها لتحقيق مطامحه إلى السيطرة على بلاد الشام، فتحرك من معسكره في منبج وخرج مسرعاً نحو دمشق. ولمّا علم القائد الفاطمي ناصر الدولة الجيوشي بحركة تتش أسرع إلى فك حصاره عن دمشق، وانسحب جنوباً ليعسكر في الرملة يرقب منها تطور الأحداث. وصل تتش وأمر بأن يلقى القبض على أتسز بحجة تقصيره في تأدية مراسم الاستقبال التي تليق بأمير مثله. وكانت تلك الذريعة التي اتكأ عليها تتش للتخلص من أتسز، فقام بخنقه بوتر قوسه في ١١ ربيع الثاني ٤٧١هـ/ ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٧٨م، واستولى بذلك على دولته، دولة التركمان الناوكية في دمشق وفلسطين.[١٧]

كان استيلاء تتش السلجوقي على دمشق قد وضع السلاجقة، لأول مرة منذ ظهورهم على المسرح السياسي للعالم الإسلامي، على خط المواجهة مع الدولة الفاطمية. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الوجود السلجوقي على أرض بلاد الشام في هذه المرحلة لم ينشأ عن خطة سياسية استراتيجية على مستوى السلطنة، أو بالأحرى على مستوى السلاجقة الكبار، كما تسميهم المصادر، وإنما كان نتيجة تدبير احترازي قام به السلطان ملكشاه للتخلص من أخيه تتش كمنافس مستقبلي لأبنائه بشأن وراثة منصب السلطنة. ولم يكن انخراط تتش في الصراع العسكري بين أتسز بن أوق والفاطميين قد حدث بأمر من أخيه السلطان أو حتى بعلمه. ولعل إدراك تتش هذه الحقيقة هو الذي تحكم في سلوكه السياسي والعسكري مع الدولة الفاطمية على أرض الشام. إذ تميزت تحركاته بكثير من الحذر، فبعد استيلائه على دمشق وقتله الزعيم التركماني أتسز بن أوق لم يندفع إلى الاستيلاء على ما تبقى من مملكة الأخير على أرض فلسطين. كما أنه لم يدخل مواجهة عسكرية سريعة ومباشرة ضد الأملاك الفاطمية على الساحل، لأنه لم يكن يضمن أن يتلقى الدعم العسكري اللازم لمواجهة كهذه من أخيه السلطان. وبالمثل فقد ساد الحذر ردات الفعل التي أبداها الفاطميون تجاه هذا الأمير السلجوقي الذي غزا دمشق، لأنهم لم يكونوا على يقين من موقف السلطان في بغداد من أخيه، وكانوا يخشون مواجهة شاملة مع السلطنة السلجوقية، التي قد تلقي بكل ثقلها العسكري، إذا هم تحدوا وجود تتش في الشام وفلسطين.

سعى الأمير السلجوقي تتش، كغيره من الحكام المسلمين، وكغيره من أمراء العساكر المغامرين ممن سبقوه، أو ممن لحقوه، للاستيلاء على مدينة القدس لما لها من وزن نوعي ورمزية دينية مركزية في إسباغ صفة الشرعية على الدول والحكام.



ولذلك نراه وبعد مرور أقل من عام على استيلائه على دمشق يرسل جيشاً لمحاصرة القدس، سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩ - ١٠٨٠م، والتي كانت لا تزال في يد ممثل يلي أمرها باسم أتسز بن أوق. وامتدت محاصرة جيش تتش للمدينة حتى سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢ - ١٠٨٣م، حين أرسل أحد قادته التركمان، وهو أرتق بن أكسب (Urtuk)، والد الأميرين الأرتقيين اللذين سيتوليان مدينة القدس حتى قبيل سقوطها في أيدي الصليبيين بوقت قصير. استطاع أُرْتُق أن يدخل مدينة القدس بعد أن ضمن لممثلي أُسرة أتسز خروجاً آمناً منها. ومنذ التاريخ المذكور منح تتش بن ألب أرسلان مدينة القدس إقطاعاً للقائد أرتق الذي ترك إدارتها لابنيه سقمان وإيلغازي، ليتفرغ للنشاط العسكري السلجوقي في أماكن متعددة.[١٨]

بعد استيلاء تتش على دمشق والقدس وأجزاء أُخرى من فلسطين ظل الغموض والضبابية يكتنفان العلاقة بينه وبين أخيه السلطان، ولعل ذلك كان سبباً في حرص الطرفين على استمرارية الأوضاع الراهنة (status quo) في بلاد الشام. وهذا ما حدا الأطراف الفاعلة على الساحة السياسية في بلاد الشام على البحث عن صيغة للتعايش (modus vivendi) فيما بينها.

كانت فلسطين في الأعوام السبعة عشر الأخيرة، التي سبقت الغزو الصليبي، تتقاسمها دولتان: الدولة الفاطمية، ودولة سلاجقة الشام. فكان نصفها الغربي، أي الجانب الساحلي، يقع تحت النفوذ الفاطمي وخصوصاً الموانئ والمدن الساحلية، مثل غزة ويافا وأرسوف وقيسارية وعكا. بينما كان نصفها الشرقي، من أعالي الجليل شمالاً حتى حدود فلسطين مع صحراء سيناء، بمدنه وقراه في أيدي السلاجقة، بما في ذلك مدن طبرية ونابلس والرملة والقدس والخليل.

وبالتالي، بدأ الفاطميون يوسعون منطقة نفوذهم على حساب مناطق نفوذ السلاجقة، فانتزعوا منهم مدينة الرملة أول الأمر. وقبيل الغزو الصليبي لفلسطين وسقوط مدينة القدس في يدهم بوقت قصير، استعاد الفاطميون سيطرتهم على مدينة القدس. وكانت القدس منذ سقطت في يد تتش بن ألب أرسلان، سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢ - ١٠٨٣م، خضعت لقائده التركماني أرتق، ثم من بعده لولديه، وظلت تحكمها الأسرة الأرتقية إلى أن استعادها أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي، سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥ - ١٠٩٦م، فأخرج منها التركمان.[١٩]



LAU LIBRARY BEIRUT

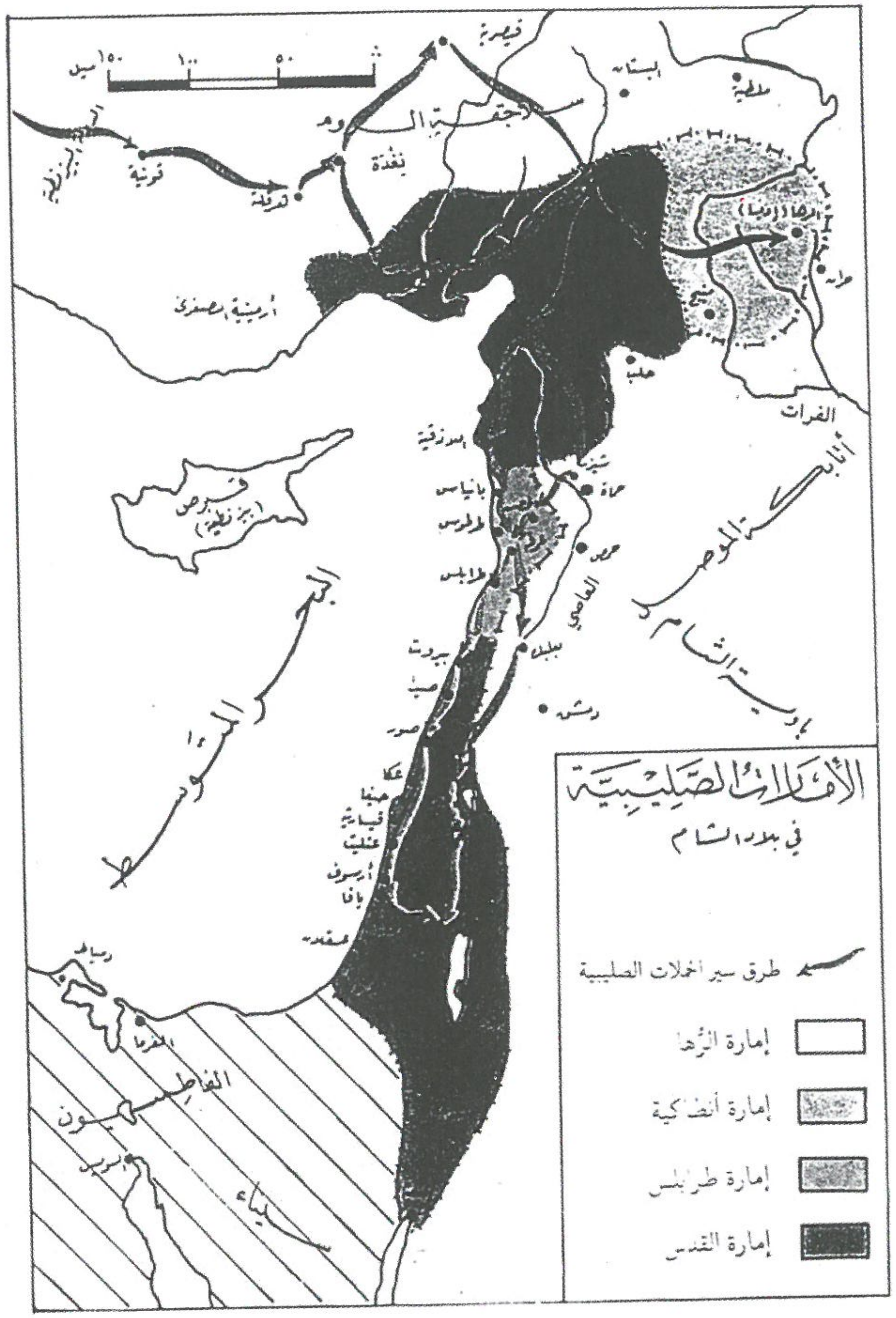




LAU LIBRARY
BEIRUT

## الفصل الأول

# فلسطين بين الفرنجة وصلاح الدين

### وحدة الفرنجة وفرقة المسلمين

مهما تختلف الآراء في شأن تشخيص الحروب الصليبية، ومهما تتباين الاجتهادات في حصر دوافعها وتحديد طابعها، فإن تصوير تلك الحروب على أنها حرب دينية باسم المسيحية من أجل تحرير القبر المقدس في بيت المقدس ليُعَدّ ضرباً من التجني. ولعل الرأي الذي رأى أنها حرب أوروبية إفرنجية وضعت غزو المشرق الإسلامي والاستيلاء عليه في رأس أهدافها، لهو رأي جدير بالثقة والتصديق. ومهما يكن من أمر دوافعها، وطبيعة المتغيرات السياسية والدينية والاقتصادية التي تفاعلت على الساحة الأوروبية وتمخضت عنها هذه الحرب، فإن هناك حقيقة تاريخية ناصعة فرضت نفسها على مسرح الحدث، وكان لها من ثم الدور الفاعل في حسم نتيجة هذا الغزو لمصلحة الأوروبيين الغزاة. وهي التي مهدت في الوقت نفسه لتعزيز انتصار الصليبيين وتثبيت احتلالهم في فلسطين والأجزاء الأُخرى من بلاد الشام طوال ما يقرب من قرن كامل قبل أن يحدث التغيير في ميزان القوى بين قطبي الصراع، من مسلمي المشرق ومن الأوروبيين، وتبدأ بذلك مسيرة التحرير التي استغرقت قرناً آخر من الصراع حتى بلغت منتهاها.(1)

كان لهذه الحقيقة شقان: الأول أن الغزاة الأوروبيين من الصليبيين، الذين تسميهم المصادر العربية الفرنج أو الإفرنج (بينما أطلق بعض الروايات الأولى عليهم اسم الروم)، خاضوا المعركة وهم موحدون في كتلة واحدة، على الرغم من أنهم كانوا خليطاً من الجنسيات والقوميات الأوروبية ذات مآرب شتى وأهداف متباينة. أمّا الشق الثاني فهو ما كان متعلقاً بالمسلمين، الطرف الذي استهدفته الحرب واستهدفت بلاده، إذ خاضوا الحرب مفككين متشرذمين، فوقف كل فريق منهم وحيداً لم يجد من يهب إلى نجدته ليواجه مصيره المحتوم.

على أرض بلاد الشام التي استهدفها الغزو الفرنجي كانت مجموعة من الكيانات السياسية تتنافس فيما بينها تنافساً سياسياً أو تنافساً عقائدياً. ويمكن حصر هذه الكيانات في ثلاث فئات هي: إسلامية مشرقية سنّية؛ إسلامية مغربية شيعية؛ عربية إسلامية محلية أو شامية. ولم يقتصر التنافس على مستوى الفئات الثلاث فحسب، بل تعداه

ليشمل المجموعات داخل الفئة الواحدة نفسها أيضاً.

كانت الفئة الأولى من الكيانات السياسية تنتمي إلى عنصر الأتراك السلاجقة، الذين عرّفتهم المصادر بسلاجقة الشام. وكان هؤلاء ظهروا على المسرح السياسي في أحلك فترات الفوضى السياسية والعسكرية التي حلت بالسلطة المركزية الإسلامية التي تمثلها الخلافة العباسية السنية في بغداد. فبعد أواسط القرن العاشر الميلادي قاد زعيم قبائل الغزّ التركمان أبناء قومه وانطلق بهم من قرغيزيا في تركستان متجهاً نحو الغرب. واستطاع في وقت قصير أن يجتاح المناطق الواسعة التي كانت تقع في نطاق سيطرة الدولتين السامانية والغزنوية ودولة بني بويه، حتى استطاع الملك طغرل بك حفيد سلجوق أن يتوقف عند أبواب مدينة بغداد مقر الخلافة العباسية.

نتيجة هذه الإنجازات العسكرية المدهشة منح الخليفة العباسي زعيم السلاجقة الاعتراف الشرعي، واعترف به حامي حمى الإسلام السنّي، ثم أغدق عليه لقب السلطان تأكيداً لصلاحياته السياسية والإدارية. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت لم ينظر إلى السلاجقة نظرته إلى العناصر القبلية التي أتت من بعدهم، مثل التتار والمغول الذين رأى فيهم غزاة كفاراً. فاعتناق السلاجقة المبكر للإسلام، واحتكاكهم المسبق بالمدنية العربية بصيغتها الإيرانية الفارسية، التي أثّرت فيهم بحكم الاتصال والمجاورة في بلاد ما وراء النهر، كانا قد نفيا عنهم صفة الهمجية التي كانت تميز الشعوب الرعوية التي انطلقت من سهوب آسيا المركزية واقتحمت حدود الحضارة. وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها وزير السلاجقة الألمعي نظام الملك لإرساء الأسس الدستورية لنظام الحكم المدني للدولة السلجوقية، كما تجلى ذلك في الكتاب الذي وضعه بعنوان «سياسِتْ نامِهْ»، فإن التراث الرعوي الذي تربى عليه سلاطين الأسرة السلجوقية وأمراؤها من جهة، بالإضافة إلى الثغرة التنظيمية التي نتجت من الترتيبات المتعلقة بنظام الإقطاع العسكري الذي ساروا عليه، حين جعلوا الإقطاعات العسكرية الممنوحة لقادة العساكر وأمراء الحرب السلاجقة إقطاعات وراثية من جهة أُخرى، كانا مهداً لإحياء النزعة الاستقلالية، وشجعا روح الانفصال عن السلطة المركزية لدى أمراء هذه الأسرة ولدى القادة العسكريين في ولايات الدولة. وكان ضعف الوعي المدني السياسي، بل ربما غيابه تماماً عن أذهان الأمراء، مسؤولاً عن تصورهم للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف، التي نشأت على أراضي إمبراطوريات ثلاث (العباسية والبيزنطية والفاطمية)، أنها مجرد إقطاعات لهم ولأبنائهم وذراريهم يستغلونها وينهبون خيراتها متى شاؤوا وأنّى شاؤوا، ولم يكونوا يدركون البعد السياسي لمفهوم الدولة، لغياب هذا المفهوم كلياً عن تراثهم الحضاري والمدني. ولذلك سرعان ما تجزأت هذه الإمبراطورية إلى



ثلاثة أقسام متخاصمة ومتنافسة بمجرد موت ممثل السلطة المركزية القوي المتمثل بالسلطان ملكشاه. فظهر سلاجقة فارس وعراق العجم في المشرق، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى والأناضول، وسلاجقة الشام على أطراف الجزيرة الفراتية وبلاد الشام. ليس هذا فحسب، بل إن غياب الوعي السياسي المدني أثر في حدوث الانقسامات داخل هذه الكيانات السياسية والإقليمية، فأصبح سلاجقة الشام والجزيرة كيانات سياسية انفصالية مفككة، وتحولوا إلى مجرد أمراء لكيانات صغيرة من قبيل نمط دولة المدينة (city state)، ظهر منها إمارة حلب، وإمارة دمشق، وإمارة أنطاكية، وإمارة القدس، وإمارة الموصل.

وكانت الفئة الثانية من الكيانات السياسية في بلاد الشام تنحصر في بعض الإمارات العربية الصغيرة كإمارة حمص بزعامة خلف بن ملاعب الكلابي، الذي استمر في حكمها حتى سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، حين انتزعها الأمير السلجوقي تُتش بن ألب أرسلان، فخرج ابن ملاعب إلى القاهرة واستطاع أن يكتسب ثقة الفاطميين فعيّنوه والياً على حصن أفامية، ثم أعلن استقلاله عنهم بعد ذلك. أمّا إمارة بني منقذ في حصن شيزر فكان أسسها الأمير علي بن المقلد بن منقذ الكناني، جدّ الأمير الشاعر أسامة بن منقذ، سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م، وبقيت هذه الإمارة صامدة أمام هجمات الصليبيين على الرغم من سقوط الحصون والبلدات الإسلامية المحيطة بها كافة. وعلى الساحل تمردت أسرة بني عمار قضاة طرابلس على حكم الفاطميين واستقلت عنهم، واستطاعت الصمود عدة أعوام بعد الاحتلال الفرنجي لفلسطين والأجزاء الساحلية الشمالية لبلاد الشام.

أمّا كيانات الفئة الثالثة فهي بعض المدن الساحلية، وخصوصاً مدن الساحل الفلسطيني التي ظلت خاضعة للسلطة الفاطمية، كعسقلان وعكا ويافا وقيسارية، ومثل مدن صور وصيدا وبيروت على الساحل اللبناني.[٢]

## الانتصار الفرنجي السهل

على هذه الخلفية من التشرذم السياسي الإسلامي انطلق الهجوم الصليبي الفرنجي من القسطنطينية وتوغل في أراضي دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، الذين لم يصمدوا أمام هذا الهجوم وهزموا في معركتي نيقيا ودوريليوم. وتوجه الفرنجة بعد ذلك جنوباً حتى عبروا الممرات الجبلية التي تفصل آسيا الصغرى عن بلاد الشام (الدروب)، بعد أن أقاموا أول إمارة لهم في مدينة الرُّها (Edessa) في قلب بلاد الأرمن. وكما كان متوقعاً واجه سلاجقة الروم الهجوم الصليبي منفردين، ولم يطمحوا



LAU LIBRARY
BEIRUT

إلى تلقي العون والدعم من إخوانهم أمراء سلاجقة الشام أو سلاجقة المشرق بسبب ما كان يسود العلاقات بينهم من توتر يرقى إلى مستوى العداء. من ناحية أُخرى فقد كان تصور السلاجقة لهذا الصراع أنه حلقة في سلسلة الصراع التاريخي المتواصل بين المسلمين والبيزنطيين الذي كان يتوقف عند نصر، أو عند هزيمة محلية لا تؤثر كثيراً في الميزان العسكري الاستراتيجي بين الطرفين.

بعد أن وضع الصليبيون أقدامهم على ثرى بلاد الشام قصدوا مدينة أنطاكية، أكبر مدن الشام وأهمها في ذلك العصر. وكان السلاجقة انتزعوها من أيدي البيزنطيين سنة ١٠٨٥، ثم أصبحت جزءاً من إمارة حلب التي يقف على رأسها الأمير السلجوقي رضوان بن تتش بن ألب أرسلان. وعندما حوصرت أنطاكية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٠٩٧، كان الأمير ياغي سيان، أحد مماليك رضوان، الوالي عليها. فلمّا رأى أن لا قبل له ولا لجيشه بالتصدي للحصار الصليبي أرسل يطلب العون من أمراء السلاجقة في الشام، رضوان أمير حلب، ودقاق أخيه أمير دمشق، بل استنجد بالقوة السلجوقية المركزية التي كان يمثلها في هذه الأثناء الأمير كربوغا، أمير الموصل، الذي كان يعتبر أقرب الأمراء السلاجقة إلى السلطان بركياروق وموضع ثقته.

كان نداء الاستغاثة الذي أطلقه ياغي سيان الامتحان الأول الذي تعرضت له العلاقات السلجوقية السلجوقية على أرض الشام، فعكست ردات الفعل التي صدرت عن الأمراء طبيعة الروابط الضعيفة والثقة المهزوزة التي تميز علاقاتهم بعضهم ببعض.

تميز رد الأمير رضوان صاحب إمارة حلب بالتردد؛ فأبطأ في تقديم المساعدة لأنطاكية المحاصرة. فقبل عام فقط من هذا الحصار كان ياغي سيان غدر بسيده رضوان بن تتش حين تحالف مع دقاق أمير دمشق وانضم إليه في محاولته لمهاجمة حلب وانتزاعها من أخيه رضوان. مضت أربعة أشهر على الحصار قبل أن يتحرك رضوان لنجدة المدينة المحاصرة. ولم يحدث ذلك إلاّ بعد أن فشلت القوة العسكرية، التي أرسلها دقاق أمير دمشق لنجدة أنطاكية، في تحقيق أهدافها. وعندها توجه ياغي سيان مجدداً إلى سيده رضوان وجدد له الولاء ويمين التبعية. وكان جيش دمشق هزم على مقربة من حصن شيزر وهو في طريقه إلى أنطاكية، فانسحب مسرعاً إلى جهة حماة. ولم يكن مصير الجيش الذي أرسله رضوان أحسن حالاً من المصير الذي آل إليه جيش دمشق، فوقع في كمين نصبه له الفرنجة وأنزلوا به هزيمة منكرة.

بعد مضي أكثر من ستة أشهر على الحصار، تحركت القوة السلجوقية المركزية التي قادها أمير الموصل كربوغا، وكانت قوة ضخمة لا يستطيع الفرنجة الصمود أمامها لو تهيأت لها ظروف الاشتباك معهم. لكن سوء التقدير وخطأ الحسابات عند كربوغا جعلا من هذا التدخل غير ذي جدوى. فبدلاً من أن يخرج هذا الجيش مباشرة نحو



موقع المعركة، قرر كربوغا أن يعرّج على مدينة الرها التي سبق أن احتلها الفرنجة وجعلوها إمارة فرنجية، وأمضى في حصارها ثلاثة أسابيع عقيمة لم تسفر عن شيء، توجه بعدها نحو أنطاكية ليجد أن كل شيء انتهى، إذ استطاع الفرنجة اقتحام خط الدفاع ودخول المدينة بعد أن تعاون معهم أحد القادة الأرمن، الذي كان مكلفاً حماية أحد جوانب السور، قبل أن يصل جيش الموصل وحلفاؤه بيومين.

بعد سقوط أنطاكية وجد الصليبيون أنفسهم على حدود منطقة تمتد على طول ساحل البحر غرباً ومجرى نهر العاصي شرقاً. وكانت هذه المنطقة تختلف عن منطقة أنطاكية، بل عن المناطق الوسطى والشمالية من بلاد الشام. فهي منطقة مختلفة ديموغرافياً، إذ كان سكانها في معظمهم من العرب أو المسلمين، في حين كانت أغلبية السكان في أنطاكية وناحيتها تنتمي إلى عناصر غير عربية وغير إسلامية، إمّا من أصول يونانية وإمّا أرمنية. وكان المناخ السياسي في هذه المنطقة يختلف عن مناطق بلاد الشام الأُخرى، فالقيادة السياسية في هذا الشريط الساحلي كانت عربية الجذور وإسلامية المنحى. وفي شيزر وحمص وحماة استطاع بعض الأسر العربية المحلية الصمود أمام ضغط المد السلجوقي الذي اجتاح بلاد الشام في الربع الأخير من القرن الحادي عشر، بينما استطاعت بعض الأسر التي تنتمي إلى الأرستقراطية الإسلامية المثقفة أن تنفض عن نفسها التبعية السياسية للفاطميين الشيعة، وأن تنتزع السيادة في كل من طرابلس وصور من أيديهم وتقيم ما يشبه الدويلات المستقلة، كما فعلت أسرة القضاة من بني عمار في طرابلس، وأسرة القاضي ابن أبي عقيل في ميناء صور. وعلى الرغم من أن هذه الإمارات العربية كانت قادرة على الاحتفاظ باستقلالها السياسي مستفيدة من أجواء التنافس السائدة بين السلاجقة والفاطميين، قطبي المعادلة السياسية في الشام قبل ظهور الصليبيين، فإنها لم تكن قادرة على التصدي عسكرياً لحملة بحجم الحملة الصليبية الأولى. ومن أجل أن يتقي زعماء هذه الإمارات شر الاجتياح الفرنجي عمدوا إلى مداراة قادة الحملة الصليبية، بل إلى كسب رضاهم بحثاً عن السلامة. فعرضوا تعاونهم على الصليبيين، وقدموا لهم المؤن، وزودوهم بالأدلاء، كما فعل أمراء شيزر، بنو منقذ الكنانيون، وبنو عمار أمراء طرابلس، وبالتالي أصبحت هذه الصيغة من التعامل مع الفرنجة هي النموذج الذي احتذاه الأمراء الصغار وحكام المدن الساحلية في لبنان وفلسطين، والتي كانت تقع على مسار الفرنجة نحو مدينة القدس. وكانت هذه الصيغة، على محدوديتها من وجهة النظر الفرنجية، كافية نظراً إلى رغبة الفرنجة في سرعة الوصول إلى القدس، وإلى عدم رغبتهم في التلكؤ أمام بعض المدن والموانئ من أجل احتلالها.[٣]

كان لنجاح الفرنجة في السيطرة على مدينة أنطاكية وانتزاعها من أيدي السلاجقة



LAU LIBRARY BEIRUT

بعد استراتيجي انعكست آثاره الإيجابية على سير الحرب ضد المسلمين، إذ كانت السيطرة عليها أمنت سيطرتهم على الشريط الساحلي الممتد ما بين ميناء طرابلس والسويدية في الشمال، وهو ما يعني السيطرة على بعض الموانئ في شمال البحر الأبيض المتوسط، وضمان رسو سفن الإمداد والنجدات القادمة من قواعدهم في أوروبا، وتفريغ حمولتها على شواطئ بلاد الشام الشمالية.

إن ضمان مثل هذا الممر البحري جعل الفرنجة بغنى عن استخدام الموانئ البيزنطية على سواحل الأناضول، ولم يعودوا مرتبطين بموافقة أو رضى الإمبراطور البيزنطي عن مرور قواتهم وعساكرهم وأحمالهم عبر أراضيه في آسيا الصغرى. وعلى الصعيد العسكري، نجح الفرنجة في تحجيم القوة العسكرية السلجوقية، التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين القوة الأكثر فاعلية على أرض الشام. وكان لفشل السلاجقة في حماية مدينة أنطاكية أثر في انهيار الآمال الكبار التي كان المسلمون علقوها عليهم عندما رأوا فيهم حامي حمى الإسلام. وبذلك فإن هزيمة السلاجقة كانت قصمت ظهر المقاومة الإسلامية، التي باتت عاجزة عن حماية البلاد الإسلامية في الشام التي تحول أمر سقوطها في يد الفرنجة إلى مسألة وقت ليس إلاّ.

## الفاطميون والفرنجة

أشار عدد من مؤرخي الحروب الصليبية اللاتين إلى تبادل السفارات بين الفاطميين والفرنجة منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام. وذكر بعضهم بشيء من التفصيل أخبار السفارة الفاطمية التي وصلت إلى معسكر الفرنجة في أثناء حصارهم أنطاكية سنة ١٠٩٧. فأشار المؤرخ وليام الصوري (رئيس أساقفة صور)، مؤلف كتاب «الأعمال المنجزة فيما وراء البحار»، إلى جذور الصراع والعداوة بين الفاطميين والسلاجقة، وإلى حرص كل طرف على إضعاف الطرف الآخر. لذلك تلقى الفاطميون بالرضى والسرور أخبار الهزيمة التي لحقت بسلاجقة الروم في معركة نيقيا في آسيا الصغرى، كما تلقوا بالترحيب أخبار حصار الفرنجة لمدينة أنطاكية، وعبروا عن حرصهم على ضرورة استمرار هذا الحصار، وألاّ يتسرب اليأس إلى نفوس جنود الفرنجة. ونقل الوفد تطمينات الخلافة الفاطمية إلى القادة الصليبيين، وبلّغهم نيتها تقديم المساعدات العسكرية والمادية لتعزيز المجهود الحربي الفرنجي. ثم عرض الوفد على الفرنجة عقد معاهدة صداقة بين الطرفين.[٤]

من ناحية أُخرى، أشار ابن الأثير إلى غلو الفاطميين في عداوتهم للسلاجقة الأتراك إلى درجة استعدادهم للاستعانة بالفرنجة المسيحيين ضدهم. فيروي في هذا



الصدد أن الخليفة الفاطمي المستعلي، أو أباه المستنصر، حمله عداؤه للسلاجقة إلى مراسلة الفرنجة في وقت مبكر، ودعاهم إلى الاستيلاء على الشام، كي يكونوا حاجزاً بين الفاطميين والسلاجقة.[٥]

ومهما يكن من أمر فإن الفاطميين لم ينظروا إلى الغزو الفرنجي في بعده الاستراتيجي، ورأوا في الفرنجة أنهم مثل غيرهم من اللاعبين الإقليميين على الساحة السياسية الذين ألفوا الصراع معهم، شأنهم شأن السلاجقة أو البيزنطيين. ولهذا السبب لم يختلف أسلوب التعامل معهم عن أسلوب المناورة الدبلوماسية التقليدية التي كانوا يمارسونها مع العناصر السياسية الفاعلة في المنطقة. فكما توصلوا إلى نوع من التفاهم والمهادنة مع البيزنطيين بداية ظهور التهديد السلجوقي، فقد اعتمدوا الأسلوب نفسه عندما عرضوا معاهدة الصداقة مع الفرنجة.

كانت فكرة التفاهم مع الفرنجة، كما طرحها الوفد الفاطمي ومثلما كررها الأفضل بن بدر الجمالي أمام الوفد الذي حمل رسالة الفرنجة الجوابية إلى القاهرة، هي أن يقتسم الطرفان النفوذ على بلاد الشام، فيأخذ الفرنجة النصف الشمالي ويبقى النصف الجنوبي للفاطميين، وأن يتاح لوفود الحجيج المسيحيين حرية الوصول عبر الدروب الآمنة لزيارة الكنيسة المقدسة في بيت المقدس.

ويبدو أن الفاطميين، شأنهم في ذلك شأن زعماء العالم الإسلامي من أهل السنة، لم يدركوا تماماً نيات الحركة الصليبية ولا أهدافها الاستراتيجية. ولهذا السبب بدت عروضهم التي قدموها للفرنجة أقل من الحد الأدنى للطموحات الفرنجية التي لم تكن تقنع بأقل من تحرير القبر المقدس من يد المسلمين.

وتعزيزاً للموقف التفاوضي الذي بادر إليه الفاطميون في سفارتهم الأولى عند أنطاكية، وعقب عدم ظفرهم بموافقة نهائية من الفرنجة على عروضهم الأولية، ومحاولة منهم للاستفادة من انشغال السلاجقة بالتصدي للفرنجة أمام أنطاكية، فقد قاموا بتطهير الجيب السلجوقي في فلسطين منذ أن استولى أرتق قائد تتش بن ألب أرسلان على مدينة القدس. فأرسل الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه جيشاً طرد ابني أرتق، سقمان وإيلغازي، من القدس وأجلاهما إلى بادية الشام، ثم أُعيدت السيطرة الفاطمية على كامل المناطق الفلسطينية. وفي الوقت نفسه تمت استعادة السيطرة الفاطمية على ميناء صور الذي كان القاضي ابن أبي عقيل قد استقل به عن القاهرة.[٦]



LAU LIBRARY
BEIRUT

## تهاون الفاطميين وسقوط فلسطين

عندما كان الصليبيون يحاصرون عرقة في شباط/فبراير ١٠٩٩، عادت إليهم البعثة الدبلوماسية من القاهرة تحمل اقتراح الفاطميين القاضي بالسماح للحجاج الفرنجة بزيارة القدس، إذا عدل الفرنجة عن عزمهم على التوغل في أرض الفاطميين التي كانت حدودها الشمالية تبدأ عند حدود إمارة بني عمار في طرابلس. وكما كان متوقعاً رفض الصليبيون العرض الفاطمي على الفور، وانطلقوا في طريقهم نحو بيت المقدس، واتخذوا الطريق الساحلية، وكانوا كلما مروا بمدينة من مدن الساحل يتلقون الهدايا والتسهيلات من أمرائها وحكامها. هكذا كانت ردة فعل حكام طرابلس وبيروت وصور وعكا، وكانت الطريق التي سلكها الصليبيون نحو القدس خالية من أي قوة عسكرية فاطمية تعترض سبيلهم. ويبدو أن الفاطميين لم يتخذوا الحيطة للتصدي لهذا الزحف، بل ربما أنهم لم يكونوا توقعوه. أمّا الحاميات العسكرية التي كانت ترابط في المدن الساحلية اللبنانية والفلسطينية - بيروت وصيدا وصور وعكا وعثليث وقيسارية وأرسوف ويافا - فكانت حاميات صغيرة لا تستطيع التصدي لمثل هذا الزحف. ولمّا وصل الزحف إلى أرسوف انحرف نحو الداخل وتوجه إلى الرملة، فوجد أن أهلها غادروها عندما علموا باقتراب الصليبيين. أقام الصليبيون معسكرهم في الرملة، ثم توجهوا نحو مدينة القدس. ولمّا وصلوا إلى عمواس جاءهم وفد من أهل بيت لحم المسيحيين ودعاهم إلى دخول المدينة. وفي اليوم التالي، وصل الجيش الفرنجي إلى مدينة القدس وحاصرها.[٧]

كانت الحامية العسكرية الفاطمية التي تدافع عن القدس لا تزيد على ١٠٠٠ رجل. واستمر الفرنجة في حصارها أربعين يوماً، فانهارت مقاومة الحامية، واقتحم الغزاة المدينة وفتكوا بأهلها، وبالغوا في القتل حتى غطت أكوام الجثث شوارع المدينة وأزقتها، حيث ارتكبت بحق أهلها من المسلمين مجزرة رهيبة قدر ضحاياها بـ ٧٠,٠٠٠ نسمة. أمّا أفراد الحامية الفاطمية الذين التجأوا إلى قلعة المدينة في برج داود فقد مُنحوا الأمان، وخرجوا نحو مدينة عسقلان في طريقهم إلى مصر.

بعد سقوط القدس أُعلن قيام مملكة اللاتين، وتم تتويج أول ملوكها، غودفري، الذي سرعان ما عزز وجود هذه المملكة بانتصار ساحق على جيش فاطمي قرب عسقلان. ثم أخذ الفرنجة في بسط نفوذهم على مناطق فلسطين الداخلية، نابلس وبيسان وطبرية والجليل، كما أخذوا مناطق أُخرى، منها بيت جبرين وبيت لحم والخليل. وأخذت المدن الساحلية تتساقط تباعاً، فسقطت يافا وأرسوف وقيسارية، وكانت عكا آخر المدن التي سقطت في يدهم سنة ١١٠٤. ثم شُرع في توسيع



المملكة جنوباً وشرقاً. فأنشئت قلعة الشوبك في وادي عربة للسيطرة على طريق القوافل بين الشام وكل من الحجاز ومصر، ثم بنيت قلعة الكرك التي تتحكم في هذه الطريق. وعندما مات الملك بلدوين سنة ١١١٨، الذي كان توّج بعد وفاة أخيه غودفري، أصبحت مملكة اللاتين في القدس تمتد من العقبة في الجنوب حتى بيروت في الشمال، ما عدا مدينة صور التي تأخر احتلالها حتى سنة ١١٢٤، ومدينة عسقلان التي ظلت صامدة في يد المسلمين حتى سنة ١١٥٣.[٨]

## الهيمنة الفرنجية وتخاذل المسلمين

بعد فشل أمراء سلاجقة الشام في إنقاذ مدينة أنطاكية من براثن الغزاة الفرنجة، وما تلا ذلك من سقوط مدينة القدس، خارت عزائم المسلمين عن التصدي للغزو، وتعطلت لديهم إرادة القتال والمقاومة. وفي ظل التمزق السياسي الذي كانت تعاني جرّاءه القوى الإسلامية الحاكمة آنذاك، سعى كل أمير، أو والي مدينة، أو حاكم ناحية، للحصول على رضا ملك الفرنجة أملاً بالمحافظة على البقاء، فعرض دفع الأتاوى المالية وتقديم الولاء ثمناً لمحاولات التعايش مع الصليبيين. استغل الصليبيون هذا الوضع وأخذوا في توسيع حدود مملكتهم التي امتدت من العريش جنوباً حتى ماردين في الشمال، وكانت غارات سراياهم تصل إلى نواحي آمد وديار بكر وتتوغل حتى نصيبين ورأس العين في منطقة الجزيرة. وصارت الإمارات الإسلامية المجاورة لحدود مملكتهم، كالرقة وحرّان، تعيش في رعب وفزع. أمّا إمارة دمشق فسدت أمامها السبل، وأغلقت منافذها إلى مدن الساحل، وعطلت طرقها البرية إلى مصر والحجاز. واستطال عليها الصليبيون حتى أجبروها على دفع الإتاوة لهم، واضطرت إمارة حلب إلى مناصفتهم دخلها من الضرائب والخراج، وصالحتهم شيزر وصور وحماة وعسقلان على مبالغ سنوية مقطوعة. ووصل الأمر بهذه الإمارات أحياناً إلى عقد تحالفات مع الفرنجة ضد بعضها البعض.[٩]

ويبدو أن حكام هذه الإمارات استمرأوا الذل والاستكانة، ولم يعد مصطلح المقاومة قائماً في مفرداتهم السياسية. وقد تجلى ذلك فيما كانوا يبدونه من مواقف لامبالية إزاء بعض المحاولات الإسلامية المبكرة التي كان يبادر إليها بعض القوى السياسية على أرض العراق والمشرق من أجل التصدي للغزو وحماية البلاد. وقد عكست أقوال أحد المؤرخين المعاصرين هذا الوضع عندما وصف خيبة الأمل التي أصابت أمير دمشق ظهير الدين أتابك مما رآه فقال: «فلم يُرَ منهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد.»[١٠]



LAU LIBRARY
BEIRUT

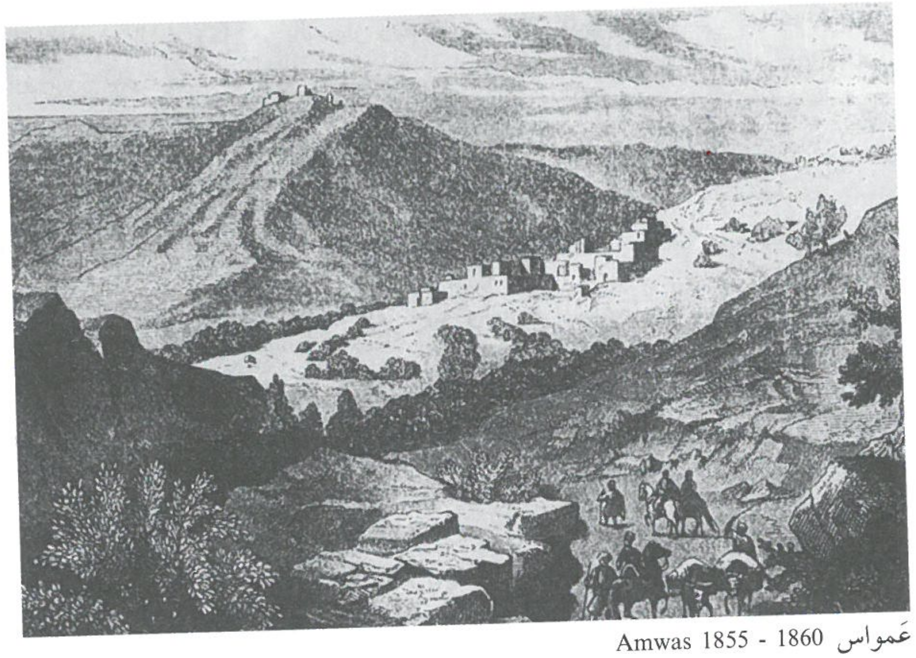

عَمواس Amwas 1855 - 1860

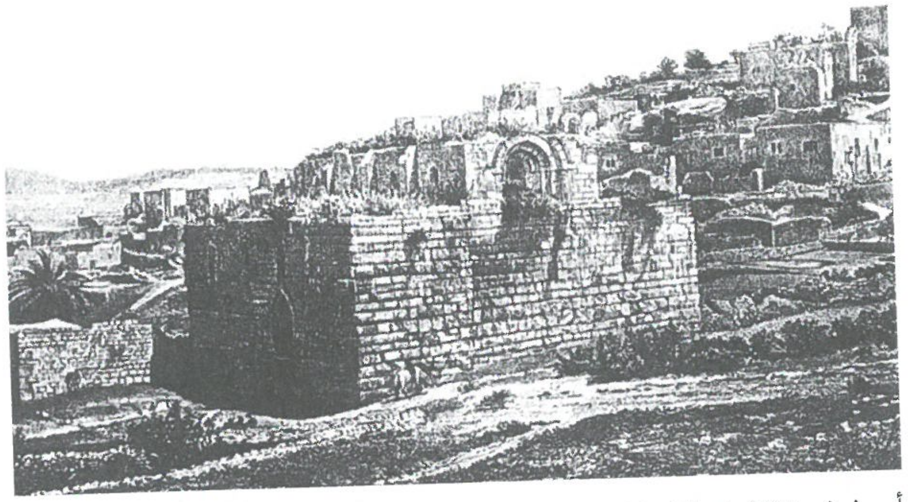

أبو غوش Abu-Ghosh 1883



لم يقتصر التمزق السياسي على فئات الأسر الحاكمة في بلاد الشام وفلسطين فحسب، بل تعداها ليشمل أيضاً فئات أُخرى داخل مجتمع الأمة الإسلامية بغض النظر عن انتماءاتها الدينية أو الطائفية أو المذهبية. فشمل هذا التمزق طوائف من المسلمين والمسيحيين على حد سواء. وقامت طائفة الموارنة المسيحيين الذين كانوا يقيمون بالأجزاء الشمالية من جبل لبنان بتقديم العون إلى الغزاة من الفرنجة، فأرشدوا كتائبهم وسراياهم العسكرية إلى الممرات الجبلية الآمنة، وزودوهم بالأدلاء لتجنيبهم الوقوع في الكمائن العسكرية التي قد يقعون فيها في أثناء مسيرهم نحو مدينة القدس.(١١) وفعل بعض مسيحيي فلسطين ما فعله الموارنة حين قادوا إحدى سرايا الفرنجة التي كانت ترابط في عمواس قبيل الزحف إلى أسوار القدس وأدخلوها مدينة بيت لحم وسلموها إياها.(١٢) وقد يستطيع المتتبع لتاريخ المنطقة أن يجد في سياسة الفاطميين التعسفية تجاه رعاياها من أهل الذمة في فلسطين وبلاد الشام تفسيراً لهذا التعاون بين المسيحيين وإخوتهم من الفرنجة الغزاة. وإذا ما التمس المرء عذراً لهذه الفئة المسيحية أو تلك، فأي عذر يجده لفئة أُخرى أو طائفة أُخرى من المسلمين تدير ظهرها لأبناء دينها وأبناء أمتها الإسلامية، وتضع نفسها بخدمة الغازي الأجنبي المحتل، كما فعل بعض فئات السكان من العرب، كأهالي جبل عاملة في جبال الجليل، أو أهل الجنوب اللبناني حين انضموا إلى جيش الفرنجة يقاتلون في صفوفهم، ويسفكون دماء العرب والمسلمين من جيرانهم وأهل بلدانيتهم، أو كما فعل بعض الفرسان من التركمان المسلمين الذين أجرّوا سيوفهم للصليبيين، وصاروا يحاربون معهم، ويقدمون لهم العون على اقتحام أسوار المدن الفلسطينية.(١٣)

وفي هذا السياق، كان البدو من أبناء القبائل العربية المقيمة على أرض فلسطين وعلى تخومها الجنوبية ما بين غزة ووادي عربة، وتلك المقيمة شرقي البحر الميت، وبمنطقتي الغور والبلقاء، أو تلك المقيمة بمنطقة جبل عوف شرقي نهر الأردن، مثل بني ثعلبة وبني جرم وبني عوف وبني عقبة وبني زهير، من أبرز العناصر العربية الإسلامية التي كانت تتعاون مع الفرنجة من دون أي تحفظ. فقد استغلت مملكة القدس اللاتينية حاجة البدو إلى التنقل بحثاً عن المراعي ومصادر الماء وطوعتهم لخدمة أهدافها، في مقابل التسهيلات التي منحتهم إياها. وتمت الاستعانة بهم أدلاء في الغارات في المناطق الوعرة وعلى الاهتداء إلى المخابئ الجبلية، أو على نقل أخبار تحركات المسلمين العسكرية في المنطقة، أو على التبليغ عن قوافل التجار والمسافرين، بل كثيراً ما كانوا ينضمون إلى الفرنجة في غاراتهم ويغيرون معهم على أهداف إسلامية عربية.(١٤) وقد بلغ من إيذاء البدو وعرقلتهم خطط صلاح الدين لتحرير البلاد ما جعله يقوم بحملة كبيرة لإجلائهم عن هذه المناطق الحساسة ونقلهم



LAU LIBRARY BEIRUT

إلى مواقع بعيدة لتقليل خطرهم.[١٥]

شهدت ساحة الصراع بين المسلمين والفرنجة في بلاد الشام ظهور عنصر إسلامي منشق على خلفية عقائدية هو جماعة الإسماعيلية التي كانت تشكل ثاني أكبر الجماعات الشيعية بعد الاثنا عشرية. وقد درجت المصادر التاريخية، التي غطت تاريخ الفترة التي يتناولها هذا الكتاب، على تسمية هذه الجماعة بأسماء متعددة منها: الباطنية، والحشيشية، وأصحاب الدعوة، وأحياناً أصحاب الدعوة الهادية، بينما انتشر اسم الفداوية (الفدائية) على ألسنة العامة. تحولت هذه الجماعة منذ دخولها مسرح الأحداث في بلاد الشام بعد سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م إلى شوكة في خاصرة القوى الإسلامية المناهضة للغزاة الصليبيين، وكان أفرادها يظهرون ميلاً متزايداً إلى مناصرة الفرنجة ضد المسلمين. وقاموا في بعض الأحيان بإجراءات عملية أثّرت في مجرى الأحداث وأخلت بتوازن القوى لمصلحة الفرنجة، كتسليم زعيمهم حصن بانياس للفرنجة، أو خطتهم لدعم محاولة الفرنجة الاستيلاء على دمشق في مقابل تسليمهم مدينة صور، فضلاً عن الاغتيالات السياسية التي راح ضحيتها رموز عملية الجهاد الإسلامي، كالقائد الموصلي مودود، والمحاولة الفاشلة لاغتيال صلاح الدين بعد ذلك. وكانت صلاتهم بالفرنجة لا تنقطع، واستمرت حتى بعد أن انهارت الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام، ولم يُزل خطرهم إلاّ بعد قيام السلطان الظاهر بيبرس الذي استولى على حصونهم وقضى نهائياً على تهديدهم السياسي والعسكري.[١٦]

## الصحوة الإسلامية وفريضة الجهاد

سقطت مدينة القدس في يد الصليبيين في أواسط تموز/يوليو ١٠٩٩ من دون أن يتحرك أحد من أمراء بلاد الشام لنجدتها، مثلما فعلوا عندما كانت مدينة أنطاكية محاصرة. وارتكب الغزاة المحتلون مجزرة فيها من دون أن تثير هذه الجريمة حمية الأمراء أو تحرك نخوتهم. وكان أقصى ما فعله أمير دمشق آنذاك، أتابك طغتكين، أن خرج على رأس جيشه ودخل مدينة طبرية لا ليقوي حاميتها أو ليعزز دفاعاتها، وإنما ليأخذ نسخة المصحف العثماني التي كان أرسلها الخليفة عثمان بن عفان إلى جامعها، كما أرسل نسخاً غيرها إلى جوامع الأمصار. فحمل طغتكين هذه النسخة الشريفة وعاد إلى دمشق عودة المظفرين.[١٧] أمّا الوزير الفاطمي أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه، ابن بدر الجمالي، الذي كانت القدس وكل فلسطين قد آلت إلى طاعته وصارت جزءاً من دولته بعد أن استعادها من الأسرة التركمانية الأرتقية قبل عام واحد من سقوطها، فقد خرج بجيش كبير قاصداً استرداد مدينة القدس، لكنه جوبه بجيش للصليبيين عند



LAU LIBRARY BEIRUT

عسقلان، ونزلت به وبجيشه هزيمة منكرة اضطر بسببها إلى أن يركب البحر للوصول إلى مصر والنجاة بنفسه، وترك القدس وشأنها نهباً للغزاة.[١٨] ومع أن الغارات الفاطمية على فلسطين توالت خلال الأعوام الخمسة عشر التي تلت سقوط القدس، إلاّ إنها كانت غارات انتقامية ثأرية ومحدودة، ولم تكشف عن خطط جدية لتخليص القدس وفلسطين من احتلال الفرنجة. وكان أقصى ما تحققه في حال نجاحها هو التشويش على طريق الحجاج الأوروبيين بين يافا ومدينة القدس. وقد أثبتت إنجازات الفرنجة العسكرية على أرض فلسطين، والتي كان من نتائجها توسيع رقعة احتلالهم وترسيخ أقدامهم، هشاشة هذه الغارات وعدم جدواها.[١٩]

إزاء العجز الذي أبدته كل من القاهرة ودمشق في الدفاع عن فلسطين وحماية أهلها، وإزاء حجم الكارثة التي نزلت بأهل بيت المقدس خاصة، هام كثيرون من الأهالي ممن ظلوا في قيد الحياة على وجوههم بحثاً عن مكان يأوون إليه هم وعيالهم فوصلوا إلى دمشق. ولمّا وقف علماء المدينة ووجوه أهلها على حجم المأساة التي حلت بإخوانهم أهل بيت المقدس، وبعد أن أدركوا ضعف نية الجهاد عند أميرها وعند غيره من أمراء الشام، خرج وفد منهم كان يترأسه قاضي دمشق أبو سعد الهروي إلى الخليفة العباسي في بغداد يستصرخ ويستنصر. فتكلم أعضاؤه في الدواوين والجوامع بكلام أبكى العيون وأوجع القلوب، كما يشير إلى ذلك أبو الفداء. فندب الخليفة المستظهر بالله نخبة من فقهاء بغداد، مثل الدامغاني، وأبي بكر الشاشي، وأبي القاسم الزنجاني وآخرين، ليتوجهوا إلى السلطان السلجوقي في حلوان كي يحثوه على الجهاد. وقبل أن يصلوا إلى حلوان سمعوا بمقتل الوزير البلاساني، وبما أعقب ذلك من فتنة بين السلطان بركياروق وأخيه محمد، وانشغال الأخوين بهذه الفتنة، فعادوا أدراجهم إلى بغداد من دون أن يحققوا الهدف من هذه الوفادة.[٢٠]

مرة أُخرى أثبت حكام المسلمين السلاجقة أن المنافسة بشأن السلطة تقع في أعلى مراتب الأولوية عندهم، وأن اهتمامهم بإخضاع منافسيهم من حكام المسلمين يفوق اهتمامهم بالدفاع عن حمى الإسلام والنكاية بأعدائه.

على أية حال، لم يحدث قيام مملكة القدس اللاتينية أي تغيير في التوجه الاستراتيجي لدى حكام المسلمين في مصر وبلاد الشام. فظلت انقساماتهم السياسية كما كانت عليه قبل الغزو الفرنجي. واستمرت القطيعة السياسية قائمة بين إمارات الشام السلجوقية والفاطميين في مصر على ما كانت عليه. ولم يبادر أي من أمراء دمشق أو حلب إلى نوع من التنسيق العسكري فيما بينهم، أو مع مصر الفاطمية، بينما ظل سلاجقة العراق والمشرق بمعزل عما يجري على أرض الشام والجزيرة وكأن شيئاً لم يحدث. وخلال العقد الأول من القرن الثاني عشر سجل الفرنجة إنجازات عسكرية

وسياسية ضخمة، وتشكلت إلى جانب مملكة القدس ثلاث إمارات فرنجية هي: طرابلس وأنطاكية والرها. وأتم الفرنجة خلال هذه الأعوام احتلال المدن الساحلية على شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية، ولم يبق للمسلمين سوى مدينتي صور وعسقلان. وعلى الرغم من أن الكيانات السياسية الفرنجية ظلت تعمل كل واحدة منها بمفردها فإن الضغوط العسكرية التي مارستها ضد الكيانات السياسية الإسلامية كانت تؤتي ثمارها، ولم يشعر حكام هذه الإمارات بأنهم بحاجة إلى جهد موحد ما دام ميزان القوى في مصلحتهم.(٢١)

كان هَمّ دمشق في هذه الفترة منصباً على تأمين الطريق البرية بينها وبين كل من مصر والحجاز. وكانت السيطرة على عقدة الطرق الواقعة إلى الشرق من بحيرة طبرية ومنطقة البلقاء هي الضمان لأمن هذه الطريق. حاول أتابك طغتكين، الذي آلت إليه إمرة دمشق بعد موت سيده دقاق بن تتش سنة ١١٠٤، أن يسيطر على هذه الطريق، فأرسل أحد قادته إلى منطقة الشراة لحفظها، لكن الفرنجة تربصوا بهذه القوة العسكرية وأنزلوا بها الهزيمة. ورأى طغتكين أنه لا يستطيع حسم الصراع مع الفرنجة لمصلحته، فاتبع معهم الأسلوب البراغماتي (الذرائعي)؛ أي أسلوب المهادنة وتقاسم الغلال عند الحاجة، وأسلوب القوة عندما تلوح الفرصة. لكن الاستمرار في هذا الأسلوب عاد بالفائدة على الفرنجة الذين كانوا يحرزون كل يوم مكسباً جديداً، بينما كانت أحوال إمارة دمشق كل يوم في تراجع ونكوص. أخيراً، أدرك طغتكين ضرورة البحث عن أسلوب جديد للتعامل معهم.

## محور دمشق ـ الموصل

شهدت سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨ - ١١٠٩م مزيداً من انتكاسات المسلمين في مواجهتهم مع الفرنجة. فقد سقط في يد الفرنجة آخر الموانئ السورية اللبنانية التي صمدت إلى هذا الحين، ولم يبق مع المسلمين أي من الموانئ الواقعة إلى الشمال من بيروت، إذ سقطت عرقة وجبيل وطرسوس وبانياس وطرابلس. كان سقوط طرابلس هو الأكثر إيلاماً بسبب ما رافقه من قتل ونهب وأسر، إذ أُسر رجال المدينة، وسبيت نساؤها وأطفالها، وصودرت أموال الناس وأملاكهم ومخزونهم، ونهبت خزائن الكتب ومحتويات المكتبة العامة التي عرفت باسم «دار العلم». ولم ينج من السباء إلاّ أمير المدينة فخر الملك ابن عمار وبعض قادته بعد أن كانوا منحوا الأمان، فتوجه بمن معه من الرجال إلى دمشق لتكون له ملجأ. ثم ازداد ضغط الفرنجة على المسلمين في هذه النواحي، ففرضوا الإتاوة على شيزر، وأخذوا ثلث خراج منطقة



البقاع، وبسطوا سيطرتهم على عدد من الحصون، مثل: رفينة، والمنيطرة، وعكار. ولم يكن في استطاعة حاكم دمشق أن يقدم العون إلى إخوانه المسلمين في هذه النواحي، واضطر مكرهاً إلى قبول عروض بلدوين، الملك اللاتيني، بالهدنة التي قضت بأن يأخذ الفرنجة ثلث خراج منطقة السواد (هضبة الجولان) وجبل عوف (أرض الغور الشمالي).(٢٢)

أحدثت الانتصارات التي أحرزها الفرنجة على أرض بلاد الشام في هذا العام، كما أحدث العجز الإسلامي عن إيقاف مد التوسع الفرنجي، تحولاً جوهرياً في الذهنية السياسية لدى حكام الإمارات الإسلامية الشامية. وبالتحديد في ذهنية حاكم دمشق ظهير الدين طغتكين الذي أدرك عقم سياسة المناورة البراغماتية التي انتهجها في تصديه للفرنجة منذ سقوط مدينة القدس، وما أسفرت عنه هذه السياسة خلال الأعوام العشرة الماضية من هزائم عسكرية متلاحقة. فبعد سقوط طرابلس وغيرها من موانئ بلاد الشام الشمالية، لم يبق من منفذ لإمارة دمشق سوى مرفأ صور، الذي أصبح ينتظر دوره بحسب مخطط التوسع الفرنجي، وخصوصاً أن دمشق فشلت في تأمين الطريق البرية الموصلة بينها وبين كل من مصر والحجاز.

أخذ الأتابك طغتكين يبعث برسائل الاستغاثة إلى السلطان محمد بن ملكشاه تباعاً. وكان السلطان محمد تولى السلطنة بعد موت أخيه السلطان بركياروق سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، لكن انشغاله بضبط أمور نوابه في الإمارات الجزرية حال دون الاستجابة للنداءات التي أرسلها حاكم دمشق. إلاّ إن حرج الوضع العسكري وضغط الأحداث المتوالية على الجبهة الشامية حملا طغتكين أتابك دمشق على المسير بنفسه إلى بغداد ليلتقي السلطان محمد بن ملكشاه، وليمثل في حضرة الخليفة العباسي المستظهر بالله بعد أن طال انتظاره لجواب السلطان عن تلك الرسائل. وقرر أن يصطحب معه في هذه الزيارة الأمير فخر الملك ابن عمار الذي نكبت إمارته، إمارة طرابلس، بالاحتلال الفرنجي. وكان الغرض الأساسي لهذه الزيارة إيقاف الخليفة والسلطان على حجم الكارثة التي حلت بأهل الشام، وإطلاع الزعيمين على مطامح الفرنجة ومخططاتهم التوسعية في أرض العراق والجزيرة. كان تأخر الرد السلطاني على رسائل الاستنجاد والاستغاثة التي بعث بها طغتكين نابعاً، كما أشرنا آنفاً، من انشغال سياسي إداري بأمور داخلية طارئة في المملكة لا تحتمل التأجيل، ولم يكن نابعاً من إهمال أو استهانة بالأمر قط. يذكر ابن القلانسي أنه بمجرد عودة السلطان محمد بن ملكشاه إلى بغداد بعد أن فرغ من مشاغله، أرسل إلى أمراء الولايات في جهات مملكته كتباً يبلّغهم فيها قراره بالتفرغ للجهاد، كي يعد الأمراء أنفسهم لذلك ويأخذوا حيطتهم للأمر. وأرسل في الوقت نفسه كتاباً إلى ظهير الدين طغتكين يبلّغه



LAU LIBRARY
BEIRUT

ضرورة البقاء في دمشق كي يكون في استقبال النجدات العسكرية التي ستصل من مختلف الجهات لتنضم إلى جيشه وتباشر مهماتها. ويبدو أن طغتكين خرج من دمشق إلى بغداد قبل أن يتلقى هذه الإشارة السلطانية. لكن وصوله إلى بغداد لم يحدث، لأنه سمع وهو في طريقه أن السلطان محمد قرر إعادة تقسيم بلاد الشام، وأنه رشح بعض قادته لتولي الإمرة على مختلف نواحيها، وأنه أصدر مراسيم تعيينهم في هذه الولايات. كان ما سمعه طغتكين محض شائعة روّجها بعض المرجفين المغرضين في بغداد، وهذا ما تأكد بعد ذلك. إلاّ إن هذه الشائعة حملته على تغيير قراره بالوصول إلى بغداد والعودة السريعة إلى دمشق، بعد أن أوكل إلى مرافقه فخر الملك ابن عمار وبعض ثقات رجاله مهمة إعلام الخليفة والسلطان بالرسالة. وطلب من ابن عمار أن يكاشف السلطان بشأن تلك الشائعة التي أدت إلى عودته إلى دمشق. فلمّا وصل الوفد إلى بغداد تبين له زيف الشائعة، ووقف على صدق عزم السلطان على التزام خطة الجهاد.(٢٣)

## الجهاد مطلب شعبي

تزامنت الاتصالات الرسمية بين دمشق ومركز الخلافة في بغداد مع تحرك شعبي ضاغط لم يبقِ للقيادة السياسية فسحة من التأجيل والتريث في إصدار القرار. ويروي ابن القلانسي، في سرده أحداث سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠ - ١١١١م، أنه عند وصول السلطان من هَمَذان إلى بغداد تلقى عدداً من الرسائل، واستقبل الرُسل الذين قدموا من بلاد الشام، وبلّغوه تطورات الأحداث، كسقوط صيدا واستيلاء الفرنجة على مزيد من الحصون في منطقتي طرابلس وحلب. وتلا ذلك وصول ممثلين من أعيان مدينة حلب ونخبها الدينية والاجتماعية وبعض رموزها الروحية. وذُكر بينهم ممثلون عن نقابة الأشراف (أي أبناء الأسرة الهاشمية أسرة العلويين تحديداً)، وبعض مشايخ الصوفية، وبعض الفقهاء، وعدد من التجار. لم تتوجه هذه النخب إلى البلاط الخلافي أو السلطاني كما كانت تفعل الوفود الرسمية، وإنما قصدت مخاطبة الجماهير في الأسواق والجوامع من تحت أنوف المسؤولين والمؤسسات السلطانية. واستغل هؤلاء احتشاد المصلين وأهل العبادة في الجوامع أيام الجمع في شهر رمضان لنقل رسالتهم إلى المسلمين في عاصمة الخلافة. وكان تركيزهم على جامع السلطان حيث أطلقوا صرخات الاستغاثة، وبكوا ما لحق بالإسلام والمسلمين في بلاد الشام، وكشفوا للناس فظاعة ما حل بأهل البلاد، من قتل الرجال وسبي النساء واستباحة الأعراض. وفعلوا الأمر نفسه في الجمعة التالية في جامع الخليفة، فساد الهرج



LAU LIBRARY BEIRUT

والمرج بين المصلين، وأُنزل الخطيب عن المنبر، وعطلت الصلاة، ووصل الغضب بالجماهير إلى حد إبطال صومهم في ذلك اليوم الفضيل من رمضان. كل ذلك ورجال السلطان وقادة عسكره يحاولون جاهدين تهدئة الجماهير الغاضبة عن طريق إطلاق الوعود باسم السلطان تؤكد عزمه على إرسال الجيوش للدفاع عن الإسلام ضد الفرنجة. وفي خطوة احتجاجية على تقاعس الخليفة عن مناصرة المسلمين ضد الفرنجة، امتنعت الجماهير من المشاركة في الاحتفالات الشعبية التي أعدت لاستقبال زوجة الخليفة، الخاتون أخت السلطان محمد، عند وصولها من أصفهان إلى بغداد. ولمّا أصر الخليفة على معاقبة قادة الجماهير، المسؤولين عن الاضطرابات التي حدثت في أثناء صلاة الجمعة، نهاه السلطان عن ذلك. وزاد في غضب الجمهور على الخليفة وصول وفد أرسله الإمبراطور البيزنطي إلى البلاد يحرض الخليفة على الصليبيين، ويحذره من مغبة التقاعس أو التلكؤ في محاربتهم. فرأى الفقهاء ورجال الدين في هذه الخطوة دليلاً على تقصير الخليفة في واجبه تجاه الأمة جعلته هدفاً للانتقاد اللاذع بعد أن اعتبر أقل حمية للإسلام من إمبراطور بيزنطة.(٢٤)

ألهبت أحداث الأسبوعين المتتاليين من رمضان سنة ٥٠٤هـ/ ١١١١م مشاعر الحماسة الدينية لدى أهل بغداد، وشحنت نفوسهم بالرغبة في الجهاد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين. وتصدر الفقهاء ورجال الدين حشود المتطوعين الذين نذروا أنفسهم لجهاد الفرنجة احتساباً لوجه الله، وهمت جموع المتطوعين بالتوجه إلى أرض الشام حيث ساحة الجهاد ضد الغزاة. وعلى المستوى الرسمي شعرت الخلافة الإسلامية في بغداد، وشعر السلطان محمد بن ملكشاه بالحرج، وأيقنا أن المخرج الوحيد هو الاستجابة الفورية لمطلب الجهاد الذي بات مطلباً جماهيرياً لا يحتمل المطل والتسويف. عند هذه اللحظة أصدرت بغداد الأمر بالجهاد. وربّ لسائل أن يسأل ما الذي تغير عند صدور هذا القرار؟ ألم يكن الأمراء المسلمون يحاربون الفرنجة قبل هذا القرار؟ ألم يهُب أمراء الشام وأمير الجزيرة قبل ذلك لنجدة أنطاكية وواليها ياغي سيان وهو يدافع عن المدينة ضد حصار الفرنجة، فما الجديد إذاً؟ وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد من ذكر أن قرار محاربة الفرنجة قبل ذلك إنما كان يصدر عن جهة إسلامية، أو عن جهات متعددة لها مصلحة مباشرة في هذه الحرب، إمّا دفاعاً عن بلد تمتلكه وإمّا لاستعادة أرض أو بلد فقدته؛ فدوافع مثل ذلك القرار دوافع مادية فردية تخص جهة بعينها ولا شأن لباقي المسلمين به. أمّا قرار الجهاد فمختلف من عدة أوجه: أولاً، هو يصدر عن أعلى سلطة دينية - سياسية ممثلة بالخلافة الإسلامية وبسلطان المسلمين الذي كان يحمل لقب حامي حمى الإسلام؛ ثانياً، هو قرار عام ينطبق على المسلمين جميعاً عامهم وخاصهم، ويشمل الإمارات

والممالك البعيدة مثل القريبة، المتضررة وغير المتضررة لأنه قرار ملزم لكل مسلم؛ ثالثاً، هو لا يستهدف بقعة بعينها من بقاع المسلمين ولا يحدد بفترة زمنية ينتهي سريان مفعوله بانتهائها؛ رابعاً، هو يهدف إلى تحقيق قيمة روحية غيبية لا تنطبق عليها المقاييس العادية للربح والخسارة، ويهون من أجلها الغالي والنفيس.

شمل قرار الجهاد أمراء الممالك الشرقية والجزرية. فأرسل السلطان أوامره إلى الأمراء يستنهضهم للمشاركة في حملة الجهاد، وكان من أبرزهم شرف الدين مودود، أمير الموصل، الذي أوكلت إليه قيادة الحملة الأولى، وانضم إليه الأمير سكمان القطبي، أمير منطقتي أرمينيا وميافارقين، والأمير نجم الدين إيلغازي الأرتقي وغيره من الأمراء الأراتقة في ديار بكر وخلاط وماردين، على أن ينضم إليهم أمراء بلاد الشام، أمير حلب رضوان، وأمير دمشق ظهير الدين أتابك طغتكين. وجُعلت إمارة الرها، التي كانت للأمير الفرنجي بلدوين دو بورغ، هدفاً لهذه الحملة. لكن الفشل كان من نصيب هذه الحملة، فبعد حصار الرها انسحبت القوات المحاصرة من دون أن تحرز شيئاً. وأظهرت هذه الحملة الجهادية المشتركة هشاشة فكرة الجهاد وعدم نضجها في هذه المرحلة المبكرة. ولم يكن الأمراء السلاجقة المشاركون فيها من ناحية، كما لم يكن أمراء بلاد الشام، رضوان أمير حلب وطغتكين أمير دمشق من ناحية أُخرى، مهيئين لتقبل الفكرة وتحمّل التبعات المترتبة عليها. تبين ذلك من خلال ما فعلته القوات المشرقية في أعمال إمارة حلب من عبث وفساد بعد أن ترك جنودها حصار الرها وعبروا الفرات غرباً نحو أرض الشام. وتبين كذلك مما فعله الأمير رضوان مع زملائه قادة السلاجقة حين أغلق أمامهم مدينة حلب، ومنعهم من الاستفادة من المرافق اللازمة لهم ورفض الانضمام إليهم. وانعكس ذلك أيضاً في موقف طغتكين الحذر بل المشكك في نيات أمراء السلاجقة المشرقيين بعد أن أحس أنهم يطمحون إلى الاستيلاء على دمشق وتجريده من إمارتها، فشرع في مهادنة الفرنجة والاتصال بهم سراً. وإن أسفرت حملة مودود الجهادية الأولى عن أمر، فعن نوع من العلاقة الشخصية التي نسجت بينه وبين الأمير ظهير الدين أتابك طغتكين، أمير دمشق.[٢٥] وهو ما سيكون له نتائج سياسية وعسكرية فيما سيأتي من الأيام.

## تجذر فكرة الجهاد

على الرغم من فشل حملة الجهاد الأولى في تحقيق أهدافها العسكرية المعلنة، ولا سيما استعادة مدينة الرها، المدينة المركزية لإمارة الرها الفرنجية، وعلى الرغم من الترسبات السياسية السلبية التي خلفتها نتيجة مظاهر الشكوك المتبادلة بين القادة



LAU LIBRARY
BEIRUT

المشرقيين وقادة أهل الشام، فإنها كشفت عن جدية قرار الجهاد الذي اتخذه السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، وعن أنه لم يكن قراراً تكتيكياً مرحلياً قصد به تجاوز الأزمة التي أفرزتها الاضطرابات الشعبية التي حدثت في بغداد. كما أنها أماطت اللثام عن وجود جيل من القادة العسكريين الإقليميين ممن انطوت صدورهم على جرثومة الجهاد كقيمة دينية إسلامية عليا يضعونها فوق كل اعتبار. ولعل الأمير مودود بن ألتونتكين، أمير الموصل، كان خير ممثل لهذا الجيل من القادة. لقد توالت بعد الجولة الجهادية الأولى جولة ثانية وثالثة، وكان الأمير مودود هو العنصر المحرك في هذه الجولات. وإذا ما أدت الجولتان الأولى والثانية إلى نوع من خيبة الأمل، ولم تحققا الأهداف المرجوة، فقد أسفرت الجولة الثالثة عن نتائج إيجابية ملموسة.

لم تنجح حملات الجهاد في إحداث تغيير في ميزان القوى على أرض الشام حتى هذا التاريخ. واستمر التفوق العسكري للفرنجة على عرب بلاد الشام، وبقي أمير حلب وأمير شيزر يؤديان الأتاوى المالية السنوية التي فرضها عليهما الفرنجة، وظل ظهير الدين أتابك طغتكين، أمير دمشق، يصارع وحيداً غاراتهم على ضواحي دمشق، ويقاوم الحصار الاقتصادي الذي كانت تعاني إمارته جرّاء نتيجة سيطرتهم على خطوط المواصلات واستيلائهم على قوافل التجار التي تقصد دمشق أو تخرج منها. ولم يكن أمام ظهير الدين أتابك من سبيل إلاّ مكاتبة أمير الموصل، شرف الدين مودود، بعد أن كانت أواصر الصداقة والمودة ترسخت بينهما في أثناء حملات الأخير السابقة على الفرنجة في بلاد الشام. فكان ظهير الدين يشكو إلى صديقه ضيق الحال، ويحثه على سرعة القدوم ليعينه على مناهضة ضغوط الفرنجة، وكان في الوقت نفسه لا يغلق باب التفاوض بينه وبين الفرنجة.[٢٦]

لبى الأمير مودود نداء زميله وصديقه ظهير الدين أمير دمشق وخرج بعساكره، عساكر الموصل، تلبية لنداء واجب الجهاد. وحين تأكد ظهير الدين من خروج صديقه رفض عرض المهادنة الذي قدمه الملك بلدوين، ملك مملكة القدس اللاتينية، وخرج بعسكره للقاء مودود وعسكره، وسارا معاً حتى نزلا شمال فلسطين مروراً بمنطقة البقاع. ثم تقدم الجيش المشترك وعسكر في الأقحوانة جنوبي بحيرة طبرية، وكان جيش الفرنجة يعسكر قبالته، قريباً من جسر الصنبرة. أوقع الجنود المسلمون بالفرنجة وهزموهم، فتحولوا من الصنبرة إلى المرتفعات الغربية المشرفة على طبرية، فحاصرهم المسلمون وشلوا حركتهم، ولم يجرؤ الفرنجة على خوض المعركة. وعندما كان المسلمون يحاصرون جيش الفرنجة، كان بعض سراياهم يجوب الأرض الفلسطينية، وينهب المزارع والغلال ويخرب الضياع الفرنجية ما بين عكا وبيت المقدس، ووصل بعضها إلى مدينة يافا. واستمر هذا الحال قرابة شهرين كان جيش المسلمين سيد

الموقف، حتى إنه لم يبق مسلم أو عربي على أرض فلسطين إلاّ وأعلن ولاءه لأتابك طغتكين. وفي أواخر صفر ٥٠٧هـ/آب (أغسطس) ١١١٣م، حان موعد عودة العساكر الذين رافقوا مودود، وعندها صدرت الإشارة بالرحيل والعودة. وعندما دخل مودود دمشق مع أميرها طغتكين نزل في ضيافته، لكن لم يمض شهر حتى اغتيل الأمير مودود على يد رجل مجهول لم تعرف هويته، وذهب بعض الروايات إلى أنه كان أحد فدائيي الباطنية.[٢٧]

شكلت معركة الصنبرة أول اختراق عسكري ناجح لقوة عسكرية إسلامية على أرض فلسطين المحتلة منذ أن طرد منها المسلمون قبل خمسة عشر عاماً تقريباً، استسلم خلالها عرب فلسطين للقنوط واليأس من النصر. وعلى الرغم من أن انتصار المسلمين كان محدوداً، وظلت معاقل الفرنجة وحصونهم بمنأى عن متناول أيديهم، فإن هذه المعركة نجحت في إيصال صوت الجهاد إلى ربوع البلاد، وصار صداه يتردد على مسامع أهلها.

## الجهاد بين مد وجزر

بعد رحيل شرف الدين مودود، عيّن السلطان أحد قادته، الأمير برسق بن برسق والي مقاطعة همذان، في إمارة الموصل، وأوكل إليه الاستمرار في حمل راية الجهاد التي كان يحملها مودود. لكن اغتيال الأخير في دمشق ساهم، على ما يبدو، في إحداث تصور جديد لمفهوم الجهاد وآلياته عند السلطان ومعاونيه، وخصوصاً بعدما كان شاع أن ظهير الدين أتابك طغتكين، أمير دمشق، كان وراء الاغتيال. فساد الانطباع في بلاط السلطان أن أمراء الشام كانوا حريصين على سلامة دولة الفرنجة وعدم القضاء عليها، وأنهم يرون فيها وسيلة يتوسلون بها للمحافظة على حكمهم وكراسيهم. من أجل هذا كله لاحظنا تحولاً في المنهج الذي اتبعه البرسقي في سياسة الجهاد. وتتلخص هذا التحول في أمرين يرتبط أحدهما بالآخر: فلكي يكون الجهاد جهاداً لا بد من توحيد الإمارات الإسلامية المشرقية ما وراء الفرات، وخصوصاً فسيفساء الإمارات التركمانية الأرتقية، تحت زعامة الموصل، ومن ثم إخضاع إمارات الشام الباقية، حلب ودمشق وحمص وحماة وشيزر، لسلطة الموصل. ومن أجل تحقيق مثل هذا التوحيد فإنه لا مفر من استخدام القوة العسكرية عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

باشر برسق تنفيذ هذه الخطة، وبدأ بكبرى الإمارات الأرتقية، إمارة ماردين، فأخذها بالقوة. ثم شرع في إخضاع الإمارات التركمانية الأُخرى. وقد أحدث ذلك



LAU LIBRARY
BEIRUT

ردة فعل سريعة لدى الأمراء الأراتقة وأمراء الشام لمقاومة هذه السياسة. فأقاموا نوعاً من التحالف ضد البرسقي، ولم يروا حرجاً في إدخال إمارات الفرنجة فيه. وبهذا نشأ أول تحالف غريب كهذا، تحالف إسلامي - فرنجي ضد فكرة الجهاد لدى القائد السلجوقي المسلم. وبعد أن أحرز البرسقي بعض الإنجازات لمشروعه التوحيدي، وقصد إخضاع حلب، كبرى إمارات الشام، لاقى هزيمة غير متوقعة على يد قوة فرنجية كمنت لجيشه المتجه نحو المدينة. فانسحب البرسقي من الساحة وتعطلت إلى حين مسيرة الجهاد.[٢٨]

ترك انسحاب برسق من المعترك فراغاً سياسياً في بلاد الشام، لم يكن أحد غير الفرنجة يستطيع أن يملأه بسبب ما كانت تعانيه الإمارات الشامية العربية جرّاء الضعف والتفكك. وكانت حلب، كبرى الإمارات الشامية، أكثر الإمارات عرضة للقلاقل والاضطراب بعد موت أميرها رضوان بن تتش بسبب عدم الكفاية الإدارية التي عانى جرّاءها الأوصياء (الأتابكيون) على ولي عهدها الطفل البارسلان ابن رضوان. وهذا ما جعلها البلد الأكثر استهدافاً من جانب الفرنجة. وقد بلغ بها الضعف أيام يارقتاش، الذي ورث الخادم لؤلؤ في الوصاية، أن صارت شبه محمية لأمير أنطاكية الفرنجي روجر. وفي أيام يارقتاش هذا عرف الإسلام والمسلمون أبشع أنواع المهانة والإذلال، بعد أن وقّع هذا الحاكم اتفاقية مع حكام الفرنجة في أنطاكية يخولهم بموجبها تولي حراسة قافلة الحجاج المسلمين في طريقها من حلب إلى مكة، وكذلك يعطيهم الحق في جباية الرسوم من الحجاج في مقابل هذه الخفارة.

أحدثت هذه الاتفاقية المذلة ردات فعل غاضبة عند أهالي حلب، وتوجه فقهاؤها وأعيانها مستجيرين بالأمير التركماني الأرتقي إيلغازي بن أرتق، أمير ماردين، كي يمحو عنهم وعن الإسلام هذا العار. ولعله لمن سخرية الأقدار أن يصبح الأمير إيلغازي، أحد أقطاب التحالف الإسلامي - الفرنجي الذي شُكّل بالأمس ضد البرسقي، حامل راية الجهاد، وكان السبب في هزيمته وخروجه من الساحة، هو محط آمال المسلمين. وبموافقة إيلغازي على هذا التوجه أصبح الوارث الشرعي لتراث الجهاد الذي أرسى قواعده مودود وأكمله برسق بن برسق. وهكذا صار إيلغازي، سنة ١١١٨، صاحب الولاية في حلب بعد أن فتح الباب على مصراعيه أمام انفتاح سورية العربية على منطقة الجزيرة منبع العساكر التركمان الذي لا ينضب. وسرعان ما جدد إيلغازي الحلف القديم مع أمراء الشام المسلمين، وخصوصاً مع ظهير الدين طغتكين، أمير دمشق، الذي رحب بهذا التحالف لأنه كان أكثر ثقة بالأمير التركماني مقارنة بالأمراء السلاجقة السابقين الذين كانوا يمثلون السلطنة السلجوقية التي كان طغتكين يخشاها على إمارته. أثبت التحالف الإسلامي الجهادي الجديد كفايته العسكرية بعد أن

استطاع إيلغازي هزيمة الفرنجة، سنة ١١١٩، في شرمدا أو دانيث البقل التي سقط فيها الأمير الفرنجي روجر، الذي كان مصدر قلق وخوف للمسلمين في المنطقة. ولم يمضِ على هزيمة الفرنجة إلاّ قليلاً حتى استطاعوا استعادة تفوقهم من جديد، وعادت المبادرة إلى أيديهم، وعاد الاضطراب يلف إمارة حلب، ولا سيما بعد وفاة الأمير الأرتقي إيلغازي سنة ١١٢٢، واقتسام دولته بين أولاده وأولاد أخيه.[٢٩]

بعد سقوط ميناء صور سنة ١١٢٤، عاود الفرنجة تهديداتهم لمنطقة حلب، التي كانت في هذا التاريخ تحت حكم الأمير تمرتاش، آخر من حكمها من أبناء الأسرة التركمانية الأرتقية. حاصر ملك القدس الفرنجي بلدوين الثاني المدينة، وأعانته على الأمر كتائب من فرسان بني مزيد، أمراء منطقة الحلّة، بقيادة دبيس بن صدقة، وغلمان تركمان بقيادة إبراهيم بن رضوان، أحد أبناء الأمير السابق. وكان أمير حلب، تمرتاش بن إيلغازي، غائباً عنها منذ تركها وقصد ماردين لإجراء بعض الترتيبات فيها. فلم يكن أمام أهل حلب من حيلة لمواجهة الحصار إلاّ الاستغاثة بأمير الموصل الجديد، آقْسُنْقُر البرسقي، الذي عيّنه السلطان محمود السلجوقي في إمرة المدينة. لكن آقْسُنْقُر اشترط على أهالي حلب تسليمه المدينة في مقابل معونته لهم فتم له ذلك.[٣٠]

تؤكد تجربة الأمير التركماني إيلغازي الأرتقي، الذي وقف في مركز الحدث السياسي في حلب وبلاد الشام بعد فشل حملة برسق بن برسق، أمير الموصل، والممثل الرسمي للسلطان السلجوقي رائد فكرة الجهاد ضد الفرنجة، أن راية الجهاد التي حملها مودود ظلت مرفوعة على الرغم من غياب ممثل السلطنة السلجوقية. فعندما استدعى أهل حلب إيلغازي لإنقاذ مدينتهم من تهديد الفرنجة لم يكن في وسعه إلاّ أن يسير تحت راية الجهاد نفسها، ولم يكن له أن يحشد من حوله الحلفاء إلاّ وهو رافع هذه الراية. بمعنى آخر فإن مقاومة الفرنجة غربي نهر الفرات لم تعد ممكنة إلاّ ضمن هذه الصيغة من العلاقات الإسلامية الإسلامية. وكانت هذه الصيغة في الوقت نفسه الأكثر ضماناً للتغلب على المنافسات السياسية الفردية، ولتغييب عامل الشك الذي كان يعشش في صدور السياسيين والحكام في هذه المنطقة.

عندما استدعى الحلبيون أمير الموصل آقسنقر البرسقي، ولمّا لبى هذا الأمير طلب الاستدعاء، كان يمثل في ذهن الطرفين هاجس الجهاد. وكان هذا الهاجس لا شك يحظى بالأولوية عند البرسقي؛ فتعيينه في ولاية الموصل تضمن أمراً صريحاً من السلطان بضرورة الجهاد ضد الفرنجة، واستعادة الأوطان المسلوبة منهم. ومنذ اللحظة التي تسلم آقسنقر حلب وضع حجر الأساس للوحدة بينها وبين الموصل، والتي سرعان ما انضوت تحت لوائها الإمارات الشامية الأُخرى، دمشق وحمص وشيزر. ولأول مرة، بعد ربع قرن من الاحتلال الصليبي للشرق، فقد الفرنجة أحلامهم



بالاستيلاء على حلب، وانتقل توجههم التوسعي نحو مدينة دمشق، وهو ما سيحاولون تحقيقه في مرحلة الصراع المقبلة مع المسلمين.[٣١] وبعد أن قتل أحد فدائيي الإسماعيلية آقسنقر البرسقي غيلة سنة ١١٢٦، حانت الفرصة لصعود نجم جديد هو عماد الدين زنكي، مؤسس الدولة الزنكية، الذي سيكون له ولابنه نور الدين محمود من بعده شأن في إرساء قواعد الجهاد ضد الفرنجة في فلسطين وبلاد الشام.

## الأسرة الزنكية ومسيرة التحرير

ولد عماد الدين زنكي سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م لأحد مماليك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان. كان أبوه قسيم الدولة أبو سعيد آقسنقر بن عبد الله الحاجب في جيش السلطان ملكشاه عندما قدم إلى حلب سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. وعندما غادر السلطان حلب وعاد إلى المشرق أقطعها هي وناحيتها لمملوكه آقسنقر قسيم الدولة، فقام بإدارتها أحسن قيام، وعرفت هذه المنطقة في عهده أجواء الاستقرار والأمن والرخاء التي كانت تتوق إليها منذ زمن بعيد. ولمّا هاجم تتش بن ألب أرسلان حلب وقع آقسنقر في أسره فقتله صبراً بنفسه، وكان ذلك سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. وكان عمر زنكي (عماد الدين) آنذاك لم يتجاوز العشرة أعوام.[٣٢]

نشأ عماد الدين زنكي في مدينة الموصل محاطاً بعطف زملاء أبيه ورعايتهم، وذلك إكراماً لذكراه ووفاء منهم لفضله. وصقلت خدمته لأمراء الموصل المتتابعين ما ورثه عن أبيه من المواهب العسكرية. فخدم كلاً من كربوغا وجكرمش وجوالي ومودود والبرسقي؛ وهم الذين ارتبطت أسماؤهم بمعاناة تجربة الجهاد ضد الصليبيين. ولا شك في أن أجواء الجهاد التي عاشها في ريعان شبابه قد تركت بصماتها عليه، فكانت معاركه التي خاضها ضد الفرنجة، أو تلك الجهود العسكرية التي بذلها لتوحيد إمارات منطقة الجزيرة وديار بكر وإمارات الشام تحت راية الموصل، امتداداً لهذا التراث الجهادي الذي أورثه أولئك القادة من الموصل وغيرهم في هذا الجزء من أقاليم العالم الإسلامي. لذلك ارتسمت لدى عماد الدين زنكي صورة القائد الذي بعث فكرة الجهاد، ثم حوّلها من فكرة نظرية وجعلها واقعاً ملموساً، كما عبر عن ذلك المؤرخ عز الدين ابن الأثير في كتابه «تاريخ الدولة الأتابكية: ملوك الموصل».[٣٣]

شغل عماد الدين زنكي بعض المناصب الإدارية في العراق، حيث ولاه البرسقي على مدينة واسط سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، والتي كانت حينها جزءاً من إقطاعه. وبعد أن سوى السلطان محمود خلافه مع الخليفة العباسي المسترشد بالله وأراد أن يترك بغداد



LAU LIBRARY
BEIRUT

وقع اختياره على زنكي ليوليه شحنكية بغداد (أي ليكون وكيلاً عنه لمراقبة نشاط الخليفة)، لأنه لم يجد في أعوانه ورجاله من يوكل إليه هذا الأمر غيره. ولم يمضِ على عماد الدين زنكي عام في وظيفته الجديدة حتى وقع اختيار السلطان عليه ليتولى الموصل، وكانت أصابع الخليفة المسترشد وراء هذا الاختيار، لأنه أراد، على ما يبدو، التخلص من ثقل وطأته عليه. وصل زنكي إلى الموصل، ولايته الجديدة، بعد أن تسلّم المنشور السلطاني سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م. وبعد فترة قصيرة من توليه المنصب أخضع الإمارات الإسلامية المجاورة، كجزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار والخابور وحرّان. ولم يرغب في هذه المرحلة في أن يصطدم بالفرنجة أمراء الرها، فعقد معهم مهادنة كي يتفرغ لترتيب الأمور في نواحي إمارته، ومن أجل أن يعد العدة لقطع الفرات والاستيلاء على حلب. ولمّا تم له ذلك قطع الفرات واستولى على منبج وبزاعة، ثم دانت له حلب سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، ورأت فيه المنقذ، لأن الفرنجة كانوا يحاصرونها ويضيقون الخناق عليها، إضافة إلى ما كانت تعانيه جرّاء تقلبات سياسية، بسبب تعاقب الحكام وسرعة تناوبهم على الولاية فيها.[٣٤]

## زنكي ومحور حلب

امتدت ولاية عماد الدين زنكي الطويلة، إذا ما قورنت بولاية من سبقوه في إمرة الموصل، طوال عقدين من الزمان، وهي فترة يمكن تقسيمها إلى مرحلتين متمايزتين: الأولى، امتدت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١١٣٧، انصب اهتمام زنكي فيها على ترسيخ أقدامه وإحكام قبضته على المناطق الواقعة شمال العراق ومناطق حوض الفرات الأعلى، ولم يولِ بلاد الشام إلاّ اهتماماً ضئيلاً. أمّا المرحلة الثانية، التي تمتد بين سنة ١١٣٧ وسنة ١١٤٦، فكانت على الغالب مقصورة على الأوضاع في بلاد الشام، وخصوصاً التعامل مع الإمارات الفرنجية. ولمّا كانت محاربة الفرنجة تحتاج إلى ترتيب الأوضاع داخل المعسكر الإسلامي، انصبت جهوده على إخضاع الإمارات الإسلامية لسيطرته، واقتضى ذلك بذل كثير من الجهد لتحقيق هذه الغاية.

كانت حلب هي رأس الجسر الذي سينطلق منه زنكي لتنفيذ سياسته التوسعية في بلاد الشام. ولم ينتظر طويلاً بعد أن تمركزت قواته في حلب، فانطلق في السنة التالية (١١٢٩) لإخضاع المناطق التي تفصل بين حلب ودمشق، وهي شيزر وحماة وحمص، وكانت حماة بصورة خاصة تابعة لإمارة دمشق. وقد لجأ عماد الدين زنكي إلى التمويه لتحقيق أهدافه التوسعية. فأوهم أمير دمشق، تاج الملوك بوري، بأنه عازم على جهاد الفرنجة، واطمأن بوري إلى وعوده، لكن زنكي غدر واعتقل قائد الجيش



LAU LIBRARY
BEIRUT

(ابن تاج الملوك) الذي أُرسل لمعونته، ثم استولى على حماة التي كانت خالية من حماتها. وبالطريقة نفسها حاول خداع أمير حمص والاستيلاء على المدينة.[٣٥]

تركت هذه التجربة التي مرت بها علاقة زنكي بأمير دمشق رواسب من الشك بين الطرفين. وظهر زنكي أنه أمير من نوع جديد لم تعرف بلاد الشام مثيلاً له من قبل، وهو أمر ستكون له عواقب سلبية على محاولات توحيد الشام ضد الفرنجة.

وفي السنة نفسها هاجم زنكي حصن الأثارب الواقع بين حلب وأنطاكية. وكان وجود الفرنجة في هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين، حتى إنه اضطر أهل حلب إلى أن يقاسموا الفرنجة غلال المناطق الواقعة إلى الغرب من مدينتهم. وكانت القسمة شاملة حتى إنهم قاسموهم غلة إحدى الطواحين في المنطقة. أدى الحصار إلى سقوط حصن الأثارب في يد زنكي، فأمر بتخريبه ودكه دكاً. بعد ذلك توجه إلى قلعة حارم وحاصرها حتى قبل الفرنجة مقاسمته غلة هذا البلد. فتنفس أهل حلب الصعداء بعد تدمير حصن الأثارب وكسر الطوق الذي كان يأخذ بخناق المدينة. وصار هَمّ الفرنجة المحافظة على ما في أيديهم بعد أن كانوا من قبل يطمحون إلى كل ما يملكه المسلمون.[٣٦]

بعد سقوط حصن الأثارب غاب عماد الدين زنكي عن الساحة في بلاد الشام، بعد أن انغمس، خلال الأعوام الستة التالية، في الصراع الداخلي الذي نشب في أعقاب موت السلطان محمود، وما نجم عن ذلك من انقسامات قادها الطامحون إلى إرث السلطنة وحلفاؤهم.

على الرغم من أن حلب أصبحت في مأمن من مهاجمة الفرنجة، بعد أن أدت انتصارات زنكي إلى تخليهم عن طموحاتهم، فإنها فقدت زمام المبادرة في أثناء غيابه كل هذه الأعوام عن أرض الشام، فملأت إمارة دمشق هذا الفراغ الجاري. وقام أميرها الجديد إسماعيل بن بوري (حفيد أتابك طغتكين) باستعادة نفوذه السياسي الذي كانت فقدته دمشق لمصلحة زنكي وإمارة حلب، فاستعاد شمس الملوك إسماعيل شيزر وحماة. أمّا على جبهة الفرنجة فاحتل قلعتي بانياس وشقيف تيرون، والأخيرة هي إحدى القلاع المهمة في الجنوب اللبناني التي تتحكم في الطريق التجارية قبالة ميناءي بيروت وصيدا. وشن بعض كتائب جيش دمشق غارات جريئة في عمق أراضي فلسطين، في الجليل وطبرية والناصرة ووصل إلى عكا، وأمعن في النهب والتدمير والقتل والسبي.[٣٧]

لم يكن ما فعله شمس الملوك إسماعيل، أمير دمشق، نابعاً من طاقات عسكرية حقيقية لدمشق، وإنما نتج من استغلال ظرف طارئ انشغل فيه عماد الدين زنكي بحروب وراثة السلطنة من جهة، وانشغل قادة الفرنجة بفتن داخلية من جهة أُخرى.

ولمّا عادت الأمور إلى طبيعتها وفرغ عماد الدين زنكي من مشاغله في المشرق عادت إمارة دمشق إلى حجمها الطبيعي. ووصل الإحباط الذي أصاب شمس الملوك إلى درجة أنه عرض على زنكي تسليمه مدينة دمشق، لولا تدخل أمه التي أمرت بقتل ابنها بسبب نيته تلك.

عاد زنكي من المشرق لينطلق مرة أُخرى من مدينة حلب ويعيد نفوذه على المناطق التي استولت عليها دمشق في أثناء فترة غيابه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد قام بسلسلة من الغارات السريعة في ربيع سنة ١١٣٥ على المواقع والحصون التي في أيدي الفرنجة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، الأمر الذي أدى إلى سقوط نصف الأراضي التي كانت تمتلكها إمارتا أنطاكية وطرابلس الفرنجيتان، إذ أخذت المعاقل الفرنجية تتهاوى الواحد تلو الآخر في يد زنكي منها: حصن الأثارب؛ زردنا؛ معرّة النعمان؛ كفرطاب. ولم يتوقف مسلسل الهزائم الفرنجية في الشمال إلاّ عندما اضطر زنكي إلى ترك الشام والعودة مرة أُخرى إلى المشرق بعد أن تجددت المعارك بين المرشحين للسلطنة والخليفة العباسي.

مع ذلك قام نائب زنكي في حلب سنة ١١٣٦ بهجوم على إمارة أنطاكية حتى وصل إلى اللاذقية على شاطئ البحر، وبذلك استطاع أن يقسم الإمارة إلى نصفين. وفي السنة التالية استهدف عماد الدين زنكي حصن بعرين الصليبي (بارين/Montferrand)، الذي يقع في الطرف الشرقي لإمارة طرابلس، وتكمن أهميته في تحكمه في الطريق الرئيسي الذي يصل بين مناطق سورية الداخلية، وخصوصاً بين حمص وحماة. في صيف سنة ١١٣٧ هوجم الحصن وحوصر. ولمّا خرج حاكم طرابلس للدفاع عنه وقع في أسر زنكي. فما كان من ملك القدس فولك الذي قدم على رأس جيش لنجدة الحصن إلاّ أن يدخله نجاة بنفسه، ولم يفلح في تقديم الدعم المتوقع. فهب كل من أمير أنطاكية وبطرك القدس وأمير الرها على رأس قوات عسكرية للنجدة. لذلك أسرع زنكي في إنهاء المفاوضات التي كان بدأها مع الفرنجة المحاصَرين داخل الحصن قبل أن يعلموا بوصول هذه النجدات. فتم الاتفاق على خروجهم منه بالأمان وتسليمه للمسلمين. وكان احتلال هذا الحصن خلّص مدينتي حماة وحمص من المخاطر التي تتهددهما.[٣٨]

عندما كان الفرنجة مشغولين بالتصدي لهجمات زنكي، وكانت أغلبية قواتهم العسكرية محاصرة في حصن بعرين، دخلت القوات البيزنطية المناطق الشمالية لبلاد الشام وحاصرت مدينة أنطاكية البيزنطية. كان ذلك جزءاً من خطة الإمبراطور البيزنطي، ألكسيوس كومنينس، الطموحة لاستعادة نفوذ بيزنطة على أملاكها الضائعة في بلاد الشام. عندها لم يكن أمام أمير أنطاكية الفرنجي، ريموند بواتييه، إلاّ أن يقبل



بالشروط المذلة التي أملاها الإمبراطور البيزنطي، والتي جعلت منه مجرد تابع للإمبراطور صاحب السيادة على البلاد. وكان احتلال حلب وقلعة شيزر جزءاً من خطة البيزنطيين، ويبدو أن عماد الدين زنكي لم يكن يدرك أبعادها، وظن أن هدف الإمبراطور يكمن في إمارة الجزيرة الفراتية، فتحرك إلى تلك المنطقة بعد استيلائه على حصن بعرين انتظاراً للهجوم البيزنطي المتوقع. وعندما أدرك أخيراً نية استهداف حلب أرسل أحد قادته لتعزيز الدفاع عن المدينة. وكان الهجوم البيزنطي تأخر بسبب انشغال المهاجمين بمحاصرة بلدة بزاعة، وانصراف الجيش إلى جمع الغنائم من فلاحي المنطقة. وخلال هذين الأسبوعين اللذين أمضاهما البيزنطيون بمحاصرة بزاعة نجحت القوات الإسلامية في إحكام خطة الدفاع عن حلب، الأمر الذي أدى إلى فشل حملة البيزنطيين، واضطرار قواتهم إلى أن تعود أدراجها خارج الحدود السورية. وفي نهاية صيف سنة ١١٣٨ استطاع عماد الدين زنكي أن يزيل كل المنجزات العسكرية التي حققتها هذه الحملة. وبهذا انتهت فصول هذه الحركة البيزنطية من دون أن تؤثر في إضعاف زنكي، أو تلغي برامجه تجاه الفرنجة في شمال بلاد الشام.[٣٩]

## زنكي ومحور دمشق

بحلول سنة ١١٣٩، انتقل مركز الثقل في سياسة زنكي من شمال بلاد الشام، الذي شكلت فيه مدينة حلب الإسلامية ومدينة أنطاكية الفرنجية طرفي معادلة الصراع، إلى دمشق. كانت دمشق خلال الأعوام الثمانية الماضية هي الدولة التي تفصل بين دولة عماد الدين زنكي ومملكة القدس اللاتينية، من وجهة النظر الفرنجية على الأقل. وخلال هذه الفترة لم تغب دمشق عن هموم الدولة الزنكية، لأن زنكي كان يرى فيها الضلع المفقودة في دولته ثلاثية المحاور التي كان يسعى لإقامتها، الموصل - حلب - دمشق، كخطوة تمهيدية لا مندوحة عنها من أجل تحقيق خطة الجهاد الهادفة إلى تحرير بلاد الشام وفلسطين من قبضة الفرنجة الغزاة. إلاّ إن انشغاله بالجبهة الشمالية، جبهة حلب - أنطاكية، أعاق تنفيذ هذه الخطة، لكنه الآن وبعد أن أدت انتصاراته في الشمال إلى تحقيق التوازن العسكري مع خصومه بدأ يلتفت إلى تنفيذها.

كانت لدمشق أهمية استراتيجية يحسب حسابها في خطط المواجهة مع الفرنجة. فبالإضافة إلى ملامستها حدود دولة الفرنجة، وقربها من القدس قلب مملكة اللاتين ومقر ملكها، فقد كانت البوابة التي تشرع إلى النصف الغربي من العالم الإسلامي، مصر وشمال إفريقيا، وكذلك الجسر لعبور الحجاج من بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى إلى مكة في الحجاز. ومما زاد في أهمية دمشق ذلك التوازن بين المسلمين



LAU LIBRARY BEIRUT

والفرنجة في أعقاب المواجهة الناجحة لزنكي في الشمال - فأصبح موقف دمشق مرجحاً في أي صراع مستقبلي قد يحدث.

كانت النخب ذات التأثير الفاعل في القرار السياسي في دمشق تدرك مصادر قوة دمشق في مناخ التوازن القائم بين قطبي الصراع، زنكي ومملكة بيت المقدس. وكانت هذه النخب المكونة من أبناء الأسرة الحاكمة وأمرائها، ومن القادة العسكريين، ومن كبار التجار وأصحاب الإقطاعات الزراعية الكبرى، حريصة على إبقاء هذا التوازن قائماً من أجل الحفاظ على مصالحها، لأن أي اضطراب فيه سيفقدها أسباب القوة والاستمرار. وهذا ما جعل حاكم دمشق، الأتابك أُنُر مملوك طغتكين، بعد أن بدأ عماد الدين زنكي يمارس ضغطاً عسكرياً على دمشق منذ سنة ١١٣٠ يلجأ إلى اللعب بورقة الفرنجة. وكانت سياسة التحالفات مع الفرنجة هي أكثر الوسائل نجاعة لإفشال محاولة زنكي لاحتواء دمشق وإنهاء حكم الأسرة السلجوقية الحاكمة فيها. وأثبتت هذه السياسة نجاحها في إطالة عمر الأسرة السلجوقية في دمشق مدة ربع قرن، كانت دمشق خلالها في حالة تحالف أو تفاهم أو مهادنة على الأقل مع الفرنجة. ولم تخرج العلاقات المتبادلة بين الطرفين عن هذا النمط إلاّ في مرحلة قصيرة عابرة في إبان الأزمة التي أحدثتها الحملة الصليبية الثانية التي استهدفت مدينة دمشق.[٤٠]

لم يردع موقف دمشق المعروف جيداً لعماد الدين زنكي عن مباشرته سياسة الاحتواء التي انتهجها تجاهها. وكان كسب أول جولاته ضد دمشق حين أجبر حكامها على التنازل عن مدينة حمص عشية الغزو البيزنطي لبلاد الشام سنة ١١٣٨. وما إن انسحب البيزنطيون بعد فشلهم في حصار حلب وبعض نواحيها حتى استأنف زنكي سياسته التوسعية، فهاجم مدينة بعلبك في السنة نفسها، وكانت جزءاً من إقطاع الأتابك أُنُر، وتسلم قلعتها بالأمان. لكنه لم يفِ بالوعد الذي قطعه لأمير القلعة وجنوده وأمر بإعدامهم جميعاً، وعيّن أحد قادته، نجم الدين أيوب، والياً على المدينة. وبعد استيلاء زنكي على بعلبك توجه لحصار دمشق. ولمّا أيقن الأتابك أُنُر أن لا طاقة له بمواجهة الحصار طلب العون من حلفاء دمشق القدامى، فرنجة مملكة القدس اللاتينية، وتعهد بأن يسلمهم قلعة بانياس ومبلغاً من المال يؤدى لهم عند توقيع الاتفاق.[٤١] وانتهت محاولة زنكي لإخضاع دمشق من دون أن تحقق أهدافها، ففك حصاره عن المدينة وتوجه نحو الشمال.



## سقوط إمارة الرها الفرنجية

أدى توازن القوى المتذبذب بين الزنكيين والفرنجة في أعقاب التدخل البيزنطي سنة ١١٣٨ إلى نوع من الهدوء الحذر الذي ساد الجبهة الشمالية. ولم يشأ أي من الطرفين الاشتباك المسلح مع الطرف الآخر خوفاً من استغلال الإمبراطور البيزنطي انشغال خصميه بحرب تصرف كلاً منهما عن التصدي لطموحاته في بلاد الشام التي يقتسم العرب والفرنجة النفوذ عليها. وكانت مخاوف الفرنجة من طموحات البيزنطيين محكومة بارتباطات قانونية بعد الاتفاقية التي عقدها حاكم أنطاكية مع الإمبراطور البيزنطي الراحل، والتي لم يعد الأول بعدها سوى تابع للإمبراطور يحكم إمارة أنطاكية بالنيابة عن سيده.

كانت الرها الإمارة الفرنجية الأولى التي أنشئت في الشرق، وذلك قبل أن يتوغل الغزاة في بلاد الشام وقبل أن يستولوا على أنطاكية. وعلى عكس الإمارات الفرنجية التي أنشئت على الأرض العربية، كانت الرها خالية من المستوطنات الفرنجية، وظل الوجود الفرنجي فيها مقصوراً على عدد محدود من الحكام والإداريين. كما أن جيش الإمارة خلا من العناصر الأوروبية، وكان في أغلبيته العظمى مكوناً من العساكر المحليين، الأرمن والسريان أبناء البلد الأصليين. وخلال الأعوام الخمسين منذ إنشاء الإمارة تراجعت أعداد السكان إلى درجة كبيرة بسبب سوء الأحوال الاقتصادية المتفاقمة، وبسبب تعرض البلاد لغارات متتالية من جانب العناصر القبلية التركية التي كانت تطغى على هذه المنطقة. ولوقوع الرها في منطقة الجزيرة (بين مجرى الفرات ودجلة) أولاً، وبسبب وقوعها على الطريق بين الموصل وحلب ثانياً، كانت تتعرض باستمرار لضغوط عسكرية إسلامية، الأمر الذي أدى إلى نزوح كثيرين من أهلها اتقاء لخطر الحروب. وفوق ذلك كله فإن الرها كانت بمثابة الخندق المتقدم للفرنجة، فكان جناحها الشرقي هو نقطة الضعف التي تعاني جرّاءها عسكرياً، بينما كان في جناحها الغربي على الضفة المقابلة لنهر الفرات الركيزة العسكرية التي يمكن الركون إليها في الدفاع عن الإمارة، وخصوصاً الحصن القوي في تل باشر.[٤٢]

كان الأمير عماد الدين زنكي على علم بهذه المعطيات العسكرية التي اعتبرها عوامل مساعدة في تحقيق هدفه غير المعلن باحتلال إمارة الرها، لكنه كان ينتظر الفرصة المؤاتية للانقضاض عليها، لا بصفته قائداً عسكرياً فحسب، بل أيضاً بصفته سياسياً ورجل دولة؛ فالمعطيات العسكرية وحدها لا تضمن نجاح عملية كهذه إن لم يكن يردفها وضع سياسي مريح. رأى زنكي أن اللحظة التي كان ينتظرها حانت؛ فموت الإمبراطور البيزنطي المفاجئ متأثراً بالجروح التي أصابته في أثناء رحلة صيد



LAU LIBRARY BEIRUT

في شتاء العام الماضي، أشغل ولي عهده الذي عاد مسرعاً ومعه جيشه إلى القسطنطينية للتحضير لاعتلاء العرش وترتيب أمور ولاية العهد (وكان الإمبراطور المتوفى يعد العدة لمسيرة حاشدة إلى مدينة القدس بنية أداء فريضة الحج). وكان الخلاف بين جوسلين الثاني، حاكم الرها، وبين ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، وصل إلى حد القطيعة. أمّا ملك مملكة القدس اللاتينية، حليف الأتابك أُنُر، أمير دمشق، فقد لاقى حتفه هو الآخر في تشرين الثاني/نوفمبر ١١٤٣، تاركاً العرش بوصاية زوجته مليسند (Melisende)، أم ولده القاصر بلدوين الثالث، التي لم تكن متحمسة للقيام بمغامرات عسكرية في هذا الوضع. وأمّا أمير دمشق فلم يكن قادراً على شن حرب ضد زنكي من دون دعم حلفائه فرنجة القدس.

في خريف سنة ١١٤٤ خرج زنكي من الموصل، وهاجم أراضي الزعيم الأرتقي قَرَّة أرسلان، أمير ديار بكر، الذي تحالف مع جوسلين الثاني أمير الرها. كانت هذه حركة يقصد بها زنكي التمويه، وذلك لإيهام جوسلين الثاني بأنه لا يستهدف الرها. انطلت الحيلة على جوسلين، وفي خطوة عملية لدعم حليفه الأرتقي خرج من الرها مع جيشه إلى تل باشر في محاولة لقطع الاتصالات وخطوط الإمدادات بين زنكي الذي يحارب في ديار بكر وبين حلب. وفي هذه الأثناء استطاع زنكي أن يخضع عدداً من الحصون التي كانت في يد الأراتقة، وبعض الحصون التي كانت في أيدي الفرنجة. ولمّا بُلِّغ بحركة جوسلين وخروجه من الرها، أرسل كتيبة من جيشه على جناح السرعة لتحاصر الرها على أن يلحق بها الجيش الرئيسي فيما بعد. لكن قائد الكتيبة التي أُرسلت ضل طريقه بسبب المطر وعتمة الليل ولم يهتد إليها إلاّ بعد أن وصل زنكي إلى المدينة وحاصرها. حوصرت الرها أربعة أسابيع، ولم يستطع المدافعون عنها الصمود أكثر من ذلك، إذ أحدث المهاجمون المسلمون ثلمة في السور اقتحموا المدينة من خلالها، وبدأوا بارتكاب مذبحة في المدافعين الذين حاولوا الاحتماء بالقلعة من دون جدوى بعد أن أُغلقت أبوابها. لم تتوقف هذه المذبحة إلاّ بعد أن تدخل زنكي وأمر بإيقافها بعد مقتل عدة آلاف. ثم استسلمت الحامية التي كانت أغلقت على نفسها أبواب القلعة ليتم بذلك سقوط هذه الإمارة في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١١٤٤. لم يشأ زنكي أن تخرّب مدينة الرها، ولذلك أمر بإعادة ما نهبه جنوده من أموالها وأملاكها إلى أصحابها، وحاول أن يعامل برفق الطوائف المسيحية في المدينة، وهي من الأرمن والسريان واليونان الأورثوذكس، لكنه لم يبدِ تسامحاً تجاه الكنيسة اللاتينية وممثليها على اعتبار أنها تابعة للغزاة الفرنجة.

بعد عام ونصف عام من سقوط الرها (أيار/مايو ١١٤٦)، حاول سكانها التمرد على قائد الحامية الزنكية المرابطة في المدينة، فأمر زنكي هذه المرة بإجلاء الأرمن



وقتل المشاركين في التمرد. وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة، استطاع جوسلين الثاني أن يقتحم المدينة بعد أن رتب تمرداً مع أهلها الأرمن، لكن سرعة تحرك نور الدين زنكي، الذي ورث الحكم بعد موت أبيه، وضعت حداً لهذا التمرد. أراد عماد الدين زنكي بعد سقوط الرها أن يطهر منطقة الجزيرة من الوجود الفرنجي، فاحتل سروج التي تأتي في المكان الثاني بعد الرها، لكنه لم يستطع أخذ قلعة البيرة، فتوجه لحصار قلعة جَعْبَر حيث اغتاله أحد عبيده وهو نائم في فراشه في منتصف أيلول/سبتمبر ١١٤٦، عندما كان يقود عملية الحصار.[٤٣]

## نور الدين زنكي ومسيرة التحرير

استبشر خصوم الدولة الزنكية خيراً بالرحيل المفاجئ لمؤسسها عماد الدين زنكي. فقد حسب هؤلاء أن الصراع الحتمي، الذي ينجم عادة عن موت القادة المؤسسين، سيقود لامحالة إلى إطاحة دولة الزنكيين الفتية، ويزيلها من الوجود. بدت بشائر مثل هذا الصراع أول وهلة عندما ترك ابنا عماد الدين وارثاه ساحة المعركة في عجل، قبل أن يوارى جثمان أبيهما الثرى. فذهب الابن البكر سيف الدين غازي ومعه لفيف من مستشاري أبيه وقادته إلى الموصل، حيث استقر على كرسي الإمارة، بينما توجه أخوه الأصغر نور الدين محمود مصحوباً بمجموعة أُخرى من القادة والمستشارين إلى مدينة حلب ليتولى هو الآخر منصب الإمارة فيها.

كان تقسيم مملكة زنكي على هذا النحو محفزاً حرك خصوم الزنكيين للعمل. ففي الجنوب تحركت قوات أمير دمشق، الأتابك أُنُر، واستعادت بعلبك التي سبق أن انتزعها زنكي وأخضعها لسيطرته، ثم بسطت نفوذها بعد ذلك على إمارتي حمص وحماة وحولتهما إلى إمارتين تابعتين. أمّا في الشرق، فقد حاول الأمير ألب أرسلان ابن السلطان السلجوقي، وربيب الأمير المغدور عماد الدين (كان أتابكاً له)، أن يستولي على السلطة في الموصل، لكنه أخفق في هذا المسعى بسبب السرعة التي تحرك فيها سيف الدين غازي، وقام بخطوات احترازية قضت على هذه المحاولة في المهد. وفي منطقة الجزيرة نجح الأمراء الأراتقة في استعادة بعض المدن والحصون التي فقدوها عندما اجتاحها زنكي عشية استيلائه على مدينة الرها. وعلى خط المواجهة مع الفرنجة قاد ريموند، أمير أنطاكية، هجوماً وصل إلى أسوار مدينة حلب، وتزامن مع خطة وضعها الأمير جوسلين الثاني لاسترداد مدينة الرها، ولذلك قام بالتنسيق مع أهلها الأرمن والسريان للتمرد على الحامية الإسلامية التي تقيم بالمدينة ساعة وصول جوسلين. وفي ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١١٤٦، وصل جوسلين بجيشه إلى الرها



LAU LIBRARY
BEIRUT

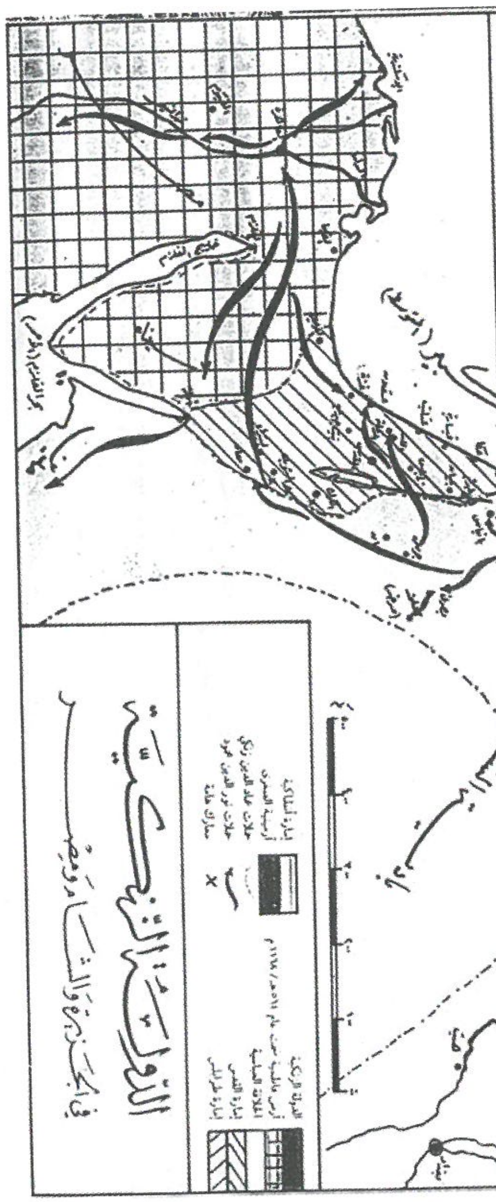



LAU LIBRARY
BEIRUT

يدعمه بعض قوات الأمراء الفرنجة. وبمساعدة قادة التمرد اقتحم المدينة، لكن صمود الحامية الإسلامية في القلعة منعه من تعزيز قبضته على المدينة. وخلال أقل من أسبوع وصل نور الدين على رأس جيشه لإنقاذ المدينة بعد أن أوقف الهجوم الذي كانت تشنه قواته ضد جيش أنطاكية. وأصبح جوسلين وقواته محصورين بين نور الدين والمدافعين عن القلعة، ولم يتبق له من خيار إلاّ الخروج من المدينة للنجاة من فكي الكماشة. فتسلل تحت جنح الظلام هارباً من داخل الأسوار، وخرجت معه جموع غفيرة من الأرمن. تتبعه نور الدين وضيق عليه المنافذ حتى اضطره إلى الاشتباك مع جيش المسلمين الذي مزق القوات الفرنجية شر ممزق. فقُتل عدد من كبار القادة، وأصيب جوسلين بجروح، وفر مع حرسه الشخصي نجاة بنفسه. أمّا الأرمن الذين تخلى عنهم الفرنجة فتعرضوا لمجزرة قضت على رجالهم، وسُبيت نساؤهم وأطفالهم ليباعوا عبيداً في أسواق المسلمين. وأمّا من تبقى من أرمن الرها في قيد الحياة فقد أُجلوا عن المدينة التي صارت مدينة خاوية، ولم تعد إلى ما كانت عليه من قبل.[٤٤]

أثبت تطور الأحداث السياسية التي أعقبت مقتل عماد الدين زنكي ضآلة الآمال التي علقها الخصوم على مصرعه. فابناه سيف الدين غازي ونور الدين محمود اللذان اقتسما مملكته كانا من الحصافة وبعد النظر أنهما لم ينزلقا إلى محاربة أحدهما للآخر من أجل الميراث، واكتفى كل منهما بما ناله، وانصرف إلى إدارة شؤون إمارته ومعالجة همومها. وأكثر من ذلك، فقد بادر الابن البكر سيف الدين غازي، أمير الموصل، إلى عقد مؤتمر مصالحة مع أخيه نور الدين، أمير حلب، اتفق فيه على اعتبار التقسيم العفوي الذي حدث بعد اغتيال أبيهما قسمة شرعية. وبالنسبة إلى نور الدين الذي تقع مملكته على خط المواجهة الساخن مع الفرنجة، كانت المكاسب العسكرية الباهرة التي أحرزها ضد الفرنجة، إنْ في التصدي لمحاولة ريموند، أمير أنطاكية، مهاجمة حلب، ثم الهجوم المضاد الذي شنه بعد ذلك، وإنْ في إحباطه التمرد الذي تفجر في الرها بالتنسيق مع جوسلين الثاني، قد زادت في مكانته وأكسبته مهابة تضاهي تلك التي كان يتمتع بها أبوه قبل مقتله. ثم تعززت مكانته السياسية عندما تفجرت الأزمة بين أكبر خصمين له، مملكة القدس اللاتينية وإمارة دمشق، وما ترتب على تلك الأزمة من نتائج.

## دمشق بين نور الدين والفرنجة

بعد أن اتضح لحكام دمشق المسلمين النهج الجهادي الذي اتبعه نور الدين زنكي اقتفاء لخطى أبيه، عادوا إلى سياستهم التقليدية في المناورة بين الزنكيين وفرنجة

المملكة اللاتينية. فكانوا يستخدمون ورقة الفرنجة يلوحون بها عندما يهددهم الزنكيون، ثم لا يلبثون أن يطرحوا هذه الورقة ويرفعوا ورقة الزنكيين إذا ما لاح في الأفق خطر يتهددهم. وظلت هذه اللعبة السياسية الركيزة التي أطالت عمر الأسرة الحاكمة في إمارة دمشق طوال ما يقرب من نصف قرن، قبل أن يتم ضم الإمارة إلى الزنكيين وتصبح جزءاً من دولة آل زنكي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م. وكما استثمرت دمشق علاقتها بفرنجة القدس في التصدي للطموحات الزنكية، كانت مملكة اللاتين ترى في بقاء هذه الإمارة حاجزاً بينها وبين الزنكيين في حلب الضمان لسلامة أراضيها وحماية أمنها. لكن هذا النمط من العلاقة بين الطرفين لم يكن دائماً على وتيرة ثابتة، فكانت تتعرض بين الحين والآخر لأزمات قد تتطور إلى مواجهات عسكرية بينهما.

في أوائل سنة ١١٤٧ حدثت أزمة من هذا القبيل، عندما انشق حاكم بصرى وصلخد (أو صَرخد) وأعلن تمرده على طاعة أمير دمشق. كان هذا الحاكم المنشق أحد قادة الأمير أُنُر، واسمه ألتُنتاش. ولمّا أعلن استقلاله قدم إلى مدينة القدس طالباً دعم مملكة الفرنجة في مقابل إعلانه الولاء للملكة مليسند وتسليمها البلد.

أحدث هذا العرض الذي طرحه ألتنتاش ردات فعل متضاربة لدى الأوساط الحاكمة في مملكة القدس. فقبول هذا العرض كان يعني فسخ الحلف مع دمشق وإحداث القطيعة بين الطرفين. لكن، في المقابل، كان سيسهل على الفرنجة إنشاء مستعمرة فرنجية في منطقة حوران يكون في قدرتها، إذا ما استعانت بأهل المنطقة المسيحيين، أن تشكل تهديداً مباشراً لدمشق وتضعها تحت رحمة الفرنجة. وبالتالي، استقر الرأي على قبول العرض، وشرع الفرنجة في إعداد الجيش وحشده في طبرية استعداداً لغزو حوران. ولم تجدِ محاولات أُنُر أمير دمشق لإقناع الفرنجة بالعدول عن قرارهم، فأخذ يستعد لمواجهة الموقف. ومن أجل ذلك أرسل وفداً إلى نور الدين زنكي في حلب يطلب منه المعونة، فرحب الأخير بالفكرة، وتم عقد تحالف دمشقي حلبي ضد الفرنجة. وعلى هامش هذا التحالف طلب نور الدين يد كريمة أُنُر، فعقد قرانها في دمشق وحملت إلى بيت الزوجية في حلب. ووصلت قوات الدعم التي أرسلها نور الدين إلى حوران والتقت بقوات أُنُر وسيطرت على الوضع قبل أن يتمكن جيش الفرنجة من الوصول، الأمر الذي اضطره إلى الانسحاب تحت وقع سيوف المسلمين.[٤٥]

تمخضت المغامرة النزقة التي ارتكبها الفرنجة في منطقة حوران عن حدوث شرخ في العلاقات بين الحليفين التقليديين، حاول معين الدين أُنُر رأبه حتى قبل أن يخمد غبار المعركة، حين عرض على جيش الفرنجة المنسحب إسعافه بالزاد والماء، بل حين أصدر إلى عسكره أوامر بألاّ يبطشوا بعدوهم الهارب، وبأن يسهلوا عليه



طريق انسحابه.[٤٦] وكان أُنُر يهدف من وراء ذلك إلى إبقاء خطوط الاتصال بالفرنجة سالكة، لأنه كان يخشى القوة المتصاعدة لنور الدين زنكي، ويريد أن يبقي على الفرنجة كحليف مستقبلي لا غنى عنه لمواجهة طموح نور الدين في إمارته.

كان نور الدين هو المستفيد الوحيد من هذه المغامرة الفرنجية. فالاتفاقية التي عقدها مع أُنُر أمير دمشق منحته هامشاً فسيحاً من حرية الحركة ضد الفرنجة على جبهتي حلب - أنطاكية وحلب - الرها، بعد أن ضمنت هذه الاتفاقية موقفاً ودياً من جانب دمشق، فما كادت المعركة تنتهي حتى عاد بقواته مسرعاً إلى حلب ليشرع في تطهير الضفة الشرقية لنهر العاصي من حصون الفرنجة ومواقعهم. وبالإضافة إلى هذا ظهر نور الدين في أعين المسلمين على أنه بطل التحرير الذي يعوّل عليه، وسنرى كيف نجح نور الدين في استثمار هذه السمعة التي تفشت بين عامة مسلمي بلاد الشام عندما خطط للاستيلاء على إمارة دمشق.

## دمشق واستمرار الضغط الفرنجي

بعد سقوط إمارة الرها في يد الزنكيين، ونتيجة العجز الفرنجي عن استردادها، بادرت الملكة مليسند، ملكة القدس، بالتنسيق مع ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، إلى إرسال وفد إلى البابا في روما يستحثه على تجهيز حملة صليبية إلى المشرق من أجل استعادة الرها وإنقاذ الوجود الفرنجي. واختير لهذه الغاية أسقف مدينة جبيل لينقل الرسالة إلى الحبر الأعظم. كما بعث أمير أنطاكية وفداً آخر إلى ملك فرنسا. وخرج وفد ثالث يمثل أبناء الطائفة الأرمنية، التي تعرض رعاياها في الرها لمجزرة رهيبة، وتوجه أيضاً إلى البلاط البابوي. استجاب البابا لنداء رعايا فرنجة المشرق، وأرسل مبعوثيه إلى ملوك أوروبا وأمرائها لحثهم على تلبية نداء الواجب المقدس. وبعد عامين من وصول مبعوث مملكة القدس خرج جيش ألماني يقوده الإمبراطور كونراد الثالث في ربيع سنة ١١٤٧، وتلاه بعد شهرين، في حزيران/يونيو، جيش فرنسي بقيادة الملك لويس السابع. واختار قادة هذه الحملة المسار نفسه الذي سارت عليه الحملة الصليبية الأولى عبر بلاد البلقان إلى القسطنطينية للوصول إلى بلاد الشام. وكان من نتيجة ذلك تعرّض القوات الألمانية لما يشبه الإبادة على أيدي المسلمين السلاجقة في آسيا الصغرى والأناضول، ولم يتمكن إلاّ عدد قليل من الجنود الألمان من الوصول سالماً إلى موانئ فلسطين في ربيع سنة ١١٤٨. فأدى ذلك إلى وضع الإمبراطور الألماني في دائرة الظل، وانتقل مركز الثقل إلى ملك فرنسا، لويس السابع، لأنه تجنب الكارثة التي حلت بالألمان.



LAU LIBRARY BEIRUT

بوصول الملك الفرنسي إلى أنطاكية بدا أول وهلة أن الآمال المعقودة على هذه الحملة بإنقاذ الرها من قبضة نور الدين زنكي على وشك التحقيق. وكان من المفروض أن تشكل إمارة أنطاكية قاعدة تنطلق منها العمليات العسكرية. لكن أميرها اشترط، لاشتراكه في تحرير الرها، أن يبدأ الفرنجة بالهجوم على حلب. فهي قاعدة نور الدين زنكي وسقوطها يؤدي بالضرورة إلى إنقاذ الرها. واتفق رأيه في هذا الصدد مع رأي أمير طرابلس، وكان الطرفان يحرصان على احتلال حلب لأنها تشكل تهديداً مباشراً لمصالح الإمارتين. وبينما بدا أن الأمور سائرة في هذا الاتجاه حدث تحول مفاجئ في مجرى الأحداث؛ ففي إحدى الليالي، ولم يكن مضى على وصول الملك الفرنسي إلاّ أيام قليلة، غادر لويس السابع أنطاكية من دون علم أحد، ومن دون أن يودع مضيفه الأمير ريموند بواتييه، وتوجه نحو مدينة القدس. كانت مغادرة الملك الفرنسي إلى القدس على هذا النحو لغزاً لم توفر المصادر أجوبة مقنعة لتفسيره، حتى إن الذرائع التي نقلت على لسان الملك عن سبب رحيله عن أنطاكية لم يكن فيها من المنطق ما يزيل حيرة المؤرخين. وهذا ما فسح المجال لرواج شائعة تتحدث عن علاقة عاطفية مشبوهة بين أمير أنطاكية وزوجة الملك الفرنسي، الأمر الذي حداه على مغادرة المدينة إنقاذاً لسمعته، وأجبر زوجته على مرافقته إلى القدس. وعلى الرغم من اختلاف التفسيرات بشأن هذا المسلك، فإنه من الممكن أن الملك نظر إلى ما سيسجله التاريخ عن حملته؛ فهو لم يأت إلى المشرق لينشئ لنفسه إمارة كما فعل غيره، وإنما أراد أن يسجله التاريخ كملك مسيحي جاء لخدمة الرسالة المسيحية، وأن تبقى هذه الخدمة مكرمة محفوظة في ذاكرة الأجيال. ورأى انطلاقاً من هذا الفهم أن احتلال بلد مثل حلب، أو استعادة بلد مثل الرها، لن يعني شيئاً بالنسبة إلى المواطن الأوروبي الذي تربى على القيم المسيحية وتراثها التاريخي. وأي رصيد سيكون لمثل هذا الإنجاز إذا ما قورن بأسماء البلاد التي اقترنت بتاريخ المسيحية، مثل مدينة دمشق التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس.

في ٢٤ حزيران/يونيو ١١٤٨ عقد في عكا مجلس الدولة. وحضر هذا المؤتمر، إلى جانب ملكة القدس وملكي ألمانيا وفرنسا، ممثلون عن البابا وممثلون عن نبلاء فرنسا وألمانيا وفرسان البلاد المقدسة، وغاب عنه أمير أنطاكية وأمير طرابلس. وتقرر فيه أن توجه الحملة إلى دمشق.[٤٧]

كان قرار مهاجمة دمشق ينم عن قصر نظر سياسي، إن لم يكن محض حماقة. صحيح أن احتلال دمشق لو تحقق سيكون جائزة مجزية لصليبيي الحملة الثانية، يخلب بريقها أبصار ملوك أوروبا، وصحيح من وجهة النظر الاستراتيجية أن سيطرة الفرنجة عليها سيعزل الشطر الغربي من العالم الإسلامي، مصر وشمال إفريقيا، عن الشطر



LAU LIBRARY BEIRUT

الشرقي، وبالأحرى عن مملكة الزنكيين في شمال سورية وأرض الجزيرة، لكن غاب عن ذهن أصحاب القرار في مؤتمر عكا أن إمارة دمشق كانت الأحرص بين الإمارات الإسلامية على الحفاظ على علاقات المودة بالفرنجة. وهذه حقيقة لم تكن غائبة عن زعماء الفرنجة المشرقيين الذين كانوا يدركون أن الأسرة الحاكمة في إمارة دمشق كانت ترى في نور الدين زنكي عدوها الرئيسي، ولذلك لم يكن من الحكمة الاستغناء عن صداقة دمشق قبل زوال خطر الزنكيين. إن الهجوم على دمشق كان يعني بكل بساطة دفع حكامها دفعاً إلى الارتماء في أحضان نور الدين، كما دلت الأحداث خلال الأعوام الماضية. ويبدو أن جشع بارونات مملكة القدس للسيطرة على ثروات البلاد الخصبة التابعة للإمارة من جهة، ورغبتهم في الانتقام من الهزيمة التي ذاقوا مرارتها في العام السابق من جهة أُخرى، كانا الدافع المحرك إلى اتخاذ هذا القرار.[٤٨]

انطلق جيش الفرنجة من طبرية واتجه نحو دمشق عن طريق بانياس وأرض البقاع، وبدأ الهجوم على المدينة في ٢٤ تموز/يوليو ١١٤٨. أحرز المهاجمون نجاحاً خلال الأيام الأربعة الأولى، لكنهم عدلوا خطط القتال بعد اليوم الرابع، فتركوا مواقعهم الأولى إلى مواقع جديدة، الأمر الذي عرّضهم للانتكاس. وقد ترافق ذلك مع وصول الأخبار باقتراب جيش زنكي من الموصل يقوده الأمير سيف الدين غازي، وجيش آخر من حلب يقوده نور الدين زنكي. وكان أتابك أُنُر حاكم دمشق اضطر إلى الاستنجاد بالأخوين زنكي لدفع الهجوم الفرنجي، فوافقا على تقديم العون شرط أن يتم تسليمهما قلعة المدينة ليلوذ بها عساكرهما، إذا ما اضطرهم إلى ذلك تطور سير المعركة. كان هذا الشرط، الذي اشترطه الزنكيون، يعني نهاية استقلال دمشق كإمارة لو قُيض له أن يخرج إلى حيز التنفيذ. وكان حاكم دمشق أتابك أُنُر يعرف هذا تماماً، فعاد إلى اللعب بأوراقه القديمة للتخلص من هذا المأزق، وسرّب أخبار هذا الشرط إلى الفرنجة، وبلّغهم قرب وصول الجيش الزنكي. وجد قادة الحملة أنفسهم محاصرين بين أسوار المدينة والجيش الزنكي، فارتأوا أن المخرج من هذا الفخ هو الانسحاب السريع وترك حصار دمشق. وعاد عساكر الفرنجة أدراجهم من دون أن يحرزوا شيئاً. أمّا ملوك أوروبا الذين اشتركوا في الحملة فوصلوا إلى عكا وأبحروا منها كل إلى بلده.[٤٩]

فشلت الحملة الصليبية الثانية، وذهبت الجهود الأوروبية الضخمة التي بذلت في الإعداد لها أدراج الرياح، وأزهقت أرواح الآلاف من الجنود الألمان سدى على أرض المشرق. وتلقت مملكة القدس اللاتينية هزيمة مذلة على يد حليفها الوحيد في العالم الإسلامي حاكم دمشق؛ فلا دمشق أُخذت، ولا الرها استعيدت، ولا أنطاكية أفرجت ضائقتها العسكرية. وإذا ما نجحت هذه الحملة في شيء ففي رفع شأن نور الدين، لا

فقط لأنه قام بدور حامي مدينة دمشق في نظر أهلها ونظر أهل الشام العرب عامة، بل أيضاً لأنه أثبت أنه المجاهد رقم واحد في معركة المسلمين ضد الفرنجة. وعلى خلفية هذه الهزيمة ثارت الانتقادات، وتعمقت مشاعر الشك داخل المعسكر الفرنجي، وتراوحت بين تهمتي التآمر والرشوة اللذين وجها إلى فرنجة المشرق اللاتين، وانعكس ذلك على علاقتهم بأوروبا التي أيقن زعماؤها أن الفرنجة المحليين ضحوا بمصالح المسيحية وقيمها لحساب مصالحهم المادية الفردية.(٥٠)

## فشل الحملة الصليبية الثانية
## والتطورات على الجبهة

أسفرت هزيمة الفرنجة عند أسوار دمشق عن خلق وضع جديد على ساحة الصراع. وحدث نوع من توازن القوى بينهم وبين خصومهم المسلمين على أرض الشام. فلم تعد الإمدادات الأوروبية، التي كانت عادة ترجح الكفة لمصلحة الفرنجة، قادرة على ضمان تفوقهم في ميادين القتال. وهذا ما قوى عزيمة أمراء المسلمين على مقارعة الغزاة المحتلين على امتداد جبهة المواجهة، من جبال طوروس في أقصى الشمال حتى غور الأردن في الجنوب. ففي الجبهة الجنوبية بادر معين الدين أُنُر، أمير دمشق، إلى شن الغارات على حدود مملكة القدس في غور الأردن، وأطلق في الوقت نفسه العنان للقبائل العربية والتركمانية في الإغارة على أملاك الفرنجة. وظل أنر يواصل هذا الضغط العسكري حتى أجبر ملك الفرنجة على عقد هدنة، في مطلع سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، لمدة عامين. وربما كان أُنر يسعى فعلاً للوصول إلى هذه الاتفاقية مع فرنجة القدس عندما بادر إلى نشاطه العسكري لأنه، على الرغم من كل ما جرى، كان يرى فيهم الحليف الوحيد ضد طموح نور الدين إلى السيطرة على دمشق. فنور الدين مع أنه تفرغ لمهاجمة الفرنجة في أنطاكية بعد فشل حصار دمشق، إلاّ إنه لم يتخل عن هدفه الاستراتيجي في الاستيلاء عليها.

توفي معين الدين أُنر بعد ثلاثة أشهر فقط من عقده الاتفاقية مع الفرنجة. وتولى إمارة دمشق الأمير مجير الدين أبق، حفيد طغتكين، وكان الأتابك أنر يتولى الحكم باسمه. وقد أتاحت الصراعات الداخلية التي تفجرت في دمشق عشية موت أُنر، إضافة إلى الشخصية الضعيفة التي تميز بها أبق الأمير الجديد، الفرصة أمام نور الدين لتنفيذ خطته المتعلقة بضم دمشق إلى مملكته. إلاّ إن موت أخيه سيف الدين غازي، أمير الموصل، في تشرين الثاني/نوفمبر ١١٤٩، صرفه عن مباشرة التنفيذ، ولم يتحرك إلاّ في ربيع العام التالي، فتقدم بقواته نحو دمشق، لكن الأمطار الغزيرة التي



هطلت أعاقت تقدمه نحوها، فأصبح لدى الأمير مجير الدين أبق متسع من الوقت للاتصال بحلفائه الفرنجة طالباً مساعدتهم. عند ذلك قرر نور الدين العودة إلى حلب، لكن ليس قبل أن ينتزع وعداً من أبق يعترف بموجبه بتبعيته له، إذ أُدرج اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، كما نقش اسمه على العملة في دمشق. وبعد أقل من عام على هذه الحملة ظهر جيش نور الدين مرة أُخرى أمام أسوار دمشق، وأقام معسكره هناك. ومرة أُخرى استُنفر فرنجة القدس لإنقاذ المدينة من نور الدين زنكي، الذي تراجع واتجه نحو بعلبك. وتقدم جيش الفرنجة نحو دمشق، حيث خرج مجير الدين أبق إلى معسكرهم والتقى الملك بلدوين الثالث، وسمح لعساكرهم بدخول دمشق والتجول في شوارعها وأسواقها. وعلى الرغم من أن حضور الفرنجة سبّب رحيل نور الدين عن المدينة فإنه لم يكن في وسع الحليفين مهاجمة جيشه عند بعلبك، وبدلاً من ذلك توجهت القوات المشتركة نحو بصرى لإخضاع حاكمها الذي تمرد على سلطة دمشق. لكن هذا الأمير سرعان ما غيّر ولاءه وتحول إلى موالاة الفرنجة، الأمر الذي دعا مجير الدين إلى الاستنجاد بنور الدين زنكي ليعيد هذا الأمير المنشق إلى الطاعة. وعندما غادر نور الدين المنطقة وعاد إلى حلب قام مجير الدين أبق بزيارته، ووقّع معه معاهدة صداقة. ومع ذلك لم يشأ أمير دمشق التخلي عن محالفته للفرنجة، وكان حريصاً على تأكيد صداقته ووفائه لهم.(٥١)

## سقوط مدينة عسقلان

بعد الضربات المتتالية التي تلقاها الفرنجة منذ سقوط مدينة الرها، والتي تمثلت في سقوط ما تبقى من أراضي هذه الإمارة في يد نور الدين وحلفائه سلاجقة الروم، وبعد النكوص الذي أصابهم على جبهتي أنطاكية وطرابلس، حيث فقدوا عدداً من الحصون والبلاد ولم يبق لهم موطئ قدم شرقي نهر العاصي، ثم ما رافق ذلك من سقوط أمير أنطاكية قتيلاً في حربه ضد نور الدين، واغتيال أمير طرابلس على يد أحد فدائيي الباطنية، ووقوع أمير الرها جوسلين الثاني في أسر زنكي، تحولت أنظار الفرنجة إلى الجبهة الإسلامية الجنوبية، أي إلى مصر. كانت مصر الفاطمية في الأعوام الأخيرة قد غرقت في دوامة من الصراعات الداخلية التي أخرجتها من حلبة الصراع الدائر بين المسلمين والفرنجة على أرض بلاد الشام. وبعد أن كانت فقدت كل المدن الساحلية على شواطئ فلسطين ولبنان، مثل يافا، وأرسوف، وقيسارية، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وطرابلس، في العقود المبكرة من القرن الثاني عشر، لم يبق في حيازتها إلاّ مدينة عسقلان الفلسطينية. وبسبب ما كانت تعانيه قواتها



LAU LIBRARY
BEIRUT

البرية جرّاء ضعف عسكري، انقطعت الطرق البرية بينها وبين عسقلان، ولم يعد هناك وسيلة للاتصال بهذا الميناء إلاّ البحر. فكانت تخرج سفن الأسطول المصري مرتين في العام لتنقل المؤن والذخائر والمقاتلين إلى هذه المدينة شبه المحاصرة. كانت مدينة عسقلان والقطاع الساحلي الضيق اللذان يسيطر عليهما الحكام الفاطميون مصدر قلق دائم للفرنجة، ومن أجل ذلك أنشأت المملكة الفرنجية في القدس سلسلة من الحصون في جنوب فلسطين تحسباً لمخاطر إحياء الجبهة المصرية. ولمّا تفاقمت الصراعات الداخلية في مصر في أواخر سنة ١١٤٩، قرر ملك اللاتين الشاب، بلدوين الثالث، بعد أن نجح في إقصاء أمه مَليسند عن العرش وأنهى وصايتها عليه، أن يرمم خرائب مدينة غزة وينشئ عليها حصناً يفصل مدينة عسقلان عن حدود مصر. شعر حكام مصر بالخطر الناجم عن إنشاء هذا الحصن، لأن قربه من أراضيها يشكل تهديداً لهم. لكن مصر في ذلك الوقت لم تكن قادرة على التصدي لجيوش الفرنجة وحدها. فبعث الوزير الفاطمي، ابن السلاّر، أسامة بن منقذ، أحد أمراء أسرة آل منقذ أمراء شيزر، سفيراً إلى نور الدين زنكي لحمله على مهاجمة الفرنجة في شمال فلسطين كي يتسنى للجيش المصري المهاجمة عبر الحدود الجنوبية لتدمير تحصينات الفرنجة في منطقة غزة، إذا ما انشغلت قواتهم في الشمال بتصديها لهجوم نور الدين زنكي. لكن اقتراح ابن السلاّر لم يلق آذاناً صاغية عند نور الدين الذي كان مشغولاً آنذاك بخططه للسيطرة على دمشق. وفي غمرة استعدادات الوزير ابن السلاّر لمواجهة خطر الفرنجة، أقدم ربيبه الأمير عباس بن تميم على اغتياله، واستولى على الوزارة. وعقب ذلك لفّت مصر موجة جديدة من الاضطراب السياسي والفتنة الداخلية. استغل الفرنجة هذا الوضع وضربوا حصاراً شاملاً على مدينة عسقلان استمر سبعة أشهر حاول خلالها الأسطول المصري إنقاذ المدينة من دون جدوى، فاستسلمت المدينة في آب/أغسطس ١١٥٣، وخرج أهلها بالأمان لاجئين إلى مصر.[٥٢]

بسقوط عسقلان الذي تأخر أكثر من نصف قرن بعد استيلاء الفرنجة على مدينة القدس، استكملوا احتلال كل بقعة من أرض فلسطين. لكن هذا الحدث على أهميته، كونه آخر انتصارات الصليبيين المثيرة على المسلمين، لم يسفر عن مكسب جوهري يعتد به على المستوى الاستراتيجي. فعلى الرغم من أن عسقلان كانت تستخدم منذ الاحتلال الفرنجي للبلاد رأس جسر تنطلق منه الغارات الإسلامية على أراضي مملكة القدس اللاتينية، فإن مصر الفاطمية لم تعد تشكل تهديداً جدياً لمملكة الصليبيين منذ عدة عقود سبقت احتلالهم عسقلان. أمّا الآن، وقد سيطر الفرنجة على هذه المدينة فإن هذا الأمر سيصبح عامل إغراء قد يدفعهم إلى مغامرات خطرة داخل أرض مصر. وربما كان هذا الرأي هو الذي حدا نور الدين زنكي على عدم التدخل لمنع استيلاء



الفرنجة على المدينة، إذ لم يتعدّ الدور الذي قام به تلك التظاهرة العسكرية التي اشترك فيها مع مجير الدين أبق، حاكم دمشق، بنية مهاجمة بانياس من أجل تخفيف ضغط الفرنجة على عسقلان المحاصرة، الأمر الذي لم يسفر عن أي شيء، إذ سرعان ما تفرقت قوات الطرفين، ولم تقم بهذا الهجوم المنوي شنه.

لقد كان من مصلحة نور الدين، الذي أظهر قدراً كبيراً من بعد النظر السياسي في إبان هذه الأزمة، أن تضعف الدولة الفاطمية أكثر فأكثر. وكان من مصلحته أيضاً أن يتجه اهتمام الفرنجة نحو الجبهة المصرية بعد أن كان منصباً قبل ذلك على جبهة فلسطين وبلاد الشام.

أمّا مجير الدين أبق، حاكم دمشق، فأصبح بعد سقوط عسقلان أكثر عرضة لابتزاز الفرنجة، وأقل قدرة على رفض إملاءاتهم. وكي يدفع عن نفسه وعن إمارته أذاهم ويخفف مضايقاتهم وافق على دفع إتاوة مالية سنوية لهم، وصار ممثلوهم يدخلون المدينة لاستيفاء هذا المال المقرر وجبايته من أهلها. ثم تمادى في خضوعه للفرنجة، ووافق على طلبهم أن يخيّر أرقاء الفرنجة، الذين كانوا أسروا واسترقوا وامتلكهم المسلمون في الأعوام السابقة، بين البقاء عند أسيادهم وملاّكهم وبين العودة إلى أوطانهم الأصلية. كان ذلك كله نكاية بنور الدين زنكي واحتماء بالفرنجة لمنع سيطرة الأول على دمشق.[٥٣]

## استيلاء نور الدين زنكي على دمشق

بعد سقوط عسقلان ازداد حرص نور الدين زنكي على امتلاك مدينة دمشق، لأنه كان يدرك أن حكامها هم الذين أفشلوا سعيه لإنقاذ عسقلان ومنع الفرنجة من احتلالها. ورأى أن الفرنجة يطمحون إلى أخذ دمشق بعد أن تكشفت نياتهم عن طريق الإجراءات المذلة التي مارسوها ضد استقلالية هذه الإمارة؛ إنْ في فرض الإتاوة المالية السنوية على أهلها، وإنْ في خطوتهم غير المسبوقة المتعلقة بفرض حرية الاختيار للأرقاء من الأصول المسيحية بين منحهم الحق في البقاء في دمشق وبين مغادرتها إذا ما شاؤوا ذلك. وعمد نور الدين، لتحقيق نيته الاستيلاء على دمشق، إلى رسم خطة بارعة شرع في تنفيذها. وقد أشار ابن الأثير إلى تلك الخطة بقوله: «فلما رأى نور الدين ذلك، خاف أن يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فأعمل الحيلة في أخذها حيث علم أنها لا تملك قوة لأن صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم. فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه.»[٥٤]



LAU LIBRARY BEIRUT

نجح نور الدين في كسب ثقة مجير الدين حاكم دمشق، ولذلك كان من السهل عليه أن يقنعه بأن بعض قادته وأعوانه يتآمرون عليه، وبأنهم اتصلوا به سراً، وطلبوا منه أن يعينهم على تحقيق نياتهم. وهكذا نجحت خطة نور الدين في زرع بذور الشك في نفس مجير الدين ضد هؤلاء، وأسرع في معاقبتهم والتخلص منهم. فتفرق عنه أصحابه وقادته، وكان آخرهم أكبر معاونيه عطاء السلمي الخادم الذي أنزل به مجير الدين عقوبة الإعدام. وبالإضافة إلى ذلك أدت غطرسة الفرنجة وإمعانهم في إذلال أهل دمشق إلى حقن نفوسهم بالغضب على الأسرة الحاكمة التي رضيت بهذا الهوان، فتردت منزلتها وقلت حرمتها في أعين الناس، وساهمت المجاعة التي ضربت المدينة بسبب انقطاع المواد التموينية، بعد أن أمر نور الدين بمنع دخول البضائع، في زيادة الغضب الشعبي على مجير الدين وحاشيته، وصار الإنسان في الشارع الدمشقي يتطلع إلى يوم الخلاص، ورأى في نور الدين ذاك المخلص المنتظر. وفي هذا الجو المشحون بمشاعر الغضب نشط رجال نور الدين، الذين أرسلهم نجم الدين أيوب ممثله في بعلبك، في تحريض الناس وإقناعهم بمسؤولية مجير الدين عن التردي الجاري. ثم أخذ هؤلاء الوكلاء بالاتصال بزعماء الأحياء والحارات وقادة الأحداث والزُّعار واستمالوهم إلى نور الدين. ولمّا أدرك نور الدين أن الرأي العام في دمشق بات مهيأً للتغيير، أرسل قائده أسد الدين شيركوه في سفارة إلى هناك واصطحب معه عدداً كبيراً من العساكر. وقد فُسر هذا الأمر بأنه عمل استفزازي، وهو ما دعا مجير الدين إلى عدم الخروج لاستقبال هذه السفارة، ولم يسمح لشيركوه حتى بدخول المدينة. اعتبر نور الدين أن تصرف حاكم دمشق تجاه سفيره لم يكن لائقاً، بل اعتبره إهانة لا يمكن السكوت عليها. وكان هذا الحادث الذريعة التي استند إليها نور الدين في إعلان حربه على دمشق. فزحف على رأس جيش كبير نحو المدينة وحاصرها، الأمر الذي أدى بعد وقت قصير إلى اقتحامها واحتلالها من دون كبير مقاومة في ١٨ نيسان/أبريل ١١٥٤، بعد أن لاقى كثيراً من التعاون من أهلها. عندما شعر مجير الدين باقتراب جيش نور الدين طلب النجدة من الفرنجة ووعدهم تسليم بعلبك، لكن هذا الطلب جاء متأخراً. ففر مجير الدين واحتمى بالقلعة، ثم استسلم بعد وقت قصير، ومُنح الأمان على نفسه وأهله على أن يخرج إلى مدينة حمص بعد أن منحه إياها نور الدين إقطاعاً.

استقبل أهل دمشق نور الدين بالتهليل والفرح، ورأوا في جيشه جيش تحرير لا جيش احتلال. وسرعان ما أثبت نور الدين أنه كان عند حسن ظن جماهير دمشق. فلم يكد يستقر بالمدينة حتى عمل مع أهلها مكرمة عظيمة وأفشى بينهم العدل، وأمر رجاله بتوفير المؤن والمواد الاستهلاكية التي طال انتظارها، وخفف عن كاهل الناس



أعباء الضرائب، فألغى المكوس المفروضة على المؤن والخضروات، وشدد في منع جنوده من السلب والاعتداء على أموال الناس.[٥٥]

أحدث سقوط دمشق في يد نور الدين زنكي خللاً في التوازن الاستراتيجي بين المسلمين والفرنجة. وأصبحت مملكته تمتد مذاك على طول خطوط الجبهة الشرقية لمملكة الفرنجة، من الرها في الشمال حتى غور الأردن في الجنوب. وعلى الرغم من أن مساحة مملكة الفرنجة كانت الأكبر ومواردها الأغنى والأكثر ثراء فإن الميزة التي كان يتمتع بها نور الدين لم تكن متوفرة لملوك الفرنجة. ففي حين كان نور الدين رأساً لمملكة متحدة الأطراف لا ينازعه أحد بشأن السيادة، كان ملك الفرنجة محاطاً بعدد من الأمراء المتعجرفين الذين لا يتورعون عن تحدي سلطته. مع ذلك، وعلى الرغم من إدراك نور الدين هذه الحقيقة فإنه أظهر قدراً كبيراً من الحذر في علاقته بالفرنجة، فلم يغره إنجازه الباهر في امتلاك دمشق بالقيام بخطوات متسرعة على جبهة المواجهة معهم. وعلى عكس ما كان متوقعاً، فقد عقد هدنة مع الفرنجة لعام واحد جددت عاماً آخر، كما أنه لم يلغ اتفاق مجير الدين معهم بشأن دفع الإتاوة السنوية، بل أكد هذا الالتزام وقام بدفع المبلغ على ما كان عليه.[٥٦] كان ضبط النفس الذي أبداه نور الدين تجاه الفرنجة، والذي تمثل في عقد تلك الهدنة، ناجماً عن رغبته في كسب الوقت الذي يحتاج إليه لتسوية الإشكال المتعلق بتقسيم المناطق التي سبق أن حررها بمشاركة سلاجقة الأناضول من جملة أملاك الرها.[٥٧] ولمّا أنهى مهمته في هذه الناحية أظهر نية قتال الفرنجة، وهو ما فعله سنة ١١٥٧ عندما هاجم مدينة بانياس واحتلها وحاصر قلعتها، رداً على خرق اتفاقية الهدنة التي كان عقدها مع الملك بلدوين الثالث في العام السابق. ففي شباط/فبراير ١١٥٧، أغار ملك اللاتين على مراعي المسلمين في منطقة بانياس، واقتاد ما لا يحصى عدده من الأغنام والأبقار وخيول العساكر ودواب الفلاحين بعد أن قتل الرعاة. لكن ضغط قوات الفرنجة وكثافة الهجوم الذي شنوه على بانياس وضواحي دمشق اضطرا نور الدين إلى الانسحاب إلى دمشق والتحصن فيها خوفاً من سقوطها في أيديهم. وعرض على الفرنجة تجديد الهدنة، فقبلوا هذا العرض. وفي الأعوام التالية لموقعة بانياس دخل نور الدين في مواجهات محلية مع الفرنجة في منطقة حلب في الشمال، وفي منطقتي حوران وداريا في ضاحية دمشق، حيث أحرز الفرنجة بعض الإنجازات العسكرية. وفي هذه المرحلة دخل عنصر قديم/جديد حلبة الصراع، عندما تحالف الفرنجة مع الإمبراطور البيزنطي الذي انخرط معهم في حربهم ضد نور الدين. إلاّ إن البيزنطيين سرعان ما خرجوا من ميدان المعارك بعد أن عقدوا اتفاقاً مع نور الدين.[٥٨]



LAU LIBRARY BEIRUT

## مقدمات المعركة بشأن مصر

في شباط/فبراير ١١٦٢، مات الملك بلدوين الثالث، وتُوّج أخوه أملريك (الذي تسميه المصادر العربية باسم عموري) بعد ذلك بثمانية أيام، وأصبح ملكاً لمملكة القدس اللاتينية. وبعد أن فرغ من ترتيب الأمور المتعلقة بالشؤون الداخلية للمملكة، كرّس اهتمامه للسياسة الخارجية. وكان الفوز برضى الإمبراطورية البيزنطية على رأس سلّم أولوياته. ومن أجل ذلك كان على استعداد للتضحية بإمارة أنطاكية التي كان الإمبراطور البيزنطي يسعى لضمها إلى أملاك الإمبراطورية. كان الملك أملريك (عموري) يرى أن التضحية بهذه الإمارة ثمن بخس في مقابل كسب دعم بيزنطة لطموحاته السياسية في الاستيلاء على مصر. كما كان هذا الملك الشاب يرى أن بقاء مملكة القدس اللاتينية مرهون بإعاقة توحيد البلاد الإسلامية المجاورة. لكن، بعد أن توحدت بلاد الشام بزعامة نور الدين زنكي، فإن إبقاء مصر خارج نطاق هذه الوحدة، أو على الأقل الاستمرار في موقفها المعادي لنور الدين، هو مناط آمال دولة الفرنجة، والضمان لتحقيق الحلم الصليبي.

كان التوجه المصري في السياسة الخارجية للفرنجة قد بدأ يتبلور قبل ارتقاء الملك أملريك عرش المملكة. وكان الملك بلدوين الثالث هو الذي بادر إلى هذا التوجه بعد أن فشل الفرنجة في إحداث اختراق في الجبهة السورية الشمالية، ولا سيما بعد أن ازدادت هذه الجبهة صلابة جرّاء نجاح نور الدين في كسب المعركة بشأن إمارة دمشق. ولعل ما قام به الملك بلدوين من تعزيز البنية العسكرية التحتية على حدود فلسطين مع مصر، وما أعقب ذلك من احتلال مدينة عسقلان، إنما كان تمهيداً لتنفيذ الخطة الفرنجية للاستيلاء على مصر. هدد الملك بلدوين بغزو مصر منذ وقت مبكر، سنة ١١٦٠. وباشر تنفيذ هذا التهديد فعلاً، فأرسل حملة عسكرية تقدمت إلى العريش بقيادة أخيه أملريك، أمير يافا وعسقلان آنذاك، إلاّ إن بلدوين أوقف تلك الحملة بعد أن وعده الوزير الفاطمي ابن رزيك دفع إتاوة سنوية للفرنجة مقدارها ١٦٠,٠٠٠ دينار. ولمّا تسلم أملريك عرش مملكة الفرنجة قاد حملة بنفسه إلى مصر بحجة تخلّف الدولة الفاطمية عن دفع تلك الإتاوة. ولعل في هذا ما يؤكد أن التوجه المصري في سياسة الفرنجة أيام الملك عموري لم يكن توجهاً جديداً، وإنما كان استمراراً في استراتيجيا سياسية سبق أن أرساها بلدوين الثالث قبل موته. وكان إخراج مصر من دائرة النفوذ الإسلامي، وبالأحرى من دائرة النفوذ المتنامي لنور الدين زنكي، كفيلاً بحرمان المعسكر الإسلامي المعادي الذي يقوده زنكي من طاقات بشرية وقدرات مالية هائلة يصعب على المسلمين من دونها حسم معركتهم ضد الفرنجة.



ورأى الملك الفرنجي أن تحقيق ذلك يتم بإحدى طريقتين: إمّا سيطرة عسكرية مباشرة، وإمّا تحويل مصر إلى دولة حليفة للفرنجة على غرار النموذج الذي كانت تمثله إمارة دمشق طوال نصف القرن الذي سبق خضوعها النهائي لنور الدين زنكي. ومن بين هاتين الطريقتين رجح الفرنجة الطريقة الثانية التي كانت تقضي بأن تظل مصر محكومة بنظام إسلامي يدين بالتبعية للفرنجة، وينظم علاقته بهم على أساس من التحالف، بينما كانت الطريقة الأولى القائمة على السيطرة العسكرية المباشرة تنطوي على تعقيدات ومخاطر. لقد كان إخضاع مصر عسكرياً أمراً قابلاً للتطبيق، وكان في قدرة قوات الفرنجة تنفيذ ذلك بسهولة في ضوء التفكك الداخلي والصراعات السياسية المستشرية بين أصحاب النفوذ في حكومة الخلافة الفاطمية؛ هذه الصراعات التي أفرزت قيام فئة المتنفذين الذين يرحبون باحتلال فرنجي لمصر. لكن احتلالاً كهذا كان سيؤدي بالضرورة إلى ردة فعل دينية إسلامية، وكذلك إلى انتشار شرارة الجهاد في أرض مصر كما انتشرت على أرض بلاد الشام. وبالإضافة إلى ذلك كله فإن احتلالاً عسكرياً يراد له الاستمرار والديمومة كان بحاجة إلى سند مادي يملك أسباب البقاء؛ بمعنى آخر أن يستند هذا الاحتلال إلى رقعة عريضة من الاستيطان الفرنجي على أرض مصر، وهو أمر صعب المنال بسبب قلة أعداد الفرنجة المقيمين في المشرق على أرض مملكة اللاتين في فلسطين وبلاد الشام من جهة، ومن جهة أخرى، بسبب صعوبة تجنيد أعداد كافية من الأوروبيين وحملهم على الهجرة إلى الشرق وخصوصاً بعد تجربتهم المريرة التي أسفرت عنها الحملة الصليبية الثانية. نظراً إلى هذه الاعتبارات كلها كان الإمكان المتمثل في قيام نظام حكم حليف للفرنجة، أو ما يشبه نظام الدولة التابعة في مصر، هو الإمكان الأكثر قابلية للتطبيق، وخصوصاً أن نظام الحكم الفاطمي، الممثل الشرعي للفكر الشيعي المعادي للفكر السنّي، كان ينظر إلى نور الدين زنكي وما يمثله من فكر سياسي ديني، بالمنظار نفسه الذي يرى فيه الفرنجة. ولذا لم يكن من الصعب أن تبنى علاقات سياسية مع الفاطميين على غرار ما كان مع حكام دمشق شرط أن تراعى المصالح المشتركة للطرفين. وبهذا تنشأ جبهة مشتركة من الفرنجة والفاطميين ضد الجبهة السورية - العراقية بزعامة نور الدين زنكي.

وفي الوقت الذي كانت قضية السيطرة على مصر تشكل محور السياسة الخارجية لمملكة اللاتين، كان اهتمام نور الدين زنكي منصباً على الجبهة الشمالية بأطرافها الثلاثة: فرنجة أنطاكية وطرابلس، وسلاجقة الروم في منطقة الأناضول، والإمبراطورية البيزنطية. وكانت الصراعات العسكرية مع الفرنجة في منطقة أنطاكية تستحوذ على جدول أعماله الثابت. وفي خضم انشغاله بقضايا هذه الجبهة أدرجت المسألة المصرية نفسها في جدول الأعمال. وكان نور الدين، بطبيعة الحال، يرقب التوجه المصري في



LAU LIBRARY
BEIRUT

السياسة الفرنجية، ويقدّر التبعات التي ستلقى على عاتقه جرّاء هذه السياسة. لكنه كان مع ذلك شديد الحذر وكثير التردد فيما يتعلق بانخراطه في المعركة بشأن مصر، ويرى أن ذلك لا يعدو كونه مغامرة خطرة. وهذا مع إدراكه وإدراك رجاله ومعاونيه أن ضم مصر إلى مملكته سيساهم في إحكام الطوق حول عنق دولة الفرنجة ويؤدي إلى قيام قيادة إسلامية موحدة تملك أسباب القوة التي ستحسم مصير المعركة لمصلحة المسلمين. وفوق ذلك كله فإن النزعة الإسلامية التي تحكمت في سلوك نور الدين كانت تدعوه إلى محاربة الدولة الفاطمية التي تتسلط على مصر، والتي تمثل من وجهة نظر المسلم السنّي (الأورثوذكسي) التيار الديني المنشق عن الإسلام. وكان إسقاط الشيعة الفاطمية في نظره فريضة دينية ينال بها رضى الله ورضى رسوله. وإزاء هذا التردد الذي كان يبديه نور الدين، كان بعض المغامرين المتحمسين من قادته ممن كانت تحركهم طموحاتهم الشخصية، مثل أسد الدين شيركوه (عم السلطان صلاح الدين) وغيره من كبار القادة الأكراد، من أكبر الداعين والمشجعين على الانخراط الفوري في المسألة المصرية وإعطائها الأولوية على قضايا الجبهة الشمالية التي تحتمل التأجيل والانتظار.(٥٩)

## فوز نور الدين زنكي بمصر

في ١٧ ربيع الثاني ٥٦٤هـ/١٨ كانون الثاني (يناير) ١١٦٩م، أصدر الخليفة الفاطمي العاضد منشوراً قلد فيه الوزارة في مصر لأسد الدين شيركوه، قائد الحملة التي أرسلها نور الدين زنكي لمنع الفرنجة من الاستيلاء على مصر. ونقل المؤرخون المسلمون نص الطرة (الديباجة) التي استهل بها العاضد كتاب التعيين والتي كتبها بخطه: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلّد أَمانةٍ رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة واتخذه للفوز سبيلاً. ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً.»(٦٠)

كان تعيين أسد الدين شيركوه في منصب الوزارة في مصر الفاطمية خاتمة الجهود التي بذلها نور الدين زنكي من أجل السيطرة على مصر ومنع سقوطها في يد الفرنجة. فخلال الأعوام التسعة التي مرت منذ بدء التوجه المصري في سياسة الفرنجة، عانت مصر حالة مستمرة من الفوضى السياسية وعدم الاستقرار، حتى بات أمراً عادياً أن يفقد الخليفة الفاطمي أو وزير الدولة منصبيهما نتيجة الاغتيال. وبلغ من ضعف الخلفاء أن صار أمر تعيينهم في يد الوزراء. وبسبب الأهمية التي ينطوي عليها



LAU LIBRARY BEIRUT

منصب الوزارة، وبسبب النفوذ اللامحدود الذي يتمتع به صاحبه، ازداد التنافس في شأن الفوز بهذا المنصب، واستخدمت كل الوسائل للحصول عليه، حتى إنه تقلب في هذا المنصب أربعة وزراء في مدة لا تزيد على ستة أعوام ماتوا كلهم قتلاً. وكانت هذه الفوضى السياسية، وما أسفرت عنه من ضعف عسكري متزايد، هي التي أغرت الفرنجة بمحاولة الاستيلاء على مصر. وكان الملك أملريك (أمري/عموري) قد قام بالمحاولة الأولى، عندما هاجم منطقة الدلتا سنة ١١٦٣ من دون أن يحقق شيئاً من هذا الهجوم. وفي أثناء ذلك أطاح انقلاب داخلي في مصر الوزير شاور، وقام بدلاً منه وزير آخر هو ضرغام بن عامر. فالتجأ شاور، الوزير المعزول، إلى نور الدين زنكي وطلب دعمه لاستعادة منصبه، وعرض عليه الاستيلاء على مصر، بحيث يكون هو نائبه يمتثل لإدارته ويخصص له ثلث دخل مصر. استجاب نور الدين لعرض شاور، وأرسل قائده أسد الدين شيركوه على رأس جيش إلى مصر ليعيد شاور إلى منصب الوزارة. ولمّا علم الوزير القائم ضرغام بذلك استعان بالفرنجة، وأكد لهم استعداده للتحالف معهم على أن تكون مصر دولة تابعة لهم. لكن السرعة التي تحرك بها شيركوه أفشلت تدخل الفرنجة، وقُتل الوزير ضرغام، واستعاد شاور منصب الوزارة في أيار/مايو ١١٦٤. ثم ما لبث أن تنكر شاور للوعود التي قطعها لنور الدين، حتى إنه طلب من شيركوه مغادرة أرض مصر، فما كان من الأخير إلاّ أن دخل مدينة بلبيس وتحصن فيها. وعندها استعان شاور بالفرنجة لإخراج شيركوه، فأتوا مصر مسرعين وحاصرت قواته وقواتهم شيركوه. ثم توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بخروج شيركوه من مصر على أن يُدفع له مبلغ من المال. وكانت تطورات الموقف العسكري على أرض الشام، وخصوصاً الهزيمة التي ألحقها نور الدين بتحالف الفرنجة في معركة حارم، ووقوع كبار ملوكهم وأمرائهم في أسر المسلمين، وراء توقيع الهدنة مع شيركوه في بلبيس. وكان قلق الملك أملريك يزداد عندما علم باستيلاء نور الدين على بانياس وقلعتها في تشرين الأول/أكتوبر ١١٦٤.

عاد شيركوه إلى دمشق وهو يتقد غضباً على شاور وغدره. وكان يتحرق لمعركة الثأر، لكن نور الدين لم يوافق على عودته في حملة جديدة إلى مصر بسبب حساسية الأوضاع العسكرية على جبهة الشام. وفي مصر مضى شاور في الاستبداد بالقرار حتى إنه تجاهل الخليفة الفاطمي كلياً، فأرسل الخليفة العاضد يطلب من نور الدين التدخل لوضع حد لتسلط شاور وتجبره. وكان غدر شاور بشيركوه وتنكره للوعود التي قطعها لنور الدين تركت حزازة في نفسه، فاستجاب لاستغاثة العاضد، وأرسل شيركوه في حملة جديدة إلى مصر. غادرت الحملة في مطلع سنة ١١٦٧ وتوجهت نحو مصر. ولمّا وصل شيركوه أخذ في الحسبان إمكان استعانة شاور بالفرنجة كما فعل أول مرة،

فلم يهاجم القاهرة، وإنما قطع النيل، وضرب خيامه في الضفة الغربية قبالة الفسطاط. وفعلاً، حدث ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بالفرنجة، وأسرع الملك الفرنجي وقدم بجيشه إلى مصر، وقبل أن يشتبك مع جيش شيركوه اشترط لنفسه من شاور، فاتُّفق على أن يؤدي الأخير له مبلغاً ضخماً من المال، يدفع نصفه مقدماً قبل المعركة، ويدفع نصفه الثاني بعد طرد شيركوه من أرض مصر. وجرى احتفال رسمي لتوقيع الاتفاق في قصر الخليفة بحضور ممثل رسمي عن ملك الفرنجة.

لم يكن سير القتال لمصلحة شاور وحلفائه الفرنجة، إذ هزموا في معركة عند منطقة المنية، واستطاع شيركوه احتلال الإسكندرية، ووضع ابن أخيه الشاب صلاح الدين على رأس الحامية التي تمركزت فيها. تمكن الحليفان بعد ذلك من محاصرة الحامية الزنكية في الإسكندرية، ثم توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بخروج شيركوه من أرض مصر، فعاد إلى دمشق ووصل إليها في أيلول/ سبتمبر ١١٦٧.

لم تنته هذه الجولة مثلما انتهت سابقتها، إذ اشترط الفرنجة على شاور قبل موافقتهم على مغادرة مصر أن تؤدى إتاوة سنوية قدرها ١٠٠,٠٠٠ دينار، وأن تظل كتيبة من فرسانهم في القاهرة لحراسة أبواب سورها، وأن يستقر بالقاهرة مندوب دائم عن الملك الفرنجي يمثل مصالح الأخير، ويكون حلقة الوصل بينه وبين حكام مصر.

أدرك شاور ثقل الشروط التي أملاها عليه الفرنجة، وشعر بثقل وطأتها على كاهله وكاهل الخزينة المصرية، إضافة إلى مشاعر العداء التي بدأ الشعب المصري يبديها له ولحلفائه من الفرنجة. ومرة أُخرى أراد أن يقوم بالمناورة للتخلص من هذه الشروط، فأرسل ابنه الكامل شجاع موفداً إلى نور الدين يستحثه على إرسال جيش إلى مصر، لكن نور الدين لم يسرع في الاستجابة. ولمّا شعر الفرنجة بهذه الاتصالات قرروا العمل بسرعة للاستيلاء على مصر عسكرياً. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١١٦٨ شنوا هجوماً على بلبيس وخربوها وحرقوا دورها وقتلوا أهلها، ثم زحفوا نحو القاهرة، فقام شاور بإحراق مدينة الفسطاط ليمنعهم من الإفادة من مرافقها. وقف جيشهم أمام القاهرة ولم تستطع سفن أسطولهم التي قدمت من عكا اقتحام الحواجز التي وضعت في الخليج، وأعاق ذلك تقدمهم، فقرر الملك التراجع بعد أن دفع له شاور ١٠٠,٠٠٠ دينار تعويضاً عن تكاليف الحملة.

كان الخليفة العاضد في هذه الأثناء على اتصال بنور الدين زنكي، وعرض ممثلوه تخصيص ثلث دخل مصر إلى خزينة الدولة الزنكية، إذا استجاب نور الدين لطلب العون. ولم يكن نور الدين يرضى بأن يترك مصر نهباً للفرنجة، ولمّا سمع ببدء الحملة الفرنجية الجديدة حتى أخذ يعد العدة لبعث عسكري لإنقاذ الموقف، ولحسم المسألة المصرية نهائياً. فخرج شيركوه في حملته الثالثة على مصر مستفيداً من



LAU LIBRARY
BEIRUT

الخبرة التي اكتسبها من الحملتين السابقتين، ولذلك تجنب السير في الطريق التي كان الفرنجة يتوقعون وصوله منها. فلم يشعر الناس إلاّ وقد دخلت قوات شيركوه القاهرة، حيث رحب أهلها بمقدمه. فأسقط في يد ملك الفرنجة، وأيقن أن خطته لاحتلال مصر فشلت، وأمر قواته بالانسحاب إلى فلسطين في كانون الثاني/يناير ١١٦٩. لم يمض وقت طويل حتى اغتيل شاور، وتولى شيركوه الوزارة في مصر، لتصبح بذلك جزءاً من مملكة نور الدين زنكي الإسلامية.[٦١]

## نتائج توحيد سورية ومصر

يرسم بعض مؤرخي الفرنجة، الذين عاصروا حدث توحيد مصر مع مملكة نور الدين زنكي، صورة للوضع الجديد الذي آلت إليه الأمور على صعيد المواجهة بين المسلمين ودولة الفرنجة بألوان شاحبة. وقد لخص أحدهم الوضع بالكلمات التالية: «بدأ الرجال الحكماء في المملكة يلاحظون في الربيع التالي، الذي كان بداية العام السادس لفترة حكم الملك عموري، أن إخضاع الأتراك لمصر شكل خطراً كبيراً وحمل أذى شديداً بالنسبة لنا، وأن وضعنا قد ازداد سوءاً من الناحية المادية. وكان بإمكان نور الدين، أكثر أعدائنا قوة، أن يحاصر المملكة بالإبحار خروجاً من مصر بأسطوله الضخم، وأن يحاصر جميع المدن الساحلية بجيشه براً وبحراً. وكان الشيء الذي يُخشى منه أيضاً هو حقيقة أنه كان بإمكانه إعاقة طريق الحجاج القادمين إلينا، أو حتى أن يرفض السماح لهم بالمرور على الإطلاق.»[٦٢]

لم يجانب وليام الصوري الحقيقة عندما أشار في أقواله إلى المخاطر التي أصبحت تتهدد مملكة القدس اللاتينية جرّاء إحكام نور الدين قبضته على مصر، فأصبحت المملكة محاطة من جهاتها البرية الثلاث، من الشمال والجنوب والشرق، بدولة نور الدين زنكي، بل أصبح في استطاعته، بعد أن سيطر على أكبر قاعدتين بحريتين في الإسكندرية ودمياط، أن ينتزع السيادة على البحر التي امتلكها الفرنجة منذ بدء غزوهم فلسطين وبلاد الشام قبل ما يقرب من سبعين عاماً. إن أبسط ما تعنيه السيطرة على البحر هو قطع شريان الحياة عن دولة الغزاة الفرنجة، وتهديد وصول الإمدادات البشرية، التي أطلق عليها أسقف صور اسم الحجاج.

لم تكن المخاطر التي عددها وليام الصوري مخاطر فورية على الرغم من أنها كانت مخاطر منظورة تأخر تحقيقها بضع عشرة سنة. ومع ذلك أسفر ضم مصر إلى المملكة الزنكية عن نتائج فورية ملموسة ألحقت الأذى بدولة الفرنجة على الصعيدين المادي والعسكري. فقد فقدت الأموال التي اعتاد حكام مصر دفعها ترضية للفرنجة،

أو في مقابل مساعدتهم ضد جيش أسد الدين شيركوه، القائد الذي كان يرسله نور الدين إلى مصر. هذا علاوة على ما صرفوه من أموال على تجهيز حملاتهم المتتالية ضد مصر، وفضلاً عما فقدوه من قتلى وأسرى في مواقع القتال. وجرّاء ذلك ضعفت طاقات الدولة الدفاعية بعد أن أحاطت مخاطر نور الدين بها من الجهات كافة. وكعادة فرنجة الشرق بعد كل انتكاسة عسكرية تلم بهم، كما حدث بعد سقوط الرها، هرعوا إلى دول الأم في أوروبا يستصرخون ملوكها وأمراءها لإرسال النجدات وقوات الدعم والإسناد. لكن أصوات الاستغاثة لم تجد آذاناً صاغية هذه المرة في أوروبا، فالتجأ الملك عموري إلى الإمبراطور البيزنطي، القوة المسيحية المركزية في شرق البحر الأبيض المتوسط، بحثاً عن المساعدة. وعلى الرغم من مرارة التجربة التي كان يخلفها التعاون المشترك بين الطرفين، فإن الإمبراطور البيزنطي، مانويل كومنينس، كان أكثر استعداداً للتعاون وتقديم الدعم، لأنه كان شديد القلق إزاء توحيد مصر وبلاد الشام تحت زعامة نور الدين.

وهكذا تقرر إرسال حملة فرنجية جديدة تغزو مصر بمعاونة الأسطول البيزنطي، الذي أبحر نحو مرفأ دمياط، في حين تقدمت القوات البرية الفرنجية انطلاقاً من قاعدتها في عسقلان. حدث ذلك ولم يكن مر عام على استيلاء نور الدين زنكي على مصر. وكان الملك عموري يعتقد أن هذه الحملة ستحقق له ما فشلت محاولاته السابقة في تحقيقه، حتى إنه شغل نفسه بنثر الوعود لحلفائه البيزنطيين ولرؤساء الداوية والإسبتارية ومقدميهم بشأن تقسيم البلاد المصرية فيما بينهم بعد احتلالها. لكن هذه الحملة لم يكن أحسن حظاً من سابقاتها، إذ إن صلاح الدين، الذي كان خلف عمه أسد الدين شيركوه في منصب الوزارة، أعد العدة لهذا الهجوم. ولم ينجح حصار دمياط براً وبحراً في إحراز شيء. فاضطر الفرنجة إلى الانسحاب والعودة خائبين ليجدوا أن نور الدين استغل غيابهم في مصر وأنزل بهم ضربات موجعة على جبهة بلاد الشام، حتى إن ابن الأثير ساق في خيبتهم الأمثال وشبه حالهم بالنعامة بقوله: «خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين.»(٦٣)

## النفور بين نور الدين وصلاح الدين

تميزت السنوات الخمس (١١٧٠ - ١١٧٤) التي أعقبت سيطرة نور الدين على مصر بغياب أي حسم عسكري على صعيد المواجهات بين المسلمين والفرنجة. فضمُّ مصر إلى مملكة نور الدين لم يضف قوة جديدة إلى القدرات القتالية للمسلمين كما كان متوقعاً، لأن الشكوك التي ساورت صلاح الدين وخوفه من نيات نور الدين



تجاهه أعاقت تعاون جناحي الدولة الزنكية، وعطلت العمل العسكري ضد الفرنجة. وتشير الروايات التاريخية عند بعض المؤرخين المسلمين إلى أن وقوع مصر في قبضة صلاح الدين بعد موت شيركوه لم يلقَ ارتياح نور الدين. ويذكر المقريزي أن أمراء جيش نور الدين في مصر أبدوا تبرُّماً عندما جلس صلاح الدين على كرسي الوزارة؛ فلم يطعه أحد منهم ولم يعلن ولاءه له، حتى سعى الفقيه عيسى الهكاري للإصلاح بينهم وبينه. أمّا نور الدين فعندما علم باستيلاء صلاح الدين انزوى ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه. وكان نور الدين يعبر عن هذا الاستياء فلا يخاطبه ولا يكتب إليه باللقب السلطاني الرسمي الذي يليق بالرتبة الإدارية التي يخاطب بها من يتولى منصب الوزارة في مصر، وإنما كان يكتب إليه بلقبه العسكري كواحد من قادة العساكر الموجودين معه في مصر، وهو لقب «الأسفهلار» أو مقدّم العساكر. ثم قام نور الدين بمصادرة إقطاع كل من صلاح الدين وعمه في حمص، ومنع وكلاءهما من التصرف فيه وطردهم وطرد أهلهم. وكتب إلى بقية أمراء العساكر في مصر بترك صلاح الدين وإضعافه، وبدأ يذمه ويذكره بالسوء ويكثر عليه في طلب الأموال.(٦٤)

ثم جاءت مسألة إلغاء الخلافة الفاطمية واعتراف مصر بالخلافة العباسية، وهو ما عرف بـ «قطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية»، ليخرج هذه الشكوك من السرّ إلى العلن. فلمّا كتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي امتنع الأخير من ذلك واعتذر بأن الإقدام على هذه الخطوة سيؤدي إلى تمرد أهل مصر. وكان الامتناع في الحقيقة نابعاً من مخاوف صلاح الدين من نور الدين، فأراد أن تظل الخلافة الفاطمية قائمة في مصر سنداً وظهيراً يردفه إذا ما حاول نور الدين إقصاءه عن الحكم بالقوة. لم يقتنع نور الدين بالأعذار التي ساقها صلاح الدين، وألح عليه في الامتثال لهذا الأمر، حتى إنه لم يترك له فسحة للتهرب. وكان نور الدين يتعرض لضغوط يمارسها الخليفة العباسي من أجل الإسراع في إلغاء الخلافة الفاطمية، فاستعان بنجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، وكان يومئذ أميراً على بعلبك، وكلفه هذه المهمة. وخرج نجم الدين أيوب متوجهاً إلى مصر بعد أن أرسل نور الدين جيشاً لمحاصرة الكرك كي يضمن وصول أيوب سالماً إلى القاهرة.(٦٥)

لم ينجح امتثال صلاح الدين لأوامر سيده في إزالة الشكوك التي اكتنفت العلاقة بين الرجلين. وجاءت التطورات بعد ذلك لتزيد فيها، بل لتوصلها إلى حافة إعلان العصيان. ففي أوائل صفر ٥٦٧هـ/ أواخر أيلول (سبتمبر) ١١٧١م، هاجم صلاح الدين حصن الشوبك في جنوب فلسطين، وضرب عليه حصاراً ضيق بواسطته على عساكر الحامية الفرنجية المرابطة فيه، فطلبوا الأمان، واستمهلوه بضعة أيام كي يجهزوا



LAU LIBRARY
BEIRUT

أنفسهم للرحيل وتسليمه الحصن. ولمّا سمع نور الدين بخروج صلاح الدين ووقوفه أمام الحصن، رآها فرصة لمهاجمة بلاد الفرنجة من ناحية الشمال، وفعلاً، خرج بجيشه من دمشق لهذه الغاية. لكن صلاح الدين ومستشاريه لم يرتاحوا لهذه الحركة، وأيقنوا أن نور الدين إنما يتحين الفرصة كي يظفر بصلاح الدين وهو خارج مصر فيمضي حكمه فيه، فإن شاء أبقاه في منصبه في حكم مصر، وإن شاء عزله عن هذا المنصب. عندها أصدر صلاح الدين الأوامر بفك حصار الشوبك والعودة إلى مصر قبل أن يتسلم الحصن. وأرسل إلى نور الدين كتاباً يبرر فيه انسحابه وسرعة عودته إلى القاهرة. وأرجع ذلك إلى أنباء تلقاها من مصر فحواها أن بعض الجهات المعادية ينوي القيام بثورة تعيد مصر إلى حكم الفاطميين. لكن هذا التبرير لم يقنع نور الدين وجعله أكثر تشككاً في إخلاص صلاح الدين وطاعته. فعزم على مهاجمة مصر واستخراجها من يده. ولمّا أدرك صلاح الدين صدق ما عزم عليه نور الدين جمع مستشاريه ومقربيه لمواجهة ما سيحدث، وأشار عليه الجميع الاستعداد للمواجهة إذا ما هاجم نور الدين مصر. وهنا تدخل والد صلاح الدين، نجم الدين أيوب، ونهر ابنه وجماعة الحاضرين وحذرهم من عاقبة أي قرار طائش يعتمدونه. وأقنع صلاح الدين بضرورة الإسراع في إرسال كتاب إلى نور الدين يؤكد فيه طاعته له، ويبدد ما بنفسه من شكوك نحوه. فامتثل صلاح الدين لرأي والده، وأرسل كتاباً عاجلاً إلى نور الدين مشفوعاً بهدية نادرة. وكانت هذه الخطوة سبباً في إطفاء غضب نور الدين إلى حين.[٦٦]

لم يهمل صلاح الدين موضوع المواجهة مع الفرنجة في فلسطين منذ أن تولى الحكم في مصر، ولم يسمح بأن يشغله الاهتمام بقضايا مصر الداخلية، وتصفية مؤسسات النظام الشيعي وتطهيرها من مؤيدي الخلافة الفاطمية، عن الاهتمام بقضية الجهاد ضد الفرنجة. فمن جهة، لم يغب عن خاطره أنه تلميذ مدرسة الجهاد التي تقف الأسرة الزنكية على رأسها، وأنه من جهة أُخرى ورث زعامة مصر الفاطمية التي أدمتها هزائمها أمام الفرنجة في سواحل بلاد الشام وفلسطين والقدس، والتي ما زال جرحها ينزف جرّاء هزيمة عسقلان. مع ذلك فإنه لم يكن مستعداً للاندفاع في سياسة الجهاد قبل أن يرسخ أقدامه في مصر، وقبل أن يضمن قوة البنية التحتية لحكمه، وقبل أن يتخلص من التهديد الذي يمثله نور الدين زنكي على بقائه في منصبه. وضع صلاح الدين كل هذه الاعتبارات أمام عينيه في تعامله مع الفرنجة في فلسطين خلال مرحلة التأسيس التي مرت عليه وهو في مصر. وعلى الرغم من كل الضغوط التي كان يمارسها عليه سيده نور الدين فإنه امتنع عن سابق وعي وإصرار من مهاجمة حصون الفرنجة في منطقتي وادي عربة والكرك مع ما تشكله من تهديد للاتصال



الجغرافي بين جناحي الدولة الزنكية الشمالي والجنوبي. وبدلاً من ذلك فإن أول عمل عسكري قام به ضد الفرنجة كان موجهاً ضد التحصينات الفرنجية في جنوب غرب فلسطين في منطقة غزة، وليس لإزالة تلك الحصون التي تسد طريق الاتصال الاستراتيجي. وقد فسر المؤرخون المسلمون هذه الخطوة بأنها خطوة دعائية يقصد بها الترويج لتوجه صلاح الدين الجهادي، وأنه كان حريصاً على بقاء الفرنجة في تلك الحصون التي تشكل عائقاً وحاجزاً يصعب على نور الدين اجتيازه لمهاجمة مصر وإخراجه منها. وقام صلاح الدين، تأكيداً لخطه الدعائي، بمهاجمة خليج أيلة، واحتل قلعة صغيرة أقامها الفرنجة أمام الميناء في جزيرة فرعون، كانوا ينطلقون منها ويعترضون حجاج مصر إلى مكة. وفي تلك الأثناء ظل هاجس الخوف من نور الدين يلاحق صلاح الدين، ولم يكن يأمن من أن يأتي ذلك اليوم الذي قد ينجح نور الدين في عزله عن مصر أو في إخراجه منها بالقوة. لذلك فقد حرص على البحث عن مكان آمن يلجأ إليه عندما تحين الساعة، فرتب حملة عسكرية بقيادة أخيه نوران شاه إلى اليمن واستولى عليها.[٦٧]

## أزمة الثقة وقرار التنحية

في صيف سنة ١١٧٣، وصلت أزمة الثقة بين نور الدين وصلاح الدين إلى ذروة جديدة. ولم يكن المرء بحاجة إلى كثير من الفطنة كي يكتشف النيات الانفصالية التي اختمرت في ذهن صلاح الدين. وكان نور الدين توصل في هذا التاريخ إلى أن الصبر على سلوك نائبه في مصر لم يعد محتملاً. وكان السبب في ذلك عائداً إلى ما فعله صلاح الدين هذه المرة من إفشال متعمد لخطة نور الدين للقضاء على دولة الفرنجة. أراد نور الدين أن يستغل فرصة انشغال الملك الفرنجي عموري بحرب ضد إمارة الأرمن على أرض آسيا الصغرى في أقصى الشمال، واتفق مع صلاح الدين على أن يهاجما معاً الفرنجة في فلسطين ويطبقا عليهم من الشمال ومن الجنوب. وطبقاً للخطة خرج صلاح الدين ومعه جيش مصر وتوجه نحو الكرك، حيث سيلتقي نور الدين في جيش الشام لمهاجمة هذه القلعة الحصينة. وعندما وصل جيش نور الدين إلى الرقيم، مسيرة يومين من الكرك، قرر صلاح الدين ترك ساحة القتال والعودة إلى مصر قبل وصول نور الدين بحجة مرض والده وإشرافه على الموت. في حين أن ما دفع صلاح الدين إلى العودة كان خوفه من أن يقبض عليه نور الدين، إذا ما اجتمعا. وبعد وصوله إلى مصر أرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين ليقدم الاعتذار عن الرحيل ويشرح الأسباب التي دعته إلى ذلك.



LAU LIBRARY
BEIRUT

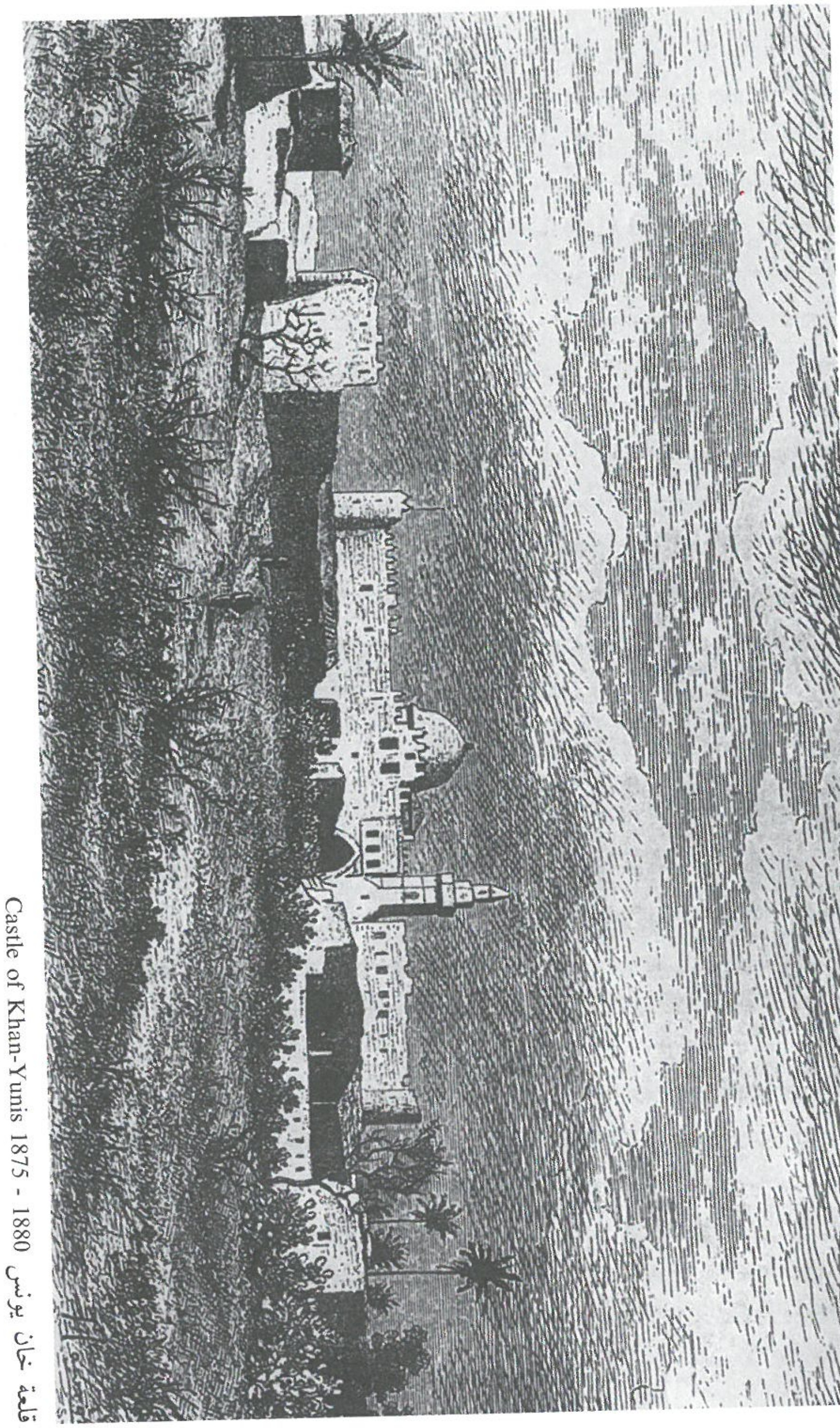

قلعة خان يونس Castle of Khan-Yunis 1875 - 1880



أظهر نور الدين أمام الهكاري اقتناعه بالاعتذار، بينما كظم ما في نفسه من الغيظ والغضب مما فعله صلاح الدين. وكان قد اتخذ القرار النهائي بالتخلص منه، وشرع في تجهيز نفسه للتوجه بجيشه إلى مصر وأخذها، لأنه تأكد من أن صلاح الدين كان يفضل استمرار الاحتلال الفرنجي لهذه المنطقة التي تحجز بين مصر ودمشق وتمنعه من دخول مصر. وبينما كان نور الدين منهمكاً في الإعداد للتوجه إلى مصر أصابه مرض مفاجئ فارق الحياة في إثره.[٦٨]

## موت نور الدين زنكي
## وقيام الدولة الأيوبية

تدخل القدر مرتين خدمة لصلاح الدين. كانت أول مرة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، عندما خرج عمه أسد الدين شيركوه على رأس الحملة الثالثة التي أرسلها نور الدين زنكي إلى مصر، إذ أكرهه نور الدين على الانضمام إلى عسكره في هذه الحملة، وروي عنه قوله: «كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري.»[٦٩] وكانت النتيجة أن صلاح الدين أصبح بعد نجاح هذه الحملة سيد مصر وسلطانها. وكانت ثاني مرة حينما خلصه موت نور الدين المفاجئ، سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، مما كان أزمع عليه، أي عزله وتنحيته عن حكم مصر، إذ فاجأه الموت وهو في قمة الاستعدادات والتحضيرات لإتمام هذه المهمة. فكانت النتيجة أن صلاح الدين تحول من مطالَب إلى طالب؛ فبعد أن كان مطالباً بتسليم عرش مصر لسيده نور الدين، كما دلت على ذلك مجريات الأحداث، صار الآن بعد موت نور الدين يطالب بعرش القائد الراحل، كما دلت على ذلك كتبه إلى بعض الأمراء في دمشق حين روي عنه أنه كتب: «ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري.»[٧٠] لم يقصد صلاح الدين بهذه العبارة التنافس مع غيره من أمراء الدولة النورية في شأن الخدمة بمعناها الحرفي، وإنما أراد أن يبين أنه الأولى من غيره بميراث نور الدين وبالعرش بعد موت ابنه الصالح إسماعيل، وهو ما سعى إليه وحققه بعد ذلك.

## قيام الأسرة الأيوبية

بعد موت نور الدين تولى ابنه الصالح إسماعيل عرش المملكة واستقر بمدينة دمشق. وكان الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، أقوى



LAU LIBRARY
BEIRUT

أمراء نور الدين في دمشق، فتولى الوصاية على الملك القاصر، الذي كان عمره أحد عشر عاماً. حاول أمراء دمشق التفرد بالملك الطفل والاستئثار بالوصاية عليه، من دون منافسيهم أمراء حلب وأمراء الموصل. وكان خوفهم من صلاح الدين، الذي كان أميراً على مصر، جعلهم يحرصون على إبعاده عما يجري على أرض المملكة في الشام، بسبب ما يتمتع به من قوة عسكرية لا يستطيعون الوقوف أمامها. لكن الأمور لم تَسِر بحسب ما كان يتمناه ابن المقدم. أمّا أمير الموصل، سيف الدين غازي، ابن شقيق نور الدين، فأسرع إلى اقتطاع أجزاء من المملكة في منطقة الجزيرة، مثل نصيبين والخابور والرها وحرّان والرقة وسروج، وألحقها بإمارة الموصل. وأمّا حلب فقد سيطر الأمير علي ابن الداية على قلعتها، وأعلن معارضته لوصاية الدمشقيين على الملك بحجة أن أمراء حلب هم الأولى بذلك. أخيراً، تمخض التنافس بين أمراء حلب وأمراء دمشق عن انتقال الملك القاصر إلى حلب، وهو ما يعني استئثارها بالقرار السياسي في الدولة. وعلى صعيد الصراع على الجبهة مع الفرنجة، فقد استغل الملك عموري رحيل نور الدين وحاول استرجاع بانياس التي كان فقدها في مرحلة الصراع بشأن مصر، لكن ابن المقدم، كبير أمراء دمشق، لم يرغب في مواجهة عسكرية مع الفرنجة، وسارع إلى عقد هدنة مع عموري تعهد بموجبها بإطلاق أسرى الفرنجة الذين كانوا في دمشق، إضافة إلى دفع مبلغ كبير من المال. واتفق الطرفان بشأن التعاون على التصدي لطموحات صلاح الدين في بلاد الشام. وكان تحالف ابن المقدم مع الفرنجة إحدى الذرائع التي استند إليها صلاح الدين عندما خرج من مصر للاستيلاء على دمشق. لكن تفاقم النزاع بين دمشق وحلب بشأن موضوع الوصاية أدى إلى تغيير سريع في موقف دمشق من صلاح الدين. إذ عندما انتقل الملك الصالح إسماعيل إلى حلب بالمكيدة التي دبرها الأمير سعد الدين كمشتكين، الذي أصبح الوصي على الملك القاصر بعد أن اعتقل ابن الداية، استعان ابن المقدم، أمير دمشق، بسيف الدين غازي، أمير الموصل، ليكونا يداً واحدة ضد مخطط الحلبيين. إلاّ إن تقاعس سيف الدين غازي لم يترك مجالاً أمام ابن المقدم سوى الاستعانة بصلاح الدين، فاستدعاه إلى دمشق ليسلمه إياها.

خرج صلاح الدين على رأس قوة من الخيالة ووصل إلى دمشق عن طريق غور الأردن ودخلها في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١١٧٤، وسط ترحيب من أمراء نور الدين ومشيخة المدينة. وأعلن أنه أتى كي يحمي الملك وبلاده من الصليبيين، وكي يستعيد ما اقتطعه ابن عمه سيف الدين غازي من أجزاء المملكة. كان إطلاق هذا الشعار شرارة البدء بإعادة توحيد البلاد الإسلامية، كما كانت أيام نور الدين زنكي، كقوة واحدة وموحدة لاستئناف معركة الجهاد ضد الصليبيين.[٧١]



بعد استيلاء صلاح الدين على دمشق قام بنشاط عسكري مكثف لضم باقي مناطق الشام وإخضاعها لسلطته، وذلك كله تحت لواء الطاعة للملك الصالح إسماعيل. فاحتل مدينتي حمص وحماة وبعض المدن الأُخرى، ثم توجه لأخذ حلب، لكن الحلبيين استعانوا بالفرنجة وتحالفوا معهم لوقف زحف صلاح الدين. وانتهت هذه الجولة من الصراع بشأن السيطرة على بلاد الشام بانتصار حققه صلاح الدين على قوات حلب وحلفائها قرب مدينة حماة في نيسان/أبريل ١١٧٥. فقطع الخطبة للملك الصالح، وأعلن نفسه ملكاً على مصر والشام، ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين لتنتهي باعتراف الحلبيين به حاكماً شرعياً على دمشق وباقي البلاد التي سيطر عليها، كحماة وحمص وغيرهما. وبعد هذا الاتفاق اعترف الخليفة العباسي بملكية صلاح الدين على ما في يده من البلاد. إلاّ إن هذا الاستسلام للأمر الواقع من جانب أمراء حلب لم يرضِ أمير الموصل، سيف الدين غازي، الذي بادر إلى تشكيل تحالف زنكي - أرتقي - فرنجي ضد صلاح الدين، وفرض على الحلبيين نقض اتفاقهم معه. وتعبيراً عن حسن النية تجاه الفرنجة أطلق الزنكيون جميع ممن لديهم من أسرى صليبيين. وكان الفرنجة يدركون أن بقاء حلب مناوئة لصلاح الدين هو الضمان لمنع الخطر الذي يشكله عليهم. وكان من الطبيعي أن تكون طائفة الإسماعيلية في منطقة حلب وغيرها من بلاد الشام جزءاً من هذا التحالف، أو أي تحالف يقوم ضد صلاح الدين، بعد أن صار خصمها الأول، لأنه كان المسؤول عن إزالة الخلافة الشيعية الفاطمية في مصر. ومرة أُخرى لم يصمد هذا التحالف الواسع أمام جيش صلاح الدين بعد أن أنزل به هزيمة منكرة في موقعة تل السلطان في نيسان/أبريل ١١٧٦، وعاد بعدها ليضرب حصاراً جديداً على مدينة حلب انتهى مثل سابقه بعقد هدنة جديدة. وقبل أن يعود صلاح الدين إلى مصر أعلن زواجه بأرملة نور الدين زنكي، الأميرة عصمة الدين خاتون، في خطوة دعائية شفافة ليظهر ارتباطه بأسرة نور الدين محمود من جهة، وليوحي من جهة أُخرى بأنه الوارث الشرعي له، بحسب مفهوم الزواج السياسي، وفقاً للأعراف الدبلوماسية المتبعة في ذلك العصر.[٧٢]

## الصراع مع الفرنجة

ظلت معاداة الفرنجة حجر الزاوية في السياسة الخارجية الإسلامية بعد موت نور الدين زنكي. وإذا وُجد زعيم إسلامي، أو جهة إسلامية ما تبتعد عن تبني هذه السياسة، وتحاول أن تطبّع علاقاتها بالفرنجة لسبب من الأسباب، فإنه كان يوجد دائماً



LAU LIBRARY
BEIRUT

من يحمل راية الجهاد ويقود المعركة ضدهم، بعد أن أصبحت السياسة الجهادية هي الغطاء الشرعي لأي زعيم إسلامي يطمح إلى قيادة العالم الإسلامي. وتحت الشعار نفسه، شعار معاداة الفرنجة، برر صلاح الدين خروجه من مصر واستيلاءه على دمشق، ومن ثم سعيه للاستيلاء على حلب وبقية مناطق سورية، منذ دخوله دمشق وحتى عودته إليها بعد الاتفاقية التي عقدها مع الأمراء الحلبيين. وكان مجرد اتخاذه القرار بترك مصر والتوجه إلى بلاد الشام ترجيحاً صارخاً لسياسة الجهاد التي تبناها، لأن سورية كانت دائماً القاعدة الأفضل التي ينطلق منها جهاد الفرنجة، بل كانت سياسة المهادنة التي انتهجها ابن المقدم مع الفرنجة قد تعرضت لتأنيب صلاح الدين واعتبرها معصية لله ولرسوله.[٧٣]

إزاء وضوح هذا التوجه لدى صلاح الدين فإن الفرنجة كانوا يدركون أن أي قوة وأي نفوذ يستحوذ عليهما سيشكلان تهديداً مباشراً لدولتهم، ولذلك حرصوا على أن يظل مشغولاً بنزاعات لا تنتهي مع الأمراء الزنكيين في حلب والموصل بعد أن فشلوا في منعه من السيطرة على دمشق وضمها إلى سلطته. ويمكن القول إن الفرنجة لم يقوموا خلال هذه الفترة، أي فترة تأسيس حكم صلاح الدين في بلاد الشام، بأي عمل جدّ لمنعه أو إفشال خططه، واقتصرت أنشطتهم العسكرية وشبه العسكرية منذ وفاة نور الدين زنكي على القيام بغارات على ضواحي دمشق، أو على منطقة البقاع بقصد الحصول على أكبر كمية من الغنائم والأسلاب، ولم تكن هذه الغارات ترقى إلى مستوى الحرب الاستراتيجية التي اعتاد الفرنجة خوضها على أرض الشام أو أرض مصر. ثم ما كان من تحالفات محلية موقتة مع أمراء حلب في إبان محاولات صلاح الدين الاستيلاء عليها.

وبعد أن سعت بيزنطة لتجديد تحالفها مع ملك القدس، وبعد أن أرسلت أسطولها البحري إلى ميناء عكا لتضعه في تصرف التحالف الفرنجي من أجل غزو مصر، وبعد أن وصلت إمدادات أوروبية بقيادة فيليب الألزاسي، كونت فلاندرز، في خريف سنة ١١٧٧، وتهيأت الفرصة لتنفيذ خطة الغزو، بعد ذلك كله فشل الفرنجة في البدء بهذا الهجوم الاستراتيجي، وتقزمت هذه الاستعدادات إلى مجرد حصار لمدينة حماة انتهى قبل أن يؤدي إلى نتائج ملموسة، ثم إلى حصار قلعة حارم القريبة من حلب انتهى هو الآخر بانسحاب القوات الفرنجية إلى داخل أنطاكية.[٧٤]



LAU LIBRARY
BEIRUT

## هزيمة صلاح الدين في الرملة
## والمواجهات على أرض فلسطين

بعد أن فشل ملك الفرنجة في حمل حلفائه على غزو مصر، وانصرافهم إلى مهاجمة حماة وحارم في شمال بلاد الشام، أصبحت مصر في مأمن من أي هجوم فرنجي قريب. وكان صلاح الدين انتقل من دمشق إلى القاهرة استعداداً لهذا الهجوم المتوقع، ورأى أن الفرصة سانحة لمهاجمة الفرنجة على أرض فلسطين مستغلاً غياب عساكرهم عن البلاد، فانطلق مع بداية فصل الشتاء سنة ١١٧٧ وهاجمهم في حصن الداروم (دير البلح)، لكن قلة أعدادهم حملتهم على الالتجاء إلى الحصن والامتناع من الاشتباك مع جيش صلاح الدين. أمّا ملك الفرنجة الذي وصل على رأس إمدادات لدعم الحامية في دير البلح فدخل عسقلان وتحصن فيها. وفي غياب المقاومة الفرنجية في هذه المنطقة توغلت جماعات العساكر الإسلامية إلى داخل الأراضي الفلسطينية بين غزة ومدينة الرملة. وتمادى بعض المجموعات في التوغل حتى وصل إلى قلقيلية وأمعن في النهب والقتل والسبي. وأُحرقت مدينة الرملة وفر أهل المنطقة نحو المناطق الجبلية، وفزع سكان مدينة القدس فدخلوا قلعة داود بحثاً عن المكان الآمن. أمّا صلاح الدين فظل في معسكره بين تل الصافي (تل الصافية) وبيت جبرين ومعه نفر قليل من الحراس الشخصيين وبعض القادة والخاصة. استغل الفرنجة المتحصنون في عسقلان فرصة انتشار الجيش وابتعاده عن المعسكر فشنوا غارة مفاجئة لم تمهل من بقي من الجند في المعسكر من ترتيب الدفاع، ففر العساكر بين يدي المهاجمين، ونجا صلاح الدين بعد أن دفع حراسه أنفسهم ثمناً لحمايته من القتل. وهام الباقون على وجوههم، ولاذوا بمستنقع عين القصب حيث اختفوا بين أدغاله لينطلقوا بعدها غرباً وجنوباً نحو صحراء سيناء في طريقهم إلى مصر التي لم يصل إليها السلطان إلاّ بعد أسبوعين أمضاهما سائراً في رمال الصحراء.

كانت هزيمة المسلمين قاسية لم يسبق لصلاح الدين أن ذاق مثلها في حروبه مع الفرنجة، أو مع خصومه من قادة المسلمين.

استيقظ الفرنجة في فلسطين على الخطر الذي قد تعرض له أملاكهم نتيجة مثل هذه الاختراقات السريعة والمفاجئة في المستقبل، فقاموا بتعزيز الحدود الجنوبية والشمالية لفلسطين بمجموعة من التحصينات العسكرية. ففي أقصى الشمال أعيد ترميم حصن هونين الواقع على الطريق بين قلعة بانياس وميناء صور. وعند معابر نهر الأردن والمخاضات التي تفضي إلى أرض فلسطين، أقاموا حصناً جديداً قريباً من مشهد النبي يعقوب أطلقوا عليه اسم الحصن الصغير (شاستيلا)، وهو الحصن الذي سمته المصادر

العربية جسر الأحزان، ليكمل بذلك الحصنان الآخران المقامان على نهر الأردن عند كوكب الهوا، وحصن يوحنا المعمدان عند أريحا. ولم تكن إقامة جسر الأحزان لأغراض دفاعية فحسب، بل لأن وجوده في هذه النقطة كان يهدد طريق القوافل الخارجة من دمشق متجهة نحو الجنوب. ولم تمضِ إلاّ بضعة أشهر على إتمامه حتى قرر صلاح الدين مهاجمته. وكان الهجوم قوياً بحيث تم تدمير البناء تدميراً شاملاً حتى لم يبق فيه حجر على حجر، ووقع أفراد حاميته، وكانوا نحو الألف، كلهم بين قتيل وأسير في آب/أغسطس ١١٧٩. وترافق تدمير حصن بيت الأحزان مع نشاط عسكري مكثف بادر إليه صلاح الدين، فعسكر عند تل القاضي وصار يرسل جنده في غارات متسارعة في الليل والنهار على الأجزاء الشمالية من فلسطين، من نهر الأردن في الشرق حتى سواحل البحر في الغرب، وشملت مناطق الحولة وطبرية وريف صفد ووصلت إلى صيدا وبيروت. ولمّا حاول الفرنجة التصدي لهذه الغارات ذاقوا هزيمة قاسية أسر فيها عدد من قادتهم، بل كاد يُقتل ملك الفرنجة نفسه. ثم هاجم الأسطول المصري عكا وكبس الميناء ليلاً، فأُخذ عدد من السفن وأُغرق البعض الآخر، وأحرقت المخازن والعنابر الموجودة في الميناء، الذي كان، آنذاك، يعج بالسفن المحملة بالبضائع والتي تنتظر الإقلاع إلى الموانئ الأوروبية.

إزاء تواصل هذه الغارات وما رافقها من نهب وهدم وقتل وتدمير للمزارع والمحاصيل عرض ملك الفرنجة صلحاً مع صلاح الدين، الذي قبل العرض، وعقدت هدنة لمدة عامين (١١٨٠ – ١١٨٢). وفي الوقت نفسه تقريباً، عقدت هدنة مع أمير طرابلس الفرنجي، وهدنة ثالثة مع إمارة الأرمن المسيحية في منطقة الأناضول.

استطاعت الغارات الإسلامية على شمال فلسطين، والتي استمرت ما يقرب من أربعة أشهر متواصلة، أن تدب الرعب في قلوب الفرنجة وتفقدهم الثقة بأنفسهم حتى باتوا يدركون أن سلامتهم وبقاءهم مرهونان بعقد الهدنة مع صلاح الدين. وقد صورت الرسالة التي بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد، والتي كتبها القاضي الفاضل، ما لحق بالفرنجة من الذعر والهلع وفقدان الأمن، فكتب يقول: «وصارت بلاد الفرنج لا تسكن منها إلاّ كل قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلاّ من نفسه لشدة الخوف معتقلة في نفسه أو مشحونة.» وتعليقاً على ما آلت إليه أوضاع الفرنجة من سوء وما اعترى موقفهم من ضعف كتب أسقف مدينة صور الأب وليام الصوري عن الهدنة التي عقدت مع صلاح الدين قائلاً: «وكانت الشروط مذلة لنا إلى حد ما، حيث عقدت الهدنة بشروط متساوية ودون أية تحفظات هامة من جانبنا، شيء يقال إنه لم يحدث أبداً من قبل.»[٧٥]



LAU LIBRARY
BEIRUT

# صلاح الدين ومسيرة التوحيد

## الاستيلاء على حلب

عندما عقد صلاح الدين هدنة سنة ١١٨٠ مع الفرنجة في أعقاب نشاطه العسكري المكثف ضدهم على أرض فلسطين، كانت يده هي العليا ويد الفرنجة هي السفلى، فكانوا هم الذين بادروا إليها وعرضوها. وكان قبول صلاح الدين بهذا العرض نابعاً من رغبته في ادخار طاقاته العسكرية لما كان في نظره الأولى، وهو استكمال عملية التوحيد بين مصر وبلاد الشام والعراق والتي توقفت سنة ١١٧٦ عندما استعصى عليه الاستيلاء على حلب. وبين باقي الأقطار الإسلامية التي كانت لا تزال خارج إطار الوحدة الإسلامية، التي يتزعمها صلاح الدين، كانت إمارة حلب حجر الزاوية في هذه الوحدة، فمن دونها كان يدرك أن ملكه سيبقى ناقصاً وقلقاً ومتأرجحاً. وهذا ما عبر عنه وهو يكلم نفسه بصوت مسموع عندما كان يصعد درج قلعة حلب ليتسلمها بعد أن وافق الأمير عماد الدين ابن قطب الدين زنكي (ابن أخي نور الدين محمود) على قبول عرضه بالتنازل عن حلب في مقابل إمارة سنجار، ويروي أبو شامة نقلاً عن كلام المؤرخ ابن أبي طي في هذا الصدد أن صلاح الدين سُمع وهو صاعد قلعة حلب يقول: «والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة. والآن قد تَبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت.»[٧٦]

خلال العامين اللذين أمضاهما صلاح الدين في مصر بعد الهدنة، حدثت تطورات على الساحة الإسلامية الزنكية في الموصل وحلب. توفي الأمير الزنكي سيف الدين غازي، حاكم الموصل، وانتقل الحكم بعده إلى أخيه عز الدين مسعود، لأن أبناء الأمير المتوفى كانوا أطفالاً صغار السن، وأراد أمراء الموصل أن يولوا أمرهم أميراً قوياً قادراً على مواجهة أوضاع الموصل الصعبة. وبعد ستة أشهر من وفاة سيف الدين غازي، توفي الملك الصالح إسماعيل في كانون الأول/ديسمبر ١١٨١. وكان أوصى بأن يرثه في المُلك ابن عمه عز الدين مسعود، أمير الموصل، ليتم بذلك توحيد الإمارتين الزنكيتين تحت زعامته كي يتسنى له التصدي لطموحات صلاح الدين في السيطرة على المملكة. وفعلاً نودي بعز الدين مسعود ملكاً على حلب والموصل. لكنه لم يستقر بحلب، وتنازل عن مُلكها لأخيه عماد الدين زنكي الذي كان حاكماً في سنجار، وعاد إلى الموصل.

وخلال هذين العامين جرت أحداث على الساحة الفرنجية كانت لها انعكاسات على مجمل العلاقة السائدة بينهم وبين المسلمين؛ كان من أبرزها موت الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينس الذي كان يعد من أكثر حكام القسطنطينية قرباً من مملكة

القدس اللاتينية، ففقد الفرنجة برحيله واحداً من أوفى حلفائهم. وبعد وفاته قام خلفه الإمبراطور ألكسيوس كومنينس الثاني بإرسال وفد إلى القاهرة وعقد صلحاً مع صلاح الدين سنة ١١٨١. وتعبيراً عن حسن النية بادر الإمبراطور الجديد بإطلاق أسرى المسلمين. وفي بيت المقدس تدهورت صحة الملك بلدوين الرابع الذي كان تولى العرش وهو مريض. وفي غياب وارث متفق عليه لعرش المملكة، تولت والدته وأخوها إدارة شؤون المملكة، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه لموجة متصاعدة من الدسائس والمؤامرات بحثاً عن وارث شرعي، وخصوصاً أن زوج أخت الملك بلدوين الرابع كان مات، فبدأ البحث عن زوج جديد لها ليكون هو الوارث للعرش. وساد جو مشابه من الصراع السياسي في إمارة أنطاكية الفرنجية على خلفية الفضائح الأخلاقية التي تعرض لها أميرها بوهِمند الثالث، حتى كادت هذه الصراعات تتحول إلى حرب أهلية.

ولعل أكثر التطورات إثارة وأكثرها صلة بالأحداث على الساحة الفلسطينية في هذه المرحلة، هو زواج أمير أنطاكية السابق، رينالد دو شاتيون، الذي تسميه المصادر العربية أرناط، بإتينت دو ميلي، ابنة أمير وادي الأردن الفرنجي ووارثته. كان الأمير أرناط قبل زواجه بهذه الأميرة قد أمضى ما يقرب من سبعة عشر عاماً في أسر نور الدين زنكي في قلعة حلب قبل أن يفرج عنه سنة ١١٧٧. وبعد هذا الزواج صار أرناط الوارث الشرعي لإقطاع والدها في الأردن، بما فيه حصنا الشوبك والكرك، اللذان يتحكمان في الطريق الوحيدة الواصلة بين بلاد الشام ومصر، بعد أن قُطعت الطريق الساحلية بسبب غزو الفرنجة لفلسطين، وكذلك كانا يتحكمان في طريق كل من الحج المصري والشامي إلى مكة المكرمة. قام أرناط، أمير الأردن الجديد، بغارة عسكرية قصد بها غزو المدينة المنورة، وعزم على نبش قبر الرسول الكريم وتدنيسه، فوصل إلى تيماء وهناك صودف مرور قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مكة فنهبها وساق أصحابها أسرى. وكان أرناط بهذا الاعتداء قد تجاهل الهدنة القائمة بين السلطان صلاح الدين والفرنجة، فأرسل صلاح الدين احتجاجاً إلى ملك اللاتين في القدس، وطالبه بمعاقبة أرناط وإعادة الأسرى والبضائع المسلوبة. لكن الملك لم يكن في وضع يمكّنه من فرض طاعته على أمير متغطرس مثل أرناط، الذي لم يلتفت إلى الأمر الذي وجه إليه بهذا المعنى، وسخر من الملك. وسوف نرى أن هذه الحادثة ستكون سبباً في إعدام أرناط بعد أن وقع أسيراً في حطين.

في إثر هذه التطورات على الساحتين، الإسلامية في الشام والموصل والفرنجية في فلسطين والأردن، قرر صلاح الدين مغادرة مصر والتوجه إلى دمشق. وكان قبل ذلك أصدر أوامره إلى ابن أخيه فرّخشاه، نائبه في دمشق، باستئناف النشاط العسكري



LAU LIBRARY
BEIRUT

ضد الفرنجة بعد أن خرقوا الهدنة. فأغار جيش دمشق على طبرية وعكا والجنوب اللبناني، ونجح في انتزاع حصن شقيف أرنون من يدهم، ونتيجة توغله في أرض الجليل عاد ومعه مئات الأسرى وكثير من الغنائم. وبعد ذلك هاجم منطقة السواد، شرقي بحيرة طبرية، واستولى على حصن حبيس جلدك المتحكم في غور الأردن الشمالي. وعندما خرج صلاح الدين من مصر، في أيار/مايو ١١٨٢، حاول الفرنجة اعتراض طريقه، فحشدوا قواتهم شرقي البحر الميت، لكنه استطاع أن يصل إلى دمشق من دون صعوبة. وعند وصوله إلى هناك سارع إلى ترتيب الغارات التأديبية ضدهم في فلسطين، فعسكر في الأقحوانة، جنوبي بحيرة طبرية، وأرسل كتائبه إلى بيسان فاحتلها، ثم انسابت كتائبه في مرج ابن عامر تحرق وتدمر حتى بلغت الغارة جنين واللجون. وتوغلت كتائبه غرباً في السهل الساحلي حتى اقتربت من مدينة يافا، وعاد بعدها إلى دمشق. وأعد حملة على بيروت بعد أن كان نسق مع أخيه العادل في مصر أن يرسل قطع الأسطول المصري لمحاصرة المدينة من البحر، لكن بعد أن حوصرت المدينة أياماً، ترك صلاح الدين حصارها لأنه أدرك أن أمرها يطول.

## استئناف جهود التوحيد

بعد أن ترك صلاح الدين حصار بيروت قرر التوجه نحو حلب. ولمّا وصل إلى حماة جاءه أمير حرّان، مظفر الدين كوكُبري بن علي كوجك، وأعلن طاعته وولاءه احتماء به من نيات حكام الموصل الاستيلاء على بلده. ثم أشار عليه أن يؤجل أمر حلب، وأن يتوجه إلى منطقة الجزيرة وراء الفرات كي يضمها إليه، لأن ذلك لن يستغرق كثيراً من الجهد. فغير صلاح الدين رأيه وأمر بترك حصار حلب، الذي كان بدأه قبل هذا اللقاء بثلاثة أيام، وقرر التوجه نحو المشرق. عبر الفرات ودانت له إمارات الرها والرقة ونصيبين وسروج والخابور. ثم توسعت رقعة البلاد التي أخضعها لسلطته، مثل رأس العين ودورين وماكسين وغيرها. وكان هدفه أن يصل إلى الموصل ويأخذها، بعد أن سمع بأمر المعاهدة التي عقدها أمراؤها مع الفرنجة ضده، والتي تقضي بأن يهاجم الفرنجة أطراف دولته المتاخمة لبلادهم. وفي المقابل تعهد أمراء الموصل بأن يدفعوا للفرنجة ١٠،٠٠٠ دينار سنوياً طوال أحد عشر عاماً، وبأن يسلموهم في حال نجاحهم في تقويض مملكة صلاح الدين الحصون الفرنجية التي احتلها السلطان وانتزعها من أيديهم، مثل بانياس، وتيرون، وشقيف أرنون، وحبيس جلدك، وغيرها، وبأن يفرجوا عن أسرى الفرنجة المحجوزين في كل بلد ما زال في يد صلاح الدين. وكان هؤلاء الأمراء يعتقدون أن استمرار الفرنجة في مهاجمة صلاح

الدين سيكون الضمانة لعدم مهاجمته الموصل.

تقدم صلاح الدين نحو الموصل وحاصرها. لكن الحصار لم يطل لأنه أدرك أن الوسيلة الأمثل لإخضاعها هي الاستيلاء على قلاعها والبلاد التابعة لنفوذها. فترك حصارها ونزل مدينة سنجار واستولى عليها، ثم أخذ آمد. بعد ذلك صارت تأتيه الرسل من باقي الإمارات يطلب أصحابها الأمان ويعلنون طاعتهم له، مثل ماردين وميافارقين وعينتاب. ثم عبر الفرات غرباً وتوجه نحو حلب.(٧٧)

## صلاح الدين يمتلك حلب

بعد أن أتم صلاح الدين حملته في منطقة الجزيرة قطع الفرات عائداً إلى بلاد الشام في محرم ٥٧٩هـ/ حزيران (يونيو) ١١٨٣م. وما هي إلاّ بضعة أيام حتى استولى على تل خالد، ثم تقدم وضرب حصاراً حول مدينة حلب، التي أصبحت في هذا الوقت إمارة مستقلة عن المملكة الزنكية بعد أن تنازل عنها الأمير عز الدين مسعود لأخيه عماد الدين. كانت عملية التنازل هذه لا تعني إلاّ أمراً واحداً، هو فك الارتباط القانوني بدولة الموصل لأنها لم تَعُدْ بَعْدُ جزءاً من المملكة. وقد ترتب على ذلك أن أمير الموصل بات في حلّ من مسؤوليته الشرعية عن حمايتها أو الدفاع عنها، وكان عليها من الناحية القانونية، على الأقل، أن تواجه مصيرها بنفسها من دون الاعتماد على الموصل. وبعد أن نجح صلاح الدين في أثناء حملته الآنفة الذكر في تجريد إمارة الموصل من نفوذها على أغلبية الإمارات الإسلامية في محيطها وفي منطقة الجزيرة، ففقدت بذلك مصدر قوتها على الصعيدين العسكري والمادي، وبعد أن وجه إليها التهديد المباشر عندما حاصرها بقصد احتلالها، حتى إن حكامها استعانوا بالخليفة العباسي كي يتوسط لديه من أجل أن يرفع قبضته عنها، فإنها لم تعد تمتلك من أسباب القوة ما يؤهلها لنجدة حلب، بل إنقاذها من سطوة صلاح الدين ما دامت هي نفسها عرضة لطموحاته وتهديده.

في هذا المناخ السياسي والاستراتيجي البالغ الصعوبة واجهت حلب حصار صلاح الدين لها، إذ ظلت جيباً معزولاً ومحصوراً في محيط سياسي وجغرافي يهيَمن عليه من ثلاث جهات، الشمال والشرق والجنوب. ولم يكن أمامها إلاّ جيرانها الفرنجة في أنطاكية وطرابلس يمكن أن تستعين بهم على نجدتها. ولم يكن هؤلاء، في هذه المرحلة، في حالة تمكنهم من ممارسة أي ضغط فاعل يردع صلاح الدين عن حلب. وعلى صعيد الجبهة الداخلية في حلب، فإن عساكر المدينة لم يكونوا على وئام مع الأمير عماد الدين زنكي، لأنه حجب عنهم الأموال وضن ببذلها من



أجل الدفاع عن المدينة، ورأى أن تأمين نفسه وتأمين إمارة بديلة يأتيان في المقام الأول وقبل كل شيء. فبعث رسولاً من طرفه إلى معسكر صلاح الدين يعرض عليه تسليم حلب وقلعتها في مقابل إمارة بديلة. وكان من الطبيعي أن يقبل صلاح الدين هذا العرض السخي بلا تردد. وقد عرفنا المكانة التي تحظى بها حلب في نفسه، فكان كل مهر يدفعه في مقابل الفوز بها ثمناً بخساً. وقد عبر عن ذلك القاضي الفاضل، كاتب السلطان، في إحدى رسائله إلى بعض الجهات الإسلامية مبشراً بفتح مدينة حلب، بقوله: «عوّض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فهو صرف بالحقيقة، أخذنا فيه الدينار وأعطينا الدراهم.» لقد تمت الصفقة وتسلم صلاح الدين قلعة حلب وأعطى أميرها بدلاً منها إمارة سنجار وتوابعها. وكانت سنجار إمارة عماد الدين السابقة قبل أن يتنازل له أخوه عز الدين مسعود عن حلب.(٧٨)

بعد ضم حلب إلى مملكة صلاح الدين، والذي كان تتويجاً لجهد استمر ثمانية أعوام منذ موت نور الدين زنكي، بدأ العد التنازلي للشروع في عملية تحرير مدينة القدس والبلاد المقدسة من أيدي الصليبيين الغزاة. لم ينتظر صلاح الدين طويلاً بعد فتح حلب، فلم يلبث إلاّ شهراً وبعض شهر حتى قفل عائداً منها إلى دمشق ليعد العدة لمنازلة الفرنجة على أرض فلسطين، والتي بدأها بمهاجمة بيسان بعد أن قطع المخاضة على نهر الأردن.

## الحرب ضد الفرنجة توسع أم تحرير؟

لا يستطيع القارئ المتجرد الذي يتتبع سير الأحداث في إبان مراحل الصراع بين المسلمين والصليبيين، الذين غزوا المشرق منذ أكثر من ٩٠٠ عام، إلاّ أن يتفق مع التفسير الذي يكاد يجمع عليه المؤرخون المعاصرون بأن الجهود السياسية والعسكرية التي بذلت من أجل توحيد أطراف العالم الإسلامي وجهاته تحت راية سياسية واحدة، إنما كان الهدف منها حشد الطاقات المادية والبشرية خدمة لمعركة تحرير الديار العربية والإسلامية من ربقة الاحتلال الفرنجي الصليبي، أو ما اصطلح على تسميته، وبحق، معركة الجهاد. ذلك بأن معركة بمثل هذا الحجم كانت تتطلب حشداً بهذا المستوى ووسيلة على غرار تلك النوعية. من هذا المنظور قوّم المؤرخون الجهود التي بذلها صلاح الدين في توحيد العالم الإسلامي، وخصوصاً ذلك الجزء الذي استهدفه الغزو الصليبي، مصر وبلاد الشام والجزيرة وأطراف العراق، والذي استغرق منه قرابة خمسة وعشرين عاماً، منذ سنة ١١٦٩ حين استولى على مصر حتى يوم وفاته سنة ١١٩٣.



LAU LIBRARY
BEIRUT

وفي حين اتفقت جماعة من المستشرقين مع هذا الرأي، مثل د. س. ريتشاردس، وهـ. أ. ر. غِب، وكلود كاهن، وغيرهم، أبدى بعضهم التحفظات عليه، معتبراً أن ما ورد في رسائل القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين ابن شداد من تأكيد للتوجه الجهادي عند صلاح الدين إنما كان مجرد مادة دعائية موجهة لإسكات منافسيه وخصومه السياسيين. بل نرى أن بعض هؤلاء ذهب إلى أبعد من ذلك حين فسر إحجام الخليفة العباسي عن منح صلاح الدين الدعم الصريح بأنه دليل على عدم صدقية توجهه الجهادي.

إن الزعم أن شعار الجهاد الذي كان يرفعه صلاح الدين لم يكن إلاّ ضرباً من ضروب الدعاية السياسية، لهو تجن على الحقيقة التي أكدتها الرسائل التي كتبت في مناسبات كثيرة، والتي وجدت لها سنداً فيما كان يمارسه فعلاً على أرض الواقع. وإن الحكم على النيات الحقيقية لصلاح الدين من خلال بعض الممارسات السياسية أو من خلال بعض المواقف التكتيكية التي كانت تمليها ضرورات موقف سياسي بعينه، لهو حكم بعيد عن الموضوعية التاريخية. وإن الاستدلال بنية صلاح الدين الاحتفاظ بمصر وخوفه من نور الدين لئلا يجرده من ولايته عليها، وإن نيته ضم البلاد الشامية، دمشق وبعدها حلب إلى مملكته، لا ينفيان سياسته الجهادية بقدر ما كانا يخدمانها ويمهدان لها. وهو في ذلك إنما كان يقتفي خطى سيده نور الدين زنكي الذي أرسى هذا الأسلوب. وعليه، فإن من يشكك في جهادية صلاح الدين ينفي بالضرورة جهادية نور الدين. لقد وضع الزعيمان توحيد الإمارات الإسلامية نصب أعينهما، ووصولاً إلى هذه الغاية كان لا بد من ضم تلك الإمارات أو إخضاعها لسلطة مركزية واحدة، ولم يكن ذلك ليتم من دون استخدام القوة إذا لم تنفع وسائل الإقناع الأُخرى. وكان يقتضي ضمن هذا الإطار مهادنة العدو ومسالمته كي لا يعوق عملية التوسع في الأراضي الإسلامية، وهذا ما كان يفعله صلاح الدين في إبان مرحلة التوحيد، وهو نفسه ما فعله سيده نور الدين حين كان يسعى لبناء دولة الجهاد.

من ناحية أُخرى، فإن الاتكاء على ما كتبه بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين لصلاح الدين من تعريضهم بسياسة صلاح الدين أو التحامل عليه، كما ورد في عبارات نقدية منسوبة إلى ابن أبي طي هاجم فيها نور الدين، أو ما أورده ابن الأثير في نقده معاملة صلاح الدين للملك الصالح إسماعيل، واتهامه بالغدر بابن سيده، لا يعدو كونه محاولة تبريرية لا ترقى إلى مستوى الدليل التاريخي. وفي هذا السياق يكفي أن نشير إلى تعليق المؤرخ أبي شامة في كتاب «الروضتين» على أقوال ابن أبي طي التي ينتقد فيها نور الدين، ويعتبر أن هذه الأقوال مجرد تلفيق ألصقه ابن أبي طي بنور الدين من منطلق عدائي. ويرى أبو شامة أن ذلك تشهير محض بنور



الدين بسبب قيام الأخير بنفي الشيعة.

كان صلاح الدين واحداً من أمراء نور الدين زنكي، وأحد أفراد تلك النخبة من القادة العسكريين الذين تربوا على تراث مدرسة الموصل الجهادي؛ هذا التراث الذي تحول منذ أيام نور الدين إلى الطاقة المحركة للزعماء والقادة العسكريين بعد أن تبناه فقهاء بلاد الشام، وأرسوا قواعده في نفوس الأجيال، ونشروه في كل بقاع الشام من خلال خطبهم على منابرها وإلقاء دروس الوعظ في مساجدها. بهذه الروح حمل صلاح الدين سيفه مجاهداً في عسكر عمه أسد الدين شيركوه الذي ضم مصر إلى دولة الجهاد الزنكية. وإذا لم تسنح الفرصة لصلاح الدين في إبان فترة حكمه في مصر أن يمارس الجهاد وفقاً لصيغة الموصل، فإن انتقاله إلى بلاد الشام ودخوله دمشق ثم باقي البلاد الشامية والجزرية بعد ذلك أيقظ حس الجهاد الكامن في نفسه، ومعنى ذلك بكل بساطة الجهاد ضد الصليبيين أعداء الإسلام والمسلمين.

مرة أُخرى لا يستطيع المرء أن يتجاهل تلك الإشارات القوية الدالة على سيطرة فكرة الجهاد على نفسه، والتي امتلأت بها الرسائل التي كان يبعث بها كتّابه إلى بغداد أو إلى مصر أو إلى حكام الولايات الأُخرى التي كانت ضمن نطاق تأثيره وسلطته. ففي أعقاب استيلائه على دمشق بيّن أن ذلك لم يكن طموحاً إلى توسيع رقعة دولته، وإنما خطوة في طريق التحرير، لأن الإحجام عن الجهاد المقدس ضد الفرنجة كان يعد في نظره جريمة لا تغتفر. وبعد أن استولى على حمص بعث برسالة إلى مصر كرر فيها موقفه السابق قائلاً: «لم يكن تحركنا من أجل انتزاع مُلك لأنفسنا، ولكن لنعلي راية الجهاد.» وكي يبرر حربه ضد الإمارات الإسلامية المنافسة شرح أن الجهاد المقدس هو حافزه إلى تلك الحرب فقال: «لقد أصبح هؤلاء الرجال أعداء يحولون دون إنجاز غايتنا بالنسبة لهذه الحرب.» وأكد في رسائل أُخرى أن الغاية من التوسع والاستيلاء على بلاد أمراء المسلمين إنما هي لاستنفار الرجال في تلك الإمارات وحشدهم لمهاجمة بلاد الكفار. ففي رسالة إلى بغداد اتضح أن صلاح الدين إنما كان يمهد بواسطة فتحه البلاد الطريق لغزو بلاد الكفار إذ قيل: «إنما يعدُه طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار.» وبعد فتحه حلب أكد أنه لن ينشغل منذ هذا التاريخ إلاّ بمحاربة الفرنجة، لأن أحسن ما يعبر به عن شكره لله على ما أنعم عليه من انتصارات أدت إلى توسيع دولته، إنما هو مهاجمة الكفار وطرد شبح الكفر عن بلاد الإسلام.

من هنا فإن ما كتبه بهاء الدين ابن شداد، وهو يلخص سيرة صلاح الدين، لا يبدو إطراء أملته المجاملة، بل جاء تعبيراً عن رأي أبناء عصره فيه. يقول ابن شداد في هذا الصدد: «وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلاّ في الجهاد أو



LAU LIBRARY
BEIRUT

في الإرفاد لصدق لبرّ في يمينه. ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً.... ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده....»(٧٩)

بعد أن نجح صلاح الدين في ضم حلب إلى سلطته، أصبح يقف على رأس إمبراطورية واسعة تمتد من برقة غرباً حتى مجرى نهر دجلة في الشرق. ولم يعرف المشرق الإسلامي منذ قرنين حاكماً بمثل هذه القوة يسيطر على رقعة من الأرض بمثل هذا الاتساع؛ كنوز مصر وثراؤها في يده، وكبرى مدن الشام دمشق وحلب خاضعتان لسلطته، وأمراء باقي مدن الشام والجزيرة حتى أسوار مدينة الموصل يأتمرون بأمره. أمّا أمير الموصل فكان يرتعد خوفاً منه، وخليفة بغداد لا يضن عليه بالدعم والتأييد، بينما كان السلطان السلجوقي في الأناضول يسعى لخطب وده، ولم تعد الإمبراطورية البيزنطية، العدو التقليدي للمسلمين، تشكل تهديداً له. في مثل هذا الحال، لم يبق أمام السلطان صلاح الدين من هدف إلاّ أن يحرر فلسطين وسواحل لبنان وسورية من ربقة الاحتلال الصليبي.

## بين فتح حلب وانتصار حطين

وصل صلاح الدين إلى دمشق بعد أن فرغ من أمر حلب. وعندما استراح من عناء السفر خرج بجيشه وأغار على مملكة الفرنجة في فلسطين، فاجتاح مدينة بيسان وأحرقها في جمادى الثانية ٥٧٩هـ/ أيلول (سبتمبر) ١١٨٣م. وعند خروجه من دمشق كان جيش الإفرنج تجمع في معسكره في صفورية، إلى الشمال الغربي من الناصرة، وتقدم نحو جيش المسلمين الذي تمركز عند قرية عين جالوت بعد أن ترك بيسان تحترق. ولمّا رأى قادة الفرنجة تفوق جيش صلاح الدين توقفوا في قرية الفولة قريباً من جبل طابور (جبل الطور)، وتجنبوا الاشتباك مع المسلمين على الرغم من محاولات استدراجهم إلى المعركة. وبما أن هذه المحاولات لم تنجح قرر صلاح الدين العودة إلى دمشق، وأصدر إلى قادة عسكره الأوامر بمغادرة أرض فلسطين. لكنه ما لبث أن قاد جيشه متوجهاً نحو الكرك. كان تدمير هذا الحصن وإجراء الحساب مع صاحبه، الأمير الفرنجي رينالد دو شاتيون (أرناط)، أمنية طالما راودت خاطر السلطان صلاح الدين. وكان حصن الكرك، منذ أن أُنشئ بأمر الملك فولك سنة ١١٤٢، يتحكم في طرق القوافل بين سورية ومصر، وبينها وبين الديار الحجازية. وكانت قوافل التجار ومواكب الحجيج الشامي لا تجوز هذا الحصن إلاّ بعد أن تؤدي رسوم العبور لمن تملكه من البارونات الصليبيين. هذا إضافة إلى ما



LAU LIBRARY
BEIRUT

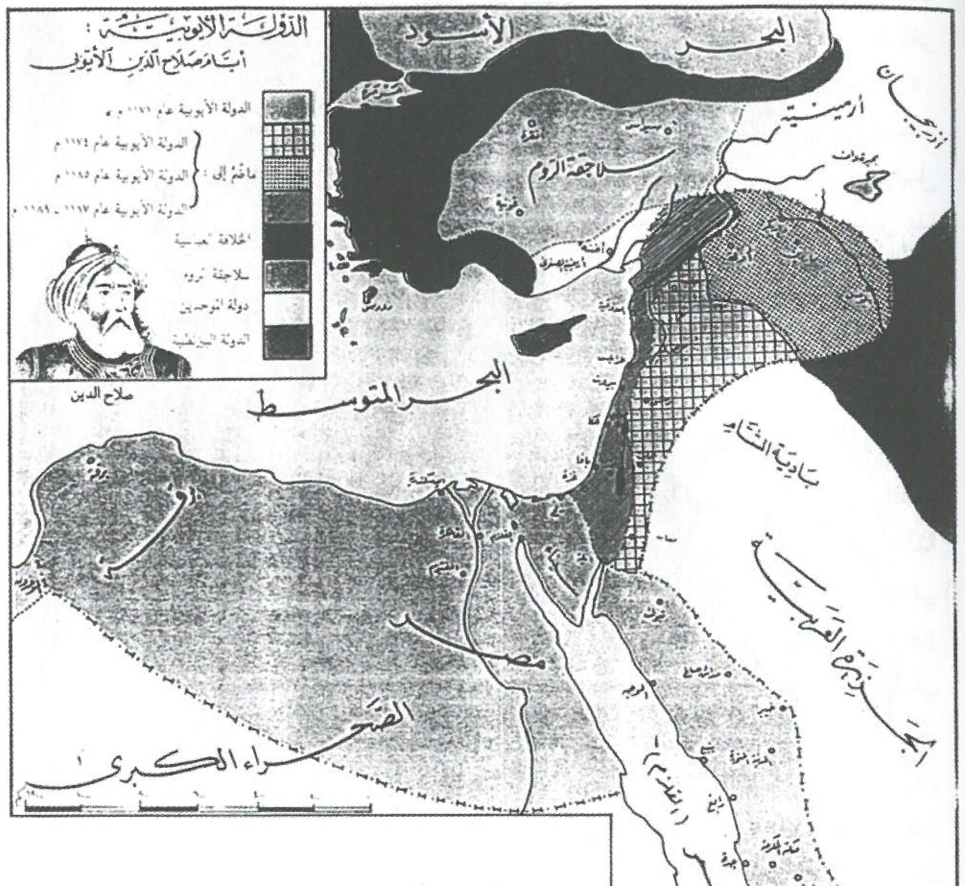


صلاح الدين الأيوبي : [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م]: يوسف بن أيوب، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملك الناصر، ولد بتكريت، دخل مع أبيه وعمه شيركوه في خدمة نور الدين محمود زنكي صاحب دمشق وحلب والموصل. اشترك مع عمه في حملة وجهها نور الدين لفتح مصر سنة ٥٥٩هـ. وبعد وفاة عمه استقل بمصر مع اعترافه بسيادة نور الدين. وبعد موت نور الدين سنة ٥٦٩هـ ضم صلاح الدين البلاد الشامية والجزيرة، فأهله ذلك لرد هجمات الصليبيين.
(الأعلام: ٩/٢٩١)

عرف عن أرناط من عدم تقيده بالمعاهدات والاتفاقيات التي تبرم مع المسلمين. وصل صلاح الدين إلى الكرك، وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١١٨٣ انضم إليه أخوه الملك العادل ومعه تعزيزات عسكرية قدم بها من مصر. اجتاح المسلمون بلدة الكرك ففر أهلها والتجأوا إلى الحصن، وبدأت مجانيق الحصار تقذف أسواره وأبراجه بالحجارة. وفي أثناء الحصار حدثت نادرة طريفة تجلت فيها أريحية النبلاء وأخلاق الفروسية، فقد صودف داخل الحصن إجراء حفل زواج ابن لزوجة أرناط على الأميرة إيزابيل أخت الملك بلدوين الرابع الصغيرة، ولمّا أخذت الحجارة تتساقط على الحصن بدا الاضطراب على المشاركين في الحفل، لكن والدة العريس أمرت بإعداد بعض الأطباق الخاصة بالوليمة وأرسلتها إلى صلاح الدين الذي أمر، إزاء هذه اللفتة النبيلة، بألاّ ترمى حجارة المجانيق على الجناح الذي يقام فيه العرس كي يتم الحفل من دون إزعاج، بينما استمر رشق الحجارة على الأجنحة الأُخرى من الحصن. وكان أمير الكرك استنجد بالملك بلدوين عندما اقترب صلاح الدين من المدينة. فخرج جيش الفرنجة يقوده الملك المريض (المقعد) محمولاً على محفة، ولمّا شعر صلاح الدين باقتراب الجيش أمر بفك الحصار والعودة إلى دمشق. وفي صيف السنة التالية (١١٨٤)، عاد صلاح الدين فكرر محاولة الاستيلاء على الكرك، لكنه أدرك، كما في المرة السابقة، أنه أمر يصعب تحقيقه، وقرر الرجوع إلى دمشق، إلاّ إنه أمر قسماً من قواته بأن يغير على المناطق الفلسطينية الداخلية مستغلاً وجود الجيش الفرنجي في وادي عربة بعد أن استدعي لتقديم المساعدة للكرك. فاقتحم جنود صلاح الدين نابلس ونهبوها وحرقوا مخازنها ومؤسساتها، وساروا إلى سبسطية واستنقذوا من كان فيها من أسرى المسلمين، ثم تقدموا نحو جنين فعاثوا وأفسدوا قبل أن يعودوا إلى دمشق. وبعد مضي فصل الشتاء توفي الملك بلدوين الرابع، واختير ابن أخته بلدوين الخامس، الذي لم يتجاوز عمره ٦ أعوام، ليتولى العرش. وعُيّن الكونت ريموند الثالث، أمير طرابلس، وصياً على العرش، فسارع إلى ترتيب هدنة مع صلاح الدين لأربعة أعوام. وكان الفرنجة بأمس حاجة إلى هذه الهدنة، فهم في وضع لا يمكنهم من مجابهة صلاح الدين، أي تحت وطأة القحط الذي ضرب البلاد حتى باتت المجاعة تهدد حياة سكانها. ولاقى اقتراح الهدنة، الذي عرضه ريموند الثالث، رضاً عند صلاح الدين الذي كان يستعد للتوجه إلى الجزيرة ومنطقة الموصل في ضوء التطورات المقلقة التي حدثت هناك، واستدعت معالجة سريعة لا تحتمل الإرجاء. فتم عقد اتفاقية الهدنة في ربيع سنة ١١٨٥ لأعوام أربعة. وغادر صلاح الدين دمشق نحو منطقة الجزيرة، وقرر محاصرة الموصل مجدداً، لكن المرض الذي أصابه منعه من تنفيذ ذلك، فرقد على فراش المرض في حرّان. وعندما تماثل للشفاء أرسل إليه أمير



LAU LIBRARY
BEIRUT

الموصل، عز الدين مسعود، يطلب المصالحة، فتم الاتفاق على الصلح بينهما بعد أن اعترف الأخير بالتبعية للدولة الأيوبية، وضُرب اسم صلاح الدين على العملة، وخُطب باسمه على منابر الموصل.[٨٠]

## فتح الموصل يعجل في المعركة الفاصلة

ضمنت اتفاقية الصلح التي عقدت بين صلاح الدين وعز الدين مسعود، أمير الموصل، اعترافه بالتبعية لصلاح الدين. كما نصت على أن تكون المناطق الواقعة شرقي نهر دجلة والممتدة إلى جنوب الموصل، وخصوصاً أربيل وشهرزور، تابعة للإدارة المباشرة للسلطان وفي يده صلاحية تعيين الأمير في كل منها. وكان إصرار صلاح الدين على أخذ هذه الصلاحية من عز الدين مسعود بهدف ضمان ولاء الأخير له. وقد ساهمت هذه الاتفاقية في توسيع حدود مملكة صلاح الدين حتى باتت تحاذي بلاد فارس من جهة الشرق.

بعد أن أحرز صلاح الدين هذا الإنجاز السياسي الضخم عاد إلى دمشق، ووصل إليها في نيسان/أبريل ١١٨٦. وعلى الساحة الفرنجية مات الملك بلدوين الخامس عن عمر لا يتجاوز ٩ أعوام. وبموته تفجرت الصراعات السياسية بين زعماء الفرنجة بشأن وراثة العرش. كان هناك قسم تتزعمه والدة الملك المتوفى سيبيل وزوجها غي دو لوزينيان، وقسم آخر كان يتزعمه ريموند الثالث الذي كان عُيّن وصياً على عرش بلدوين الخامس لعشرة أعوام. أسفر هذا الصراع، في نهاية المطاف، عن نجاح الطرف الأول، فنودي بسيبيل وزوجها غي دو لوزينيان ملكاً وملكة على مملكة بيت المقدس. أثار هذا التتويج سخط الكونت ريموند الثالث، أمير طرابلس، الذي كان يرى أنه الأحق بعرش المملكة، لا بحكم كونه وصياً شرعياً على الملك المتوفى فحسب، بل أيضاً كونه سليل أسرة الملوك في الدولة اللاتينية، إذ كان حفيد الملك بلدوين الثاني. توجه ريموند الثالث إلى مجلس البارونات الذي كان منعقداً في مدينة نابلس كي يصدر قراراً يلغي شرعية تتويج غي دو لوزينيان. لكن المجلس لم يصدر القرار الذي توخاه، وبالأحرى استبعد القرار الصادر ترشيح ريموند الثالث للعرش ورشح شخصاً آخر. عندها أعلن ريموند عصيانه للملك الجديد، وعدم اعترافه به وتحصن في طبرية. ولمّا طالبه الملك بإرجاع الأموال التي تلقاها كونه وصياً على الملك المتوفى، رفض ريموند الطلب وتوجه إلى صلاح الدين طالباً حمايته. أسرع السلطان في إرسال كوكبة من فرسانه إلى طبرية، ومعهم جماعة من أسرى الفرنج الذين كانوا في سجون دمشق إكراماً للكونت الفرنجي المتمرد على ملك الإفرنج

والداخل في حمايته. وقام صلاح الدين في الوقت نفسه بالاستجابة لطلب تجديد الهدنة الذي تقدم به الملك غي دو لوزينيان، والتي كانت تشمل أيضاً أرناط، أمير الكرك والشوبك.(٨١)

لم يمضِ وقت طويل بعد تجديد الهدنة حتى علم أرناط، أمير الكرك، بأن هناك قافلة تجارية ضخمة قادمة من القاهرة إلى دمشق. وكانت قوافل المسلمين التجارية اعتادت الخروج بين البلدين والمرور عبر الأراضي التي يسيطر عليها الفرنجة في أيام السلم لتصل إلى غايتها بسلام بعد أن يؤدي أصحابها رسوم المرور. ولمّا كانت هذه القافلة تخترق الطريق الوعرة في جبال مؤاب عند وادي موسى، هاجمها أرناط وقتل الجنود المصريين الذين يحرسونها، وأسر من فيها من التجار والمسافرين هم وأسرهم، وساقها بحمولتها الكاملة إلى حصن الكرك. وصل الصريخ إلى صلاح الدين وبلّغه بما حدث، فأرسل على الفور وفداً إلى أرناط يطالبه بالإفراج عن التجار الأسرى وتعويض البضائع المنهوبة عملاً بشروط الهدنة. لكن الأخير رفض استقبال أفراد الوفد الذين توجهوا إلى الملك غي دو لوزينيان وعرضوا عليه الأمر، فسارع إلى إصدار أوامره إلى أرناط بضرورة إصلاح ما أفسده. لكن أرناط، الذي كان يشعر بأن له الفضل في فوز الملك بعرش المملكة، لم يلتفت إلى الأمر الملكي، ولم يكن الملك قادراً، أو ربما لم يكن راغباً في إجباره على الامتثال.(٨٢)

لمّا علم صلاح الدين بغدر أمير الكرك بالقافلة كان في قمة الاستعداد لغزو بلاد الفرنجة، وكان طالب في كتبه إلى أمراء النواحي في مملكته بإرسال العساكر إلى دمشق مساهمة منهم في الجهاد المزمع عليه. وعندما علم أمراء الفرنجة بحادث القافلة أدركوا أن صلاح الدين لن يمر عليه مر الكرام، وسيترتب على ذلك نتائج عسكرية لم تكن دولة الفرنجة مستعدة لها. فأسرع أمير أنطاكية بوهِمند إلى تجديد الهدنة مع السلطان. أمّا ريموند الثالث، أمير طرابلس، فعقد هدنة بينه وبين السلطان وجعلها تشمل إمارة طبرية التي تحكمها زوجته، على الرغم من أن هذه الإمارة كانت ضمن سيادة ملك القدس الذي قد ينخرط في حرب ضد صلاح الدين. وبهذا ضمن ريموند الثالث، أو كان يطمح على الأقل إلى الحصول على تعاطف السلطان معه في مطالبته بعرش مملكة القدس. ولمّا شرع صلاح الدين بعد ذلك في غاراته على إمارة الكرك استغل هذه المعاهدة مع ريموند الثالث واستخدم الأراضي الواقعة تحت نفوذه في منطقة الجليل لاستخدام جيشه وتسهيل تحركاته، وهذا ما حدا الملك على الإسراع إلى مصالحة الأمير العاصي وإعادته إلى حظيرة الطاعة.(٨٣)



LAU LIBRARY
BEIRUT

## مقدمات حطين

في أواخر محرم ٥٨٣هـ/نيسان (أبريل) ١١٨٧م، خرج صلاح الدين في عسكر دمشق وقواته الخاصة (جنود الحلقة) وعسكر في رأس الماء على مشارف دمشق ينتظر وصول عساكر الولايات التي استنفرها. وكان كتب إلى كل أمراء مملكته بإرسال عساكرهم الذين تعهدوا بوضعهم في تصرفه عندما تحين ساعة الجهاد. واشتملت قائمة عساكر الولايات المستنفرة على: مصر؛ الموصل؛ إمارات الجزيرة والمشرق، كأربيل وحرّان وديار بكر وماردين والرها؛ الولايات الشامية، كحلب وحمص وحماة وغيرها. لم ينتظر السلطان وصول عساكر الجهات التي كتب إليها، وخرج بنفسه على رأس بعض السرايا واتجه نحو بصرى، وترك ابنه الأمير الأفضل في معسكر رأس الماء حتى يتكامل وصول العساكر. وكان توجهه إلى بصرى ليكون على مقربة من طريق الحجاج، وقد حان موعد عودتهم إلى الشام، إذ كان يخشى أن يتعرض أمير الكرك لموكبهم، كما كانت عادته في اعتراض القوافل، فأحب أن يكون على أهبة الاستعداد تحسباً لعدوان هذا الأمير الغادر. ولمّا اطمأن إلى وصول الحجاج إلى مأمنهم، ترك موقعه عند بصرى واتجه جنوباً نحو الكرك والشوبك كي يمنع هذا الأمير من التعرض للقوات المصرية التي طلب من أخيه الملك العادل أن يخرج بها من مصر وينضم إلى عساكر المسلمين الذين بدأوا يتجمعون في معسكر رأس الماء عند دمشق. وعندما وصل إلى الكرك باشر الإغارة على مزارعها وبساتينها وأغلق المداخل إليها ومنع الدخول والخروج منها، وفعل الشيء نفسه في الشوبك، فشلّ بذلك حركة أرناط وعساكره وألزمهم البقاء في مواقعهم وراء الأسوار، ومنعهم من التصدي للقوات المصرية التي اجتازت المنطقة ووصلت إلى معسكر المسلمين من دون أن يتعرض لها أحد بسوء.

استمرت هذه الحملة شهرين توافد خلالها العساكر المسلمون إلى معسكر الأفضل ابن صلاح الدين، فأخذ يرسل سريّة وراء أُخرى للإغارة على مناطق الفرنجة في الجليل. وضمن هذه الفعاليات خرج أمير حرّان، القائد مظفر الدين كوكبري، في جزء من عساكر الشام، والأمير صارم الدين قايماز النجمي على عسكر دمشق، واجتمعوا جميعاً وأغاروا على معسكر الفرنجة في صفورية واشتبكوا مع فرسان الداوية والإسبتارية الذين كانوا خرجوا لإخضاع الكونت ريموند الثالث، الذي سبق أن تمرد على الملك غي دو لوزينيان وتحصن في طبرية قبل أن تتم تسوية أمر عصيانه ومصالحته مع الملك. ذاقت هذه القوة مرارة الهزيمة التي ألحقها بها المسلمون عند كفر كنا حتى إنه لم ينج منها إلاّ ثلاثة أنفار، بينما قتل الباقون أو وقعوا في الأسر.

تلقى السلطان صلاح الدين البشارة بهذا النصر حين كان لا يزال في نواحي

الكرك، وقبل أن يعود شمالاً ويعسكر في عشترا. ثم عرض قواته في منزله الجديد، فأحصى ١٢,٠٠٠ فارس باستثناء من لحق بالجيش من الغلمان والمتطوعين. فترك عشترا ونزل إلى الأقحوانة عند الساحل الجنوبي لبحيرة طبرية، ثم شرع في تطويق طبرية، فسقطت المدينة في يده، بينما صمدت قلعتها وظلت محاصرة.[٨٤]

## انتصار حطين والطريق إلى القدس

عندما وصل نبأ قطع صلاح الدين نهر الأردن غرباً ونزوله إلى الصنبرة، دعا الملك اللاتيني غي دو لوزينيان مجلس البارونات إلى الانعقاد في المقر الملكي في مدينة عكا، وكان الكونت ريموند الثالث، الذي كان حديث عهد بمصالحة الملك، أول المتحدثين. وكان رأيه أن يتبع جيش الفرنجة خطة دفاعية، ولا يبادر إلى الهجوم بسبب عدم جدواه في مثل ذلك الصيف القائظ. وقدّر أن صمود الفرنجة أمام هجوم يشنه صلاح الدين سيؤدي بالضرورة إلى فشل الخطة الإسلامية، لأن صلاح الدين لا يستطيع أن يحتفظ بكامل قواته مرابطة أمام خطوط الدفاع الفرنجية مدة طويلة في تلك المنطقة الوعرة الجافة، وستضطره حرارة الطقس إلى التراجع. وأضاف أن إرجاء الاشتباك مع المسلمين سيمكّن الإمدادات العسكرية، التي وعد أمير أنطاكية إرسالها، من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت المناسب. لاقى رأي الكونت ريموند هوى في نفس قادة العساكر ومالوا إلى تأييده، بينما عارضه رينالد دو شاتيون، أمير الكرك، وجيرار دو ردفوت، أمير فرسان الهيكل، اللذان اتهما الكونت ريموند الثالث بالجبن وببيع نفسه للمسلمين. وكان الملك غي دو لوزينيان رجلاً إمَّعة يقبل آخر رأي يسمعه، فقبل رأي هذين الأميرين، وأمر الجيش بمهاجمة طبرية. تحرك الجيش الفرنجي ووصل إلى صفورية بعد ظهر يوم ٢ تموز/يوليو، وعسكر هناك، حيث تكثر المياه وتتسع المراعي ويتميز الموقع بتضاريس طبيعية مريحة. وما إن حط الجيش رحاله حتى وصل رسول الكونتيسة، صاحبة طبرية وزوجة ريموند الثالث أمير طرابلس، يحمل بشارة سقوط طبرية في يد صلاح الدين. عقد الملك اجتماعاً طارئاً للبارونات للتشاور في الوضع، فأبدى قادة الفرسان تعاطفهم مع الأميرة المحاصرة في قلعتها، بينما أخذ أبناؤها الذين كانوا مع الجيش يتوسلون ودموعهم منهمرة لإنقاذ والدتهم، وبهذا استقطبوا عطف أغلبية الحضور. ومرة أُخرى، أعاد ريموند الثالث التشديد على رأيه الذي سبق أن طرحه في عكا، وأكد أنه مستعد للتضحية بطبرية في سبيل إنقاذ المملكة، فقبل المجلس رأيه وتقرر البقاء في معسكر صفورية، وعاد أعضاء المجلس كل إلى مخدعه. وما هي إلاّ سويعة حتى عاد أمير فرسان الهيكل إلى خيمة



LAU LIBRARY
BEIRUT

الملك ليحتج على قبوله برأي ريموند الثالث ويبدي استهجانه لاستجابة أركان المُلك لرأي رجل خائن مثله. ومرة أُخرى اقتنع الملك برأيه، وأمر المنادين بأن يعلنوا رحيل الجيش عندما يطلع الفجر من أجل المسير إلى طبرية.

بُلّغ صلاح الدين قرار الملك بالرحيل، وعرف الطريق التي سيسلكها الفرنجة في سيرهم نحو طبرية. وفي هذا الوقت كان صلاح الدين يعسكر قريباً من قرية كفر سبت التي تبعد نحو خمسة أميال إلى الجنوب الغربي من قرية حطين. فترك موقعه وقطع التلال الوعرة ليصل إلى الطريق المنحدرة من حطين نزولاً إلى شاطئ البحيرة، حيث انضم إليه جيشه، الذي كان استولى على مدينة طبرية، وضرب خيامه في هذا الموقع الغني بالمراعي وينابيع الماء. ولمّا وصل جيش الفرنجة بعد ظهر يوم ٣ تموز/يوليو، وجد صلاح الدين معسكراً أمامه، فنزل الهضبة عند حافة المنحدر، وكان قرنا حطين وراءه، وهما تلتان صخريتان ترتفعان نحو مئة قدم عن سطح البحر. وكانت البقعة التي خيّم فيها الفرنجة خالية من الماء أو الآبار، ويفصل جيش المسلمين بينهم وبين ماء البحيرة. وكان الطقس حاراً جداً ورطوبة الجو عالية والهواء راكداً، فلم تغب شمس ذلك اليوم حتى كانت أكباد جنود الفرنجة تتلظى من شدة العطش، وصاروا يبحثون عن الماء ولا ماء، فباتوا الليل عطاشى. وفجر اليوم التالي استُكمل تطويق معسكر الفرنجة، وأمر السلطان بإحراق الهشيم والحشائش اليابسة المحيطة بهم فما زادتهم النار والدخان إلاّ رهقاً. وعندما ذر الصباح ضياءه بدأ المسلمون بالإغارة على أطراف المعسكر، يرشقون الفرنجة بالسهام من بعيد، وتتربص جماعة منهم بكل من يحاول اللحاق بالمهاجمين.

ظل جيش المسلمين على هذا المنوال من الكر والفر، بينما عزائم الفرنجة تخور ساعة تلو الأُخرى. وفي محاولة يائسة من فرسان الفرنجة لاختراق الطوق المضروب عليهم، خرج الكونت ريموند الثالث بفرسانه، فأفرج المسلمون لهم حتى أصبحوا خارج الطوق، ثم أغلقوا تلك الفجوة، فلم يتمكن الخيالة من العودة إلى أصحابهم ولم يكن أمامهم من مخرج إلاّ الانسحاب من المعركة والنجاة بأنفسهم. وكما فعل ريموند الثالث وفرسانه فعل أيضاً أمير يُبْنى باليان بن بارزان وأمير صيدا رينالد دو شاتيون، والمسلمون يفرجون لهم فيتركون الميدان ويولون الأدبار نحو بلادهم. ثم ما لبثت مقاومة الفرنجة أن انهارت واستسلم من بقي منهم في قيد الحياة، وشرع المسلمون في إحصاء الأسرى وتصنيفهم. وكان أسقف مدينة عكا بين القتلى، واستولى المسلمون على الصليب المقدس الذي كان معه. ولمّا وصل جند المسلمين إلى خيمة الملك وجدوه طريحاً على الأرض لا يستطيع الحراك بعد أن خارت قواه، ثم اقتيد هو وكبار القادة الأسرى إلى خيمة السلطان صلاح الدين الذي

قدم لهم الإكرام الذي يليق بمراتبهم. وكان بين الأسرى أرناط، أمير الكرك، الذي سبق أن نذر السلطان دمه بعد حادثة اعتدائه على القافلة الآتية من مصر إلى دمشق. أبقى السلطان على حياة كل من الملك الأسير والأسرى من النبلاء والأمراء، لكنه أمر بقتل أمراء أخوية فرسان الهيكل (الداوية) وأخوية الإسبتارية، بينما قتل بنفسه أمير الكرك، ريتالد دو شاتيون، براً بيمينه ووفاء بنذره قتل هذا الأمير المتغطرس الغادر.[٨٥]

قبل حطين تعرض الفرنجة لكثير من الهزائم، وذاق بعض ملوكهم وكبار أمرائهم ونبلائهم ذل الأسر، لكن لم يسبق أن محي جيشهم أو لاقى الخسائر البشرية التي لاقاها في حطين. وكثيراً ما كان زعماء المسلمين الذين سجلوا انتصارات عسكرية على الفرنجة ينالون المجد والشهرة، لكن لم يحدث أن حاز أي منهم ما حازه السلطان صلاح الدين من المجد وبعد الصيت، إذ أضحى بعد معركة حطين الزعيم الذي لا يجارى، بل سيد المسلمين وبطل الإسلام بلا منازع. وكان حجم الخسائر التي مني بها الفرنجة من الفداحة بحيث يصعب أن تعوض، فمن جيش جرّار بلغ قوامه ١٢,٠٠٠ مقاتل بين فارس وراجل لم ينج إلاّ نحو ١٠٠٠ فقط، هم الذين استطاعوا أن يفروا من ساحة المعركة بعد أن سهل لهم المقاتلون المسلمون، وعن قصد، عملية الفرار. أمّا الجند الباقون فإمّا أفناهم السيف وإمّا أدمى معاصمهم القيد واقتيدوا أسرى إلى دمشق ليباعوا عبيداً في أسواقها.

كان هذا العدد الضخم هو أقصى ما استطاع الفرنجة تجنيده بعد أن أصدر الملك غي دو لوزينيان مرسومه الملكي بالتجنيد الإلزامي لكل رجل قادر على حمل السلاح. فخرجوا جميعاً فرساناً ومشاة واحتشدوا في معسكر صفورية ليقودهم حظهم العاثر، أو بالأحرى القرار الانفعالي، إلى مصيرهم المحتوم عند قرني حطين. فباتت حصون الفرنجة وقلاعهم ومدنهم وقراهم في فلسطين خالية من المدافعين والمقاتلين اللهم إلاّ من الحاميات التي كانت مكلفة أعمال المراقبة أو الحراسة العادية. وظل السكان الفرنجة من المسنين والشيوخ والنساء والأطفال والمرضى والمقعدين عرضة لهجوم المسلمين لن يجدوا من يستبقيهم في قيد الحياة إلاّ استسلامهم للمسلمين. وفي كثير من الحالات تسامح القائد صلاح الدين الذي تميز بالإشفاق والرفق.

أذهل الانتصار الجارف الذي أحرزه المسلمون في حطين عقول الفرنجة، وملأت الدهشة نفوس قادة المسلمين الذين لم يتوقعوا، بل لم يتوقع أحد حتى القائد صلاح الدين نفسه، أن تتهاوى مملكة بكاملها خلال سويعات قليلة. وربما لم يستوعب ذهن صلاح الدين عظم ما أنجز في حطين إلاّ بعد أن رأى قوافل أسرى الفرنجة تساق إلى دمشق كالأغنام. عندها قرر أن يعمل بسرعة ليقطف ثمار هذا



النصر، فأمر قواته بعد أن كان وزعها باقتحام مواقع الفرنجة وحصونهم ومدنهم وقراهم على أرض فلسطين، في الجليل والساحل ومرج ابن عامر وجبال السامرة. ولم يمضِ شهران على حطين حتى كانت فلسطين في يده، ما خلا حصناً هنا أو حصناً هناك. وسيستغرق محو آثار هذا الانتصار قرناً كاملاً من الزمان دفعت أوروبا كلها ثمنه مالاً ورجالاً لتجد أن هذا الجهد سيذهب هو الآخر هباء منثوراً على يد الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون والأشرف خليل.

## مسيرة التحرير

في صبيحة يوم الأحد الموافق فيه ٥ تموز/يوليو ١١٨٧، غداة الانتصار في حطين، عاد صلاح الدين إلى طبرية المحترقة حيث التجأت صاحبتها الكونتيسة زوجة الكونت ريموند، أمير طرابلس، مع الحامية الفرنجية داخل أسوار القلعة. لكنها أيقنت أن أي محاولة للمقاومة ستكون عديمة الجدوى في ظل هزيمة الفرنجة في حطين، ولذلك رحبت بفكرة الاستسلام التي ضمنت لها ولمن معها الخروج الآمن من القلعة والانضمام إلى زوجها، أمير طرابلس، الذي كان نجا من المعركة. قبل السلطان صلاح الدين بهذا الشرط الذي أصبح حجر الزاوية في سياسته لتحرير باقي الأجزاء في فلسطين. وصار نموذج استسلام الفرنجة في طبرية في مقابل ضمان أنفسهم وأموالهم والانضمام إلى إخوانهم الفرنجة خارج فلسطين، هو النموذج الذي اتبع في أثناء سير عمليات التحرير. كانت طبرية عاصمة إمارة الجليل الفرنجية، وهي أول إمارة إقطاعية أنشأها الصليبيون على أرض فلسطين، والتي كانت منذ نشوئها تقاسم حكام المسلمين نصف المداخيل السنوية للمناطق شرقي نهر الأردن في: البلقاء، والصلت، وعجلون، وإربد، وهضبة الجولان حتى حدود منطقة حوران إلى المشرق. ولمّا تم الاتفاق على التسليم بين الأميرة والسلطان خرجت معززة مكرمة إلى إمارة طرابلس مصحوبة بكوكبة من فرسان المسلمين.

وفي اليوم نفسه الذي سقطت طبرية سقطت أيضاً مدينة الناصرة التي أُوكل أمرها إلى القائد مظفر الدين كوكبري، أمير حرّان، الذي كان أدى دوراً مهماً في استيلاء صلاح الدين على منطقة الجزيرة الفراتية. ولم تكن الناصرة في ذلك الوقت سوى قرية صغيرة لا أسوار لها، فالتجأ أهلها، وكانوا في معظمهم من رجال الإكليروس اللاتين، إلى كنيسة البشارة الحصينة واحتموا بأسوارها، لكن التحصينات لم تصمد أمام هجوم المسلمين فاقتحموها بالقوة وقتلوا من كان بداخلها.

من طبرية أصدر السلطان صلاح الدين أمراً إلى تقي الدين، ابن أخيه، بالتوجه



LAU LIBRARY
BEIRUT

نحو عكا، وذلك في ٧ تموز/يوليو. ولمّا وصلت كتائبه إلى شفا عمرو أرسل حاكم مدينة عكا، جوسلين، وفداً للتفاوض في شأن تسليم المدينة. وكانت عكا، على ما يبدو، خالية من فرسان الفرنجة ومن القادة العسكريين، ولذلك تولى كبار التجار فيها مهمة التفاوض مع المسلمين، وحمل أحدهم مفاتيح المدينة وسلمها للأمير تقي الدين. ويبدو أن هذا القرار لم يعجب سكانها، فجرت اضطرابات تعبيراً عن احتجاج الأهالي، أُحرق في أثنائها بعض أحياء المدينة. وللسيطرة على الوضع استنجد تقي الدين بالقائد صلاح الدين، الذي خرج من طبرية ونزل في اليوم التالي إلى تل الفخار شرقي مدينة عكا، ثم انضمت إليه كتائب أُخرى كانت تعمل في منطقة الجليل. ولمّا رأى أهل عكا ذلك طلبوا الأمان من السلطان، وكان قد خيّرهم بين الخروج الآمن من المدينة وبين البقاء فيها مع ضمان أرواحهم وأموالهم في مقابل دفع الجزية وفقاً لأحكام الإسلام في أهل الذمة. فضل المسيحيون الأوروبيون الخروج الآمن، بينما اختار المسيحيون العرب الأصليون أبناء البلاد البقاء في وطنهم. وبدأ الفرنجة يغادرون المدينة حاملين معهم أمتعتهم. ثم سمح صلاح الدين لجنوده بدخول المدينة، فأسرع كل منهم في ركز رمحه على دار أو دكان أو مخزن أو حديقة ليثبت بذلك حقه في الامتلاك، كما كانت الأعراف المتبعة في ذلك الوقت عند الفرنجة (وهو الأمر نفسه الذي فعله الفرنجة قبل ما يقرب من قرن عندما اقتحموا مدن المسلمين في فلسطين وغيرها). وكانت حيازة هذه الأملاك سبباً في استقرار عناصر من جيش صلاح الدين بالمدينة، وأصبحوا نواة السكان الذين امتلأت بهم عكا فيما بعد. ومن الملاحَظ في هذا السياق أن المصادر الإسلامية لم تشر، من قريب أو من بعيد، إلى عودة أهالي عكا القدامى الذين أجلوا عنها وتفرقوا في البلاد الإسلامية عندما احتلها الفرنجة. ولم يفعل صلاح الدين ما فعله سلفه عماد الدين زنكي الذي أتاح للاجئين المسلمين العودة إلى المدن والبلدات التي نجح في استعادتها في منطقة حلب وإمارة الرها ومناطق أُخرى في منطقة الجزيرة قبل ما يقرب من نصف قرن من تحرير مدينة عكا. وعندما دخل صلاح الدين المدينة بدأ يقسم أرباع المدينة وعقاراتها على أقاربه وكبار قادته. فمنح ربع الأخوية التابع لفرسان الهيكل إقطاعاً للفقيه عيسى الهكاري، أمّا هو فأقام بقصر فرسان الهيكل في الحي ذاته، ثم تحول هذا القصر ليصبح مقراً يقيم به والي المدينة بعد أن أمر بإنشاء برج ضخم أضيف إلى القصر. ومنح الأمير تقي الدين عمر، ابن أخيه، مصنع السكر، كما جعل مدينة عكا كلها إقطاعاً لابنه البكر الأمير نور الدين علي الذي لقب بالأفضل، والذي أصبح بعد موت أبيه ملكاً على دمشق وما تليه من بلاد الشام.

ومن أجل إعادة الوجه الإسلامي إلى المدينة المحررة حوّلت كتدرائية الصليب



LAU LIBRARY
BEIRUT

المقدس إلى جامع وأُثبت فيها المنبر. وكانت هذه الكنيسة في الأصل جامعاً سبق أن حوله الفرنجة إلى كنيسة، فأعيدت جامعاً كما كان في البداية. وكان أول خطيب وقف على منبره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الفلسطيني الأصل، وهو الذي أمّ صلاة الجمعة الأولى في منطقة الساحل الفلسطيني منذ أن سقط في أيدي الفرنجة قبل ما يقرب من مئة عام. وبعد ذلك عُيّن الفقيه عبد اللطيف بن أبي النجيب السّهْروردي في منصب الخطابة والإمامة في عكا.

مكث صلاح الدين في عكا أياماً معدودة يرتب أمورها، بينما كانت كتائب أُخرى من عسكره تنشط في الاستيلاء على مواقع وبلدات أُخرى في منطقتي الجليل والساحل انطلاقاً من معسكره الرئيسي في تل الفخار على مقربة من عكا. وفي هذا الصدد فإن المصادر العربية تزدحم بالمعلومات المتعلقة بسير العمليات العسكرية، لكنها لا تعطينا تسلسلاً زمنياً دقيقاً عن ترتيب خضوع البلدات والحصون لسيطرة قواته. إن هذه التقارير تكشف بوضوح أن صلاح الدين حاول الإسراع في استغلال الذهول الذي أصاب القيادة الفرنجية بعد هزيمة حطين للاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من فلسطين حيث سنحت الفرصة لذلك من دون أن يتقيد بخطة عسكرية مدروسة. ويبدو أنه كان مدركاً أن إطالة المدة اللازمة لاستكمال تحرير كل أرجاء فلسطين قد تأتي بنتائج غير محمودة، لأنها ربما تعطي العدو فرصة لالتقاط الأنفاس يتمكن بواسطتها من تعزيز قدرته على الصمود أمام الهجمة الإسلامية. يتجلى موقف صلاح الدين هذا من خلال تتبع التحركات والأنشطة العسكرية التي قام بها على أرض فلسطين، بل من خلال بعض رسائله التي أرسلها إلى أخيه الملك العادل عندما استنفره كي يخرج بجيش مصر ليساهم في عملية التحرير، فأمره بأن يجتاز المواقع التي يتم الاستيلاء عليها بسرعة، وبأن يتجنب المواقع التي تكتنف الصعوبات عمليات احتلالها. لذلك تميز التكتيك الذي استخدمه صلاح الدين بسرعة التحرك والانتقال من منطقة إلى أُخرى، ثم اختيار المواقع الأسهل والامتناع من إطالة المكوث في مواقع أظهر الفرنجة المدافعون عنها قدرة على القتال والمقاومة. كما أنه استغل كل بادرة للاستسلام أبداها الفرنجة، وأظهر قدراً كبيراً من التساهل معهم في منحهم الأمان والخروج بأنفسهم وأمتعتهم وأموالهم خارج فلسطين. وهكذا تمكن من السيطرة على عشرات الحصون والبلدات والمدن من دون قتال.

ولمّا تكامل اجتماع عساكر صلاح الدين في المعسكر الذي ضربه على مشارف عكا، انطلقت عملية تحرير باقي أجزاء فلسطين. وتبيّن مراجعة أخبار الفتوحات، كما وردت في المصادر، صورة لسير عمليات التحرير التي انطلقت من عكا.

لقد انقسمت قوات التحرير إلى أربعة أرتال، وشكل الجيش المصري الذي قاده

الملك العادل رتلاً خامساً.

(١) كان الرتل الأول يتكون من قوات سريعة الحركة عمادها مقاتلون من القبائل العربية وقبائل التركمان. وكان عناصر هذه الوحدات في معظمهم من المتطوعين لا من الجنود النظاميين. اجتاح هذا الرتل المنطقة الساحلية الممتدة من حيفا حتى يافا، وشمل منطقتي اللد والرملة وميناءي قيسارية وأرسوف.

(٢) توجه الرتل الثاني نحو مناطق الجليل الشرقي، ثم اتجه جنوباً نحو جبال السامرة واجتاح في طريقه الأجزاء الغربية لمرج ابن عامر. كان قائد هذا الرتل الأمير حسام الدين عمر بن لاجين، ابن أخت صلاح الدين. وكان فيه القائد مظفر الدين كوكبري الذي أُوكل إليه احتلال الناصرة ومنطقتها وخصوصاً صفورية، التي كانت قبل حطين معسكر الفرنجة الرئيسي. تحرك كوكبري من الناصرة نحو سهل المرج الممتد بين جبل الطور (طابور) واللجون، واستولى على اللجون والفولة وزرعين ودبورية. وكانت الفولة (قريبة من موقع العفولة اليوم) حصناً مهماً لفرسان الهيكل. من اللجون تحرك الجيش نحو الجنوب على طريق جنين – نابلس حتى وصل إلى سبسطية، حيث حولت الكنيسة فيها إلى جامع. ثم تحرك نحو نابلس، وكانت مدينة مختلطة يعيش فيها الفرنجة والعرب جنباً إلى جنب. أمّا الفرنجة فاختاروا الرحيل، بينما ظل المسيحيون الشرقيون العرب على أرضهم ولم يشاؤوا ربط مصيرهم بمصير المسيحيين الأوروبيين. وكان العرب سكان نابلس وضاحيتها أخضعوا الفرنجة لسلطانهم لدى وصول أنباء النصر في حطين، فاستولوا على قلعة المدينة التي لجأ إليها المستوطنون الفرنجة.

(٣) تقدم الرتل الثالث جنوبي جبل الطور على الطريق إلى الفولة، حيث اتجه من هنا شرقاً عبر المرج الممتد بين جبل الطور وحصن كوكب الهوا نحو غور الأردن، مخلفاً وراءه حصني عَفربلا وكوكب الهوا التابعين لفرسان الإسبتارية. ظلت هذه المنطقة جيباً فرنجياً تأخر احتلاله إلى ما بعد السيطرة على أجزاء فلسطين كافة. وبعد أن استولت هذه القوة على بيسان توجهت جنوباً إلى أريحا، ثم اتجهت غرباً نحو القدس مارة بقلعة الخان الأحمر التابعة للداوية (فرسان الهيكل).

(٤) كان الرتل الرابع هو الرتل الذي قاده السلطان صلاح الدين بنفسه نحو المناطق الواقعة إلى الشمال من عكا ومناطق الجليل الغربي المحاذية للبنان. وكان بعض القلاع والمواقع في هذه المنطقة قد سقط في يد المسلمين في أثناء الهجوم الأول الذي استهدف عكا، مثل قلعتي الزيب ومنوات شرقي وادي القرين، وقلعة معليا، التابعة لملك مملكة القدس اللاتينية، وأخيراً قلعة إسكندرونة التي يصفها ابن جبير بأنها بلدة حصينة ذات أسوار، وتقع بين رأس الناقورة والرأس الأبيض على الطريق إلى صور.



وفي هذه الجهة ظهرت بوادر المقاومة الفرنجية حين اصطدمت قوات صلاح الدين التي يقودها ابن أخيه، تقي الدين، بمقاومة الحامية الفرنجية المرابطة في حصن تبنين إلى الجنوب الشرقي من مرفأ صور. ولم يستسلم هذا الحصن إلاّ بعد أن وصل إليه صلاح الدين وأردف قوات تقي الدين التي كانت تحاصره.

بعد تبنين ترك صلاح الدين الحصون الفرنجية في الجنوب اللبناني وقصد مدن الساحل اللبناني، بعد أن ترك مدينة صور وأجّل مهاجمتها، فسقطت صيدا، ثم جبيل، ثم بيروت، لتتوقف الفتوحات في هذه المرحلة عند حدود إمارة طرابلس الفرنجية مع مملكة القدس.

## الطريق إلى بيت المقدس

كان في استطاعة صلاح الدين بعد انهيار المقاومة الفرنجية في الشريط الساحلي اللبناني نقل معركة التحرير إلى إمارتي طرابلس وأنطاكية الفرنجيتين، وكذلك الاستعانة بإمدادات عسكرية جديدة تأتيه من منطقة حلب المجاورة. لكنه ترك هذا الخيار على الرغم من الميزات العسكرية المتوفرة فيه لمصلحته، وفضّل الخيار الأصعب، إذ تغلب في ذهنه العامل الأيديولوجي على العامل البراغماتي، فقرر الاستدارة نحو الجنوب والعودة إلى أرض المعركة في فلسطين حيث ينتظره تحرير مدينة القدس. وباتخاذه خطوة كهذه فإنه يستطيع أن يبرهن للأمة الإسلامية ولرموزها وقادتها السياسيين والروحيين أنه القائد الأجدر بحمل راية الجهاد، وأنه الأحق بنيل تاج تحرير مدينة القدس وتخليصها من ربقة الكفر. أمّا المناطق الشامية، التي لا تزال في أيدي الفرنجة في سواحل سورية أو في غور الأردن وجبال الجليل، فيمكنها انتظار تحريرها إلى ما بعد تحرير القدس. وتستطيع مدينة صور المنيعة التي تحولت إلى مأوى للعناصر الفرنجية المنسحبة من فلسطين أن تنتظر هي الأُخرى. ترك صلاح الدين ساحل لبنان بعد أن سقطت بيروت واتجه جنوباً نحو فلسطين، ولم يتوقف إلاّ عند أسوار مدينة عسقلان في ٢٣ آب/أغسطس ١١٨٧. فاحتلال هذه المدينة الساحلية الحصينة، التي يمكن أن تصبح بوابة الفرنجة الوحيدة إلى أرض فلسطين بعد أن سقطت موانئ عكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا، كان احتلالاً لا بد منه قبل استعادة مدينة القدس، لأنها، فضلاً عن كونها بوابة على البحر، ستظل أيضاً عائقاً قد يعترض طريق وصول عساكر مصر للمساعدة في تحرير القدس، وخصوصاً أن العساكر الذين معه من العراق وسورية قد أرهقتهم في معظمهم معارك متواصلة منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وقد آن الأوان أن يعطوا نصيبهم من الراحة، وينظر في أمر عودتهم إلى بلادهم بعد طول غياب.



LAU LIBRARY BEIRUT

من أجل عزل مدينة القدس تمهيداً لاجتياحها كان على صلاح الدين أن يطهر المنطقة من بقية الحصون والمواقع التي لا تزال في أيدي الفرنجة. وعندما استدعى جيش مصر بقيادة أخيه الملك العادل إلى فلسطين، عندما كان المسلمون في أوج استعداداتهم لمعركة حطين، كان المأمول منه أن يستولي على الحصون الصليبية في جنوب فلسطين. لكن العادل لم يكمل هذه المهمة، فبعد أن غادر مع قواته العريش استولى على حصن الداروم الحدودي (دير البلح) واتجه مسرعاً إلى الشمال، ونزل مع جنده إلى مجدل يابا (ميرابل)، واستولى على حصنها، حيث منابع نهر العوجا (منابع رأس العين)، ومنح أهلها من الفرنجة الأمان، فغادروها إلى مدينة القدس. ثم أرسل قواته من مجدل يابا للاستيلاء على مدينة يافا الساحلية، وتلقى بعدها أمراً بالبقاء في معسكره، وألاّ يغادره انتظاراً لقدوم صلاح الدين من الشمال.

يتبين من بعض الإشارات الواردة في المصادر أن السيطرة الإسلامية على الساحل الفلسطيني لم تكن مكتملة قبل توجه صلاح الدين إلى عسقلان، وأن قيسارية وأرسوف لم تحررا إلاّ في هذه الدفعة على يد بدر الدين دِلْدِرِم وغرس الدين قِلِج القائدين اللذين رافقا حملة السلطان. ويقال أيضاً إن الرملة واللد، وبيت لحم والخليل، وبيت جبرين واللطرون، وغزة وحصن قراتيا (قرب عسقلان)، وتل الصافي حررت في هذا الوقت. وكان الفرنجة أنشأوا هذه الحصون قبل ما يقرب من خمسين عاماً لتطوق مدينة عسقلان الفاطمية تمهيداً لاحتلالها وضمها إلى مملكة القدس اللاتينية. لذا كان انتزاعها من أيدي الفرنجة خطوة لا بد منها لتحرير عسقلان.

عندما قرر صلاح الدين الاستيلاء على عسقلان اصطحب معه الملك الأسير غي دو لوزينيان ومقدم الداوية (فرسان الهيكل) ليساهما في إقناع أهل المدينة بالاستسلام من غير مقاومة. فقد كانت عسقلان، بالإضافة إلى كونها من المدن التابعة للمملكة، جزءاً من أملاك التاج، آلت ملكيتها إلى غي دو لوزينيان حين كان أميراً في يافا، إذ كانت جزءاً من إقطاعه. وكان صلاح الدين ينوي عقد صفقة: إطلاق الملك من الأسر في مقابل المدينة. لكن الطبقة البورجوازية من فرنجة المدينة رفضت هذا العرض، فبدأت المجانيق الإسلامية تمطر المدينة المحاصرة بالحجارة. وانهارت المقاومة بعد أسبوعين عندما أدرك المحاصرون أن بعض أجزاء السور على وشك السقوط، وعندها بدأوا التفاوض في شأن الاستسلام، فاتفق على إعطائهم مهلة أربعين يوماً يتركون خلالها المدينة. وعلى هامش هذه الاتفاقية تقرر إطلاق الملك الأسير. وفي ٤ أيلول/ سبتمبر ١١٨٧، عادت عسقلان إلى حظيرة الإسلام بعد أن مضى على احتلالها ٣٥ عاماً.

انتدب السلطان الفقيه جمال الدين أبو محمد عبد الله بن عمر الدمشقي لولاية



عسقلان وبناء مؤسساتها الإدارية والدينية. وبعد فتحها لم يبق في أيدي الفرنجة من فلسطين إلاّ مدينة القدس، ومن الساحل إلاّ صور. فكتب السلطان رسالة إلى بعض أهله مبشراً بفتحها يقول: «ونازلنا عسقلان... ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفارها وكبّر المؤذنون في أقطارها. ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور، والعزم مصمم على قصد القدس فالله يسهّله ويعجله فإذا يسّر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور والسلام.»(٨٦)

## تحرير مدينة القدس

في يوم الجمعة الواقع فيه ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م، دخل السلطان صلاح الدين قلعة مدينة القدس بعد أن دان له أهلها من الفرنجة بالخضوع والاستسلام. وبهذا الفتح انطوت ٨٨ عاماً أمضتها الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى في أسر الفرنجة الغزاة. وكان يوم دخول صلاح الدين رحاب المسجد الأقصى خاتمة عقود الجهاد في سبيل التحرير، حمل رايته المخلصون من قادة الأمة الإسلامية، كان أبرزهم: قطب الدين مودود، وعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وآخرهم السلطان صلاح الدين الذي توج مسيرة الجهاد الطويلة بالنصر والتحرير. فاستحق بهذا الإنجاز درر المديح التي طوق بها الكاتب عماد الدين الأصفهاني عنقه حين قال:(٨٧)

فلا يستحقُّ القدسَ غيرك في الورى ... فأنت الذي من دونهم فتح القدسا
فطهّرته من رجسهم بدمائهم ... فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجْسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة ... بأن أذان القدس قد أبطل النقسا

عندما كان صلاح الدين يحاصر عسقلان جاءه وفد من أهالي القدس كان أرسل في طلبه وعرض عليه تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها مدن فلسطين الأخرى، كطبرية وعكا وعسقلان، فيمنح الأهالي الأمان على أرواحهم وعيالهم وأموالهم ويخرجون منها بسلام. لكن الوفد رفض هذا العرض السخي، فأقسم صلاح الدين بأن يأخذ القدس بالسيف. وبعد أن استسلمت عسقلان توجه نحو مدينة القدس وحاصرها وشرع في مهاجمتها في ٢٠ أيلول/سبتمبر. ولمّا اشتد عليها الحصار ولم يجد أهلها من يعينهم على الصمود، اضطروا إلى قبول شروط التسليم التي فرضها عليهم السلطان، والتي تقضي بأن يدفع كل فرنجي بالغ عشرة دنانير فدية عن نفسه، وتدفع المرأة خمسة دنانير، ويدفع الطفل ديناراً (وقيل دينارين). أمّا الفقراء والمعدومون



LAU LIBRARY
BEIRUT

منهم فوافق السلطان على أن يدفع عنهم الأمير باليان بن بارزان مبلغاً مقطوعاً مقداره ٣٠,٠٠٠ دينار فدية عن ٧٠٠٠ شخص، وأمهل الفرنجة ٤٠ يوماً يؤدون خلالها الفدية المطلوبة، وإذا مضت المهلة ولم يؤد الرجل ما عليه فإنه يسترق ويصبح عبداً للمسلمين. لكن صلاح الدين لم يكن صارماً في استيداء الفدية من الفقراء، وروي أنه أعفى المئات من الفرنجة من دفعها، ومع ذلك بلغ عدد الذين استرقوا بعد عجزهم عن الدفع ١٥,٠٠٠ شخص سيقوا زرافات إلى أسواق الرقيق في أقطار الإسلام. واعتماداً على المبالغ الكلية التي تم الحصول عليها من الفرنجة الذين كانوا في المدينة عند فتحها، تراوح عدد الذين احتشدوا فيها ما بين ٦٠,٠٠٠ و١٠٠,٠٠٠ إنسان. لكن هؤلاء لم يكونوا في معظمهم من سكانها المقيمين بها، فالقدس لم تكن تتسع في الأيام العادية لأكثر من ٢٠,٠٠٠ شخص أو ٣٠,٠٠٠ شخص في أحسن الأحوال. وقد طرأت هذه الزيادة من سيل اللاجئين الذين لجأوا إليها بعد حطين، وكانوا فروا من منطقتي الساحل والسامرة خوفاً من الاجتياح الإسلامي. وكان المسيحيون المقيمون بالقدس ينقسمون إلى طائفتين متميزتين هما: المسيحيون اللاتين وهم الفرنجة المنحدرون من أصول أوروبية الذين جاؤوا مع الغزو الصليبي واستقروا بها، والمسيحيون الشرقيون من الأورثوذكس واليعاقبة والأرمن والسريان، وهم من أبناء البلد الأصليين وأغلبيتهم الساحقة من العرب. وكانت العلاقة بين الطائفتين يشوبها التوتر لا فقط بسبب الفوارق المذهبية التي أفرزها الخلاف المذهبي بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الشرقية، بل أيضاً بسبب الخلاف العرقي والحضاري والفجوة التي تفصل بين العنصرين الشرقي والغربي. وقد بلغ هذا التوتر إلى درجة التشكيك في الولاء لمملكة القدس اللاتينية. فاتهم المسيحيون الفرنجة إخوانهم المشارقة بالتآمر مع صلاح الدين ضد دولة الفرنجة، وأنهم هم الذين شجعوه على حصار المدينة والاستيلاء عليها. وفي هذا السياق يتحدث بعض الوثائق اللاتينية صراحة عن خيانة المسيحيين العرب والسريان وتآمرهم مع صلاح الدين، في حين تخلو المصادر العربية من مثل هذه التهمة ولا تتطرق إليها أصلاً، إلاّ إنها تذكر المعاملة الحسنة والمميزة التي عومل بها المسيحيون الشرقيون في عكا وعسقلان ونابلس، وربما كانت هذه المعاملة هي الخلفية التي استندت إليها تلك التهم. وعومل مسيحيو القدس المشارقة كما عومل إخوانهم في فلسطين وسمح لهم بالبقاء في بلدهم كأهل ذمة. مكث السلطان صلاح الدين شهراً في مدينة القدس أشرف خلاله على محو آثار العدوان الفرنجي الذي دام نحو تسعة عقود. فأعاد إلى المدينة وجهها العربي وطابعها الإسلامي، ووضع حجر الأساس للمدرسة الصلاحية والمستشفى الصلاحي، وطهر المسجد الأقصى وقبة الصخرة مما دنس حرمتهما في إبان فترة الاحتلال الصليبي الطويلة.(٨٨)



## آخر جيوب المقاومة الفرنجية في فلسطين

عندما حُررت مدينة القدس في ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١١٨٧، كان بعض المناطق الفلسطينية لا يزال في أيدي الفرنجة ولم يسقط بعد في أيدي المسلمين. لم ينشأ هذا الأمر عن ضعف المسلمين في هذه المرحلة، وإنما كان نتيجة الخطة التي اتبعها القائد صلاح الدين والتي تقضي بعدم إضاعة الوقت أمام الحصون المنيعة التي قد تعوق عملية التحرير التي يجب أن تتم بأسرع ما يمكن. وهكذا بقي بعض الحصون في أيدي الفرنجة، كحصون صفد وهونين وكوكب الهوا في فلسطين، وكحصني الكرك والشوبك في منطقة وادي عربة وجبال مؤاب. لكن هذه الحصون لم تكن تشغل بال صلاح الدين لأن اهتمامه كان منصباً على تحرير مدينة صور. فهي المرفأ الوحيد على امتداد الساحل اللبناني - الفلسطيني الذي ما زال تحت سيطرة الفرنجة.

صارت مدينة صور بعد هزيمة الفرنجة في حطين الملجأ الآمن الذي فر إليه الفرسان الناجون، ثم أصبحت ملاذ الفرنجة الذين غادروا المدن الفلسطينية التي استولى عليها المسلمون من عسكريين ومدنيين، بفعل الأمان الذي منحهم إياه السلطان صلاح الدين بعد أن وصل إليها معظمهم. لهذا السبب أصبحت صور خلال الأشهر الأربعة التي أعقبت حطين تشكل تهديداً جدياً لمنجزات صلاح الدين العسكرية، كما صارت في أعين بعض مؤرخي الفرنجة معقد الآمال بعد أن تولى إدارتها المركيز كونراد دو مونفيرا، الذي تشير إليه المصادر العربية باسم المركيز استغناء بلقبه عن ذكر اسمه. كان المركيز ابناً لأحد أمراء الفرنجة ومقدميهم الذين وقعوا في أسر المسلمين في حطين، وأبوه هو الأمير غيوم دو مونفيرا. وكان المركيز يزور مدينة القدس كل عام على سبيل الحج، واشتهر من دون غيره من الحجاج بسعة الأموال التي ينفقها على فقراء الفرنجة في المدينة في إبان موسم الحج. وعندما وصل في صيف سنة ١١٨٧ بسفينته إلى مرفأ عكا، وكانت المدينة قد سقطت في يد صلاح الدين، ارتاب بما شاهدت عيناه، فلم يرَ على رصيف الميناء من كان يتوقع حضورهم لاستقباله كما جرت العادة، ولم تسمع أذناه ضرب النواقيس والأجراس التي تؤذن بقدومه، ولم يشاهد أعلام الفرنجة وراياتهم التي يزينها الصليب على أبراج المدينة وأسوارها، وشاهد عوضاً عن ذلك رايات صلاح الدين الصفر تخفق في كل مكان. ولمّا سأل عن السر وراء كل هذا، علم بأن المدينة سقطت في أيدي المسلمين، فاحتال للإفلات من هذا الفخ، ونجح بعد إعمال الحيلة في الخروج من الميناء والوصول إلى مرفأ صور المجاور.



LAU LIBRARY
BEIRUT

كانت صور تعج بعشرات الآلاف من لاجئي الفرنجة الذين وصلوا إليها بعد سقوط المدن الفلسطينية واللبنانية، وبعد أن لجأ إليها فرسان كثير من الحصون التي استسلمت للمسلمين. وكان من الممكن أن يُستغل هذا الحشد البشري الضخم لبناء قوة عسكرية فاعلة تتصدى لصلاح الدين، إلاّ إن هذا الأمر لم يتيسر، فالذهول والحيرة بل غلبة الروح الانهزامية حالت دون ذلك. ولمّا كانت هذه الجموع في أغلبيتها الساحقة من النساء والأطفال والخدم والغلمان، بعد أن أفنت هزيمة حطين القادة والأمراء والنبلاء والفرسان والمحاربين ما بين قتيل وأسير، لم يكن بينها من يمتلك القدرة، لا بل نية إعادة تنظيم الناس وبناء قوة عسكرية محاربة، لأن الأمراء الذين نجوا من حطين ووصلوا إلى صور، كأمراء طرابلس وأنطاكية وصيدا، سرعان ما تركوها وعاد كل إلى إمارته عندما علموا بنية صلاح الدين التوجه من عكا إلى الشمال، فتركوا صور ومن احتشد فيها من الناس رعيةً بلا راعٍ.

في خضم هذا الفراغ القيادي والتنظيمي دخل المركيز دو مونفيرا مدينة صور، فملأ الفراغ وجعل قلعة المدينة مقراً له وجعل من نفسه حاكماً يتولى أمور البلد والناس، وانصرف يعزز تحصينات المدينة ويقوي دفاعاتها تحسباً للهجوم الذي سيشنه صلاح الدين.

استرعت التطورات التي حدثت في صور اهتمام نواب صلاح الدين في بيروت وصيدا المجاورتين، وكتبوا إليه بضرورة التحرك السريع. فترك صلاح الدين مدينة القدس ومعه أغلبية جيشه نحو مدينة صور، وكتب يستدعي آلات الحصار من حلب. ونزلت القوات إلى مشارف المدينة وحاصرتها في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١١٨٧. مضت الأسابيع الثلاثة الأولى من الحصار من دون أن تلوح من جانب الفرنجة أي إشارة إلى الضعف أو التخاذل. وفي هذه الأثناء حاول صلاح الدين أن يغلق مدخل الميناء، وأن يمنع أي نجدة محتملة آتية من جهة أوروبية. وأمر الأسطول المصري الذي كان مرابطاً في عكا بالتقدم نحو صور، فأخذت السفن موقعها أمام الميناء. وبعد عدة أيام من الانتظار استُدرج الأسطول إلى معركة مع الزوارق الفرنجية، فأغرق نصف السفن الإسلامية وفرت السفن الأُخرى. أمّا من جهة البر فقد أخذ قادة صلاح الدين يبدون تذمرهم من طول غيبتهم عن أوطانهم وأهليهم، وأبدوا رغبة في العودة، وكان الشتاء هجم بقوة في هذا الموسم. قام صلاح الدين بمحاولة أخيرة لشن هجوم من البر، إلاّ إن يقظة الدفاع أفشلته. واستباقاً لانهيار في معسكره في ضوء ما لاحظه من تسرب بعض القادة وتركهم ساحة المعركة، أمر جيشه بفك الحصار والبدء بالانسحاب مع بدء السنة الميلادية الجديدة ١١٨٨، وتوجه عائداً إلى عكا.(٨٩)



## انتكاسة المسلمين في صور والمسؤولية عنها

يقول ابن الأثير معلقاً على فشل المسلمين في الاستيلاء على مدينة صور إن صلاح الدين لمّا «رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملّوها وطلبوا الانتقال عنها. ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس، وغير ذلك كما سبق ذكره. وكان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة. . . .» لا شك في أن هذا الاتهام الصريح الذي يوجهه ابن الأثير إلى السلطان صلاح الدين، إنما كان يعكس الإحباط الذي أصاب المسلمين بعد الهجوم المضاد الذي قام به الفرنجة فيما يعرف لدى المؤرخين بالحملة الصليبية الثالثة، والذي أسفر عن استعادة الشريط الساحلي في فلسطين، وقلّص إلى حد كبير حجم الإنجازات العسكرية التي أحرزها المسلمون بعد حطين، وكلف المسلمين مئة عام آخر من الحروب والتضحيات من أجل التخلص من آثاره. إن ابن الأثير بهذه الأقوال يضع كامل المسؤولية على عاتق صلاح الدين، وينفي عن قراراته صفة الحزم، ويتهمه بالتفريط.

إن المؤرخ المحقق لا يستطيع أن يقبل، ولا ينبغي له أن يقبل، تلك الأحكام التي يطلقها المؤرخ الكبير ابن الأثير بحق صلاح الدين، وذلك لأسباب شخصية وموضوعية. فقد عرف عن ابن الأثير تحامله على صلاح الدين حين ألصق به تهمة الغدر بالملك الصالح إسماعيل، ابن سيده نور الدين، في أثناء محاولاته للسيطرة على بلاد الشام. وجرياً مع هذا الموقف المتحامل نراه يلصق به اليوم تهمة التفريط والبعد عن الحزم في قراراته. صحيح أن ابن الأثير حاول أن يأتي بتفسير للحكم الذي أصدره ضد صلاح الدين حين ذكر مسؤوليته عن احتشاد الفرنجة في مدينة صور، لأنه هو الذي ضمن وصولهم الآمن إليها بعد أن أتاح لهم الخروج من المدن والقلاع التي استولى عليها في فلسطين. لكنه، إلى جانب ذلك، يشير إلى أسباب موضوعية أُخرى اعتبرها مسؤولة عن الفشل. وعند النظر في هذه الأسباب يتبين مدى ابتعاد ابن الأثير عن الموضوعية في إصدار أحكامه. فهو يشير في الموضع نفسه إلى مسؤولية قادة جيش صلاح الدين عن هذا الفشل، فيقول إنهم قبل تجربة صور تعودوا الانتصارات السهلة؛ فمنذ المواجهة القتالية في حطين لم يخوضوا معركة حقيقية في الاستيلاء على حصن أو على مدينة، وأخذوا تلك البلاد «بغير تعب ولا مشقة»، ولمّا جوبهوا بالمقاومة في صور كرهوا القتال وفضلوا ترك الميدان وآثروا الراحة والدعة. ليس هذا فحسب، فإن القادة، أو قسماً منهم على الأقل، لم يكونوا على استعداد لأن يضحوا



LAU LIBRARY BEIRUT

بالأموال التي كسبوها مما نالهم من الغنائم والأسلاب، لأنهم كانوا يخشون أن يقترضها منهم صلاح الدين، بعد أن أنفق كل ما ادخره للمعركة، من أجل تمويل الاستمرار في حصار مدينة صور. وهذا ما دفع هؤلاء القادة إلى الإصرار على فك الحصار والإضراب عن الاستمرار في القتال ليعودوا إلى أهليهم مثقلين بما جمعوه من مال. وقد بلغ من رفضهم الاستمرار في المعركة أن بعضهم بدأ يتسرب من الميدان من دون علم صلاح الدين، وأن البعض الآخر توقف عن تشغيل آلات الحصار وتجهيز المجانيق بالحجارة لقذفها على تحصينات المدينة. وكان الكاتب عماد الدين الأصفهاني قد أشار إلى ذلك عندما كتب واصفاً موقف هذه الفئة من القادة: «فتمكنت الفتراتُ في عزماتها وتطرقت السكنات إلى حركاتها وصارت تَخِلُّ بنُوَبِ المنجنيق وتدعي سانحات أسباب التعويق.... وبقيت المنجنيقات واقفة لا قادح لزنادها بحجارة....»(٩٠)

وفيما يتعلق بالتهمة الرئيسية التي يوجهها ابن الأثير إلى صلاح الدين بأنه كان مسؤولاً عن تجميع الفرنجة في صور، يتعين على المرء أن يسأل إنْ كان أمام صلاح الدين خيارات أُخرى، أو بالأحرى لماذا اتبع سياسة منح الأمان للفرنجة الذين استسلموا ليخرجوا من مدنهم إلى صور وهم آمنين، وهل كان مضطراً إلى اتباع هذه السياسة؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول إن صلاح الدين لو لم يتبن هذه السياسة، لكان لزاماً عليه أن يستخدم القوة العسكرية لإخضاع المواقع والمدن التي أقام بها الفرنجة، مع ما ينطوي عليه ذلك من حشد أعداد أكبر من العساكر، ومن بذل مبالغ طائلة من المال لتغطية حاجات المقاتلين وتوفير عدة القتال من أسلحة وذخيرة، وخيول وأعلاف، وعربات للحمل والنقل، وإعداد آلات الحصار من مجانيق وأبراج وآليات هندسية، وفضلاً عن ذلك كله تعريض أرواح جنوده للخطر والقتل، علماً بأنه كان يحارب كوادر من الفرسان المدربين المشحونة نفوسهم بالمشاعر الدينية الجياشة، وكان هؤلاء المقاتلون يتحصنون بدروعهم من وراء حصون وأبراج وأسوار يصعب اقتحامها. وفي مثل هذا الوضع لم يكن أحد يستطيع أن يخمن النتيجة، هل ستكون في مصلحة المسلمين أم في مصلحة عدوهم. فكانت هذه السياسة هي التي ساهمت في تسريع عملية التحرير في فلسطين، لأنها شجعت قوات الفرنجة على الاستسلام، إذ كانوا يضمنون بعد حصولهم على الأمان سلامة أنفسهم وأموالهم وأهليهم، كما حدث مع من سبقوهم من إخوانهم الذين استسلموا، ووفى صلاح الدين بوعده، وأوصلهم سالمين إلى مدينة صور. وبالإضافة إلى ذلك، لمّا حاول صلاح الدين التخلي عن هذه السياسة عندما كان يحاصر مدينة القدس وقرر اقتحام الأسوار بالقوة وأخذ المدينة عنوة، اكتشف أن تخليه عن هذه السياسة سيؤدي إلى نتائج عكسية ويلحق الأذى



ويسبب الخسائر الباهظة في صفوف المسلمين. فهذا ابن الأثير نفسه يروي أخبار فتح مدينة القدس، ويتطرق إلى ردة فعل الفرنجة عندما أدركوا أن صلاح الدين ينوي التراجع عن سياسة التسامح، التي اتبعها، في فتح هذه المدينة وغيرها من المدن الفلسطينية. فلمّا رفض صلاح الدين منح الفرنجة المدافعين عن المدينة الأمان الذي طلبوه، طلب مقدمهم وزعيمهم الأمير دو إبلين (تسميه المصادر العربية باليان بن بارزان) الاجتماع بالسلطان، وإذ أذن له في ذلك، كرر طلب الأمان. وعندما رفض صلاح الدين الاستجابة لهذا الطلب قال باليان ما يلي: «أيها السلطان، إعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى. وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم. وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنتقلنَّ أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً. ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع. ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير. ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلاّ قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه. وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً.» ثم يضيف ابن الأثير أن صلاح الدين استشار أصحابه فأجمعوا على ضرورة منح الفرنجة الأمان لمنعهم من تنفيذ تهديدهم، لأن أحداً لا يدري ما ستكون عاقبة ذلك.(٩١) من هذا القبيل حمل صلاح الدين والقادة الذين معه أقوال مقدم الفرنجة محمل الجد، ووافقوا على منح فرنجة القدس الأمان الذي يطلبون حقناً لدماء المسلمين التي ستذهب هدراً. ولعل حادثة القدس هذه، بالإضافة إلى ما حدث قبلها في باقي المدن الفلسطينية، تنبئ بما لا يدع مجالاً للشك في أن الحرب التي خاضها صلاح الدين كانت بهدف تحرير البلاد المقدسة ليس إلاّ، وأنها لم تكن حرباً من أجل الحرب ذاتها، ولم تكن حرباً يراد بها إبادة الغزاة؛ فإبادة الغزاة لو جعلت هدفاً لهذه الحرب ولو طبقت على أرض الواقع، لكانت النتيجة غير ما كان يتوخى صلاح الدين وصحبه.

من ناحية أُخرى، لو لم يسمح صلاح الدين بلجوء الفرنجة إلى صور، ولو لم يجد الفرنجة في صور منطلقاً لهجومهم المضاد، لوجدوا هذا المنطلق في موانئ أُخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط، لم تكن تبعد عن صور كثيراً، مثل ميناء طرابلس الذي ظل في أيديهم، ولم يحاول صلاح الدين حتى أن يخرجه من تحت سيطرتهم. على أية حال، فإن وجود الفرنجة في صور واجتماعهم فيها لم ينظر إليه من وجهة النظر العسكرية الإسلامية في ذلك الوقت على أنه أمر ينطوي على تهديد جدّ للأجزاء المحررة من فلسطين، بدليل أن إخراج المقاتلين الفرنجة الذين استسلموا



LAU LIBRARY
BEIRUT

بعد معركة صور الفاشلة والسماح لهم بدخولها استمر، ولم يفكر أحد من قادة المسلمين في ضرورة منعه أو إيقافه. فبعد مرور أكثر من عام على فشل الحملة ضد مدينة صور سمح صلاح الدين لفرسان الداوية والإسبتارية، الذين كانوا يرابطون في حصني صفد وكوكب الهوا، بالانضمام إلى إخوانهم الفرنجة في مرفأ صور عملاً بالأمان الذي منحهم إياه.[٩٢]

## تحرير حصون الفرنجة الداخلية

عندما توجه السلطان صلاح الدين إلى عسقلان لفتحها في أيلول/ سبتمبر ١١٨٧، أرسل أحد قادته ويدعى سيف الدين محمود، وهو أخو الأمير الصلاحي المشهور جاولي الأسدي، على رأس قوة عسكرية وأمره بحصار حصن كوكب الفرنجي، الذي كان يتحكم في الطريق بين دمشق وفلسطين، لمنع فرسان الفرنجة فيه من قطع الطريق التي تجتازها قوافل المسلمين. ويقع حصن كوكب، الذي يسميه الفرنجة بلفوار (Belvoir)، على الطرف الجنوبي للتلال التي تشرف على مرج بيسان إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية، ضمن حدود إمارة الجليل الفرنجية. ويبدو أن إقامته تعود إلى أيام حكم الملك اللاتيني فولك، وبالتحديد بين سنة ١١٣٨ وسنة ١١٤٠، وكانت ملكيته تعود إلى أحد النبلاء الفرنسيين. وفي سنة ١١٦٨ بيع الحصن للأخوية الإسبتارية فقامت بهدم البناء وبنت مكانه حصناً كبيراً ومنيعاً تمهيداً لتعزيز سيطرتها على المنطقة. ولمّا انهزم جيش الفرنجة في حطين التجأ عدد من فرسان الإسبتارية الناجين إلى حصن كوكب، واضطرتهم تطورات الحرب بعد ذلك إلى البقاء فيه، ومن ثم ازدادت القدرة العسكرية للحامية الفرنجية التي تقيم به. واستمر حصار المسلمين للحصن عدة أشهر كانوا خلالها يقيمون بحصن عفربلا القريب قبالة حصن كوكب، ويتناوبون الحراسة فيما بينهم، وظلوا كذلك حتى هجم فصل الشتاء. وفي آخر شوال ٥٨٣هـ/ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨م، وفي ليلة باردة ماطرة استغل الفرنجة غفلة من حراس المسلمين وهجموا على الجنود وهم نائمون فقتلوهم جميعاً بمن فيهم الأمير سيف الدين محمود، ونهبوا ما معهم من أسلحة وذخائر، وما كان عندهم من المؤن والتجهيزات، وعادوا إلى حصنهم في كوكب. ولمّا وصلت أنباء هذه المجزرة إلى السلطان صلاح الدين انتدب أحد أمرائه القائد قايماز النجمي ومعه ٥٠٠ فارس، وأمره بالمرابطة على الحصن وحصاره. وبعد أن عاد صلاح الدين من صور إلى عكا خرج، في آذار/ مارس ١١٨٨، نحو حصن كوكب وهو عازم على وضع حد لامتناعه على المسلمين. وعندما وصل إليه ورأى منعته وصعوبة اقتحامه والحاجة إلى طول



LAU LIBRARY
BEIRUT

المصابرة عليه، ترك الأمير قايماز النجمي محاصراً له وتوجه إلى دمشق بعد أن أمضى في حصاره ما يقرب الشهرين. وعند عودته من الشمال قرر الاستيلاء على صفد فحاصرها. وأراد الفرنجة في صور تعزيز الدفاع عن حصن كوكب، إذ رأوا تصميم صلاح الدين على أخذه، ليظل هو وغيره موطئ قدم لهم يساعدهم في تحقيق أهداف هجومهم المُضاد الذي كانوا ينوون القيام به. فأرسلوا كتيبة من الفرسان تقدر بـ ٢٠٠ فارس أُوكل إليهم الوصول إلى حصن كوكب لتعزيز حاميته. لكن أمر هذه الكتيبة افتضح، وتتبع المسلمون فرسانها بين التلال والكهوف، فقتلوا وأُسروا. وبعد أن فرغ صلاح الدين من قلعة صفد توجه نحو كوكب وأشرف بنفسه على الهجمات المركزة والمستمرة على الحصن، حتى نجح المسلمون أخيراً في إحداث خرق في السور الخارجي، وبدأوا نقب السور الداخلي، وعندها أذعنت الحامية الفرنجية وطلبت الأمان والخروج إلى صور، فمنحها السلطان ذلك. واستسلم الحصن للمسلمين فأمر صلاح الدين بترميم ما تهدم من أسواره، ووضع حامية عسكرية فيه. وفي سنة ١٢١٩، أمر الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل بتدمير حصن كوكب ضمن خطته الاحتياطية التي نفذها في فلسطين تحسباً لغزو فرنجي جديد في إبان انشغال المسلمين بالدفاع عن مصر عندما كانت الحملة الفرنجية على دمياط في أوجها. وفي سنة ١٢٤١، سلّم ملك مصر الأيوبي هذا الحصن للفرنجة كما نصت على ذلك اتفاقية الهدنة التي عقدها معهم. وقد تم استرجاع الحصن من أيدي الفرنجة سنة ١٢٦٣، لمّا حرر الظاهر بيبرس الجليل من الغزاة.[٩٣]

أمّا قلعة صفد فحرص صلاح الدين على عزلها وتطويقها، كما فعل مع حصن كوكب، بسبب ما كانت تشكله من تهديد لقوافل المسلمين وتحركاتهم فيما بين دمشق ومنطقة الجليل. وانتدب لهذه المهمة الأمير شجاع الدين طغرل الجاندار على رأس قوة قوامها ٥٠٠ رجل. ظلت هذه القوة ترابط أمام القلعة وتمنع الدخول والخروج منها وترصد الطرق إليها. وفي رمضان ٥٨٤هـ/ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨٨م، خرج السلطان من دمشق ومعه العساكر وبدأ بمهاجمة القلعة ورميها بقذائف المنجنيق، وظل مستمراً على هذا المنوال ما يقرب من ثلاثة أسابيع حتى دان له فرسان الداوية المدافعون عنها وسلموها في مقابل الأمان الذي منحوه للوصول إلى صور والالتحاق بإخوانهم هناك.

في مستهل القرن الثاني عشر أنشأ السنيور هوغو مسط، صاحب إمارة الجليل، قلعة صفد من أجل توسيع حدود الإمارة الشمالية. وكان هذا الأمير نفسه هو الذي أنشأ الحصنين المجاورين تبنين وهونين للغاية نفسها. وبعد انتهاء الربع الأول من القرن الثاني عشر انتقلت ملكية القلعة إلى ملك مملكة القدس فولك، الذي أحدث



LAU LIBRARY
BEIRUT

فيها توسيعاً. وفي سنة ١١٦٨، باع الملك أملريك (عموري) القلعة لأخوية فرسان الهيكل (الداوية). ثم أنشأ الفرنجة مستوطنة مدنية خارج أسوارها قام المسلمون بتدميرها سنة ١١٧٩، كخطوة احترازية قبيل هجومهم وتدميرهم حصن بيت الأحزان عند جسر بنات يعقوب، لمنع المساعدات من صفد من الوصول إلى الحصن المذكور المحاصر من جانبهم. وبعد معركة حطين استقبلت قلعة صفد أعداداً إضافية من الفرسان الإفرنج الذين فروا من ساحة المعركة، وبقيت صامدة لعامين بعد هزيمة حطين ولم تسقط إلاّ في كانون الأول/ ديسمبر ١١٨٨، بعد حصار غير قصير انضم إليه صلاح الدين وأشرف عليه. ولمّا سلّمت القلعة عيَّن صلاح الدين الأمير شجاع الدين طغرل الجاندار ليكون نائبه عليها. وفي سنة ١٢١٩، وضمن الخطوات الاحترازية التي اتخذها ملك دمشق وفلسطين المعظم عيسى ابن الملك العادل، قام بتدمير القلعة كما دمر غيرها من القلاع في المنطقة، وذلك ليمنع الفرنجة من الاستفادة من هذه الحصون إذا ما فكروا في غزو فلسطين. وفي سنة ١٢٤٠، ووفقاً لشروط المعاهدة التي عقدها ملك دمشق الصالح إسماعيل الأيوبي مع الفرنجة ضد ملك مصر تم تسليم قلعة صفد وغيرها من المواقع في منطقة الجليل للفرنجة، فسلّمت القلعة لأخوية الداوية بحكم ملكيتها السابقة لها قبل أن يطردها صلاح الدين منها. قام فرسان الداوية بترميم القلعة وإعادة تحصينها بمبادرة من أسقف مرسيليا، بونوا دو إلينيان، ودعمه. وظلت القلعة في أيدي الفرنجة حتى حررها مرة أُخرى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦، وأعدم كل من كان فيها من الفرنجة. ثم شرع في ترميم ما تهدم منها سنة ١٢٦٧. ومنذ ذلك الوقت تحولت صفد إلى قاعدة لما عرف باسم مملكة صفد. وقلعة صفد اليوم مدمرة لا يكاد يظهر من معالمها شيء بعد أن ضربتها الزلازل ثلاث مرات في كل من القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين.[٩٤]

أمّا حصنا الكرك والشوبك وسلسلة الحصون الصغيرة التي تقع على الأطراف الجنوبية لمنطقة البلقاء في جبال مؤاب ومنطقة وادي موسى، فقد اتخذها الفرنجة في هذه المنطقة لا لتثبيت احتلالهم فلسطين فقط، بل أيضاً لمنع تسلل العناصر القبلية المقيمة في جنوب بلاد الشام والتي كانت تغير بين الحين والآخر على أراضي فلسطين التي يحتلها الغزاة، ثم أصبحت في الوقت نفسه عائقاً استراتيجياً قطّع أوصال البلاد الإسلامية المجاورة لدولة الفرنجة، الشام ومصر، والشام والحجاز، على الصعيدين التجاري والعسكري، بالإضافة إلى تهديد مواكب الحج بين الشام ومكة المكرمة. ومنذ وقت مبكر بعد حطين التفت صلاح الدين إلى أمر القلاع والحصون الداخلية، فأمر أخاه الملك العادل بأن يتفرغ لأمر الكرك، فانتدب صهره الأمير سعد الدين كُشْتَبة

الأسدي وأرسله إلى الكرك ليحاصرها. وكانت الكرك من الحصانة والمنعة بحيث استعصت على المحاولات السابقة للاستيلاء عليها منذ أيام نور الدين زنكي. وعلى الرغم من الانهيار العسكري الذي لحق بالفرنجة في حطين فإن دفاع الحامية الفرنجية في الكرك ظل على ما كان عليه من الصلابة والعناد. فحاول صلاح الدين استخدام الأسلوب الدبلوماسي وتطويعه لأغراض الفتح، وكما فعل في محاولة الاستيلاء على عسقلان، عندما اصطحب معه الملك الأسير غي دو لوزينيان لإقناع حاميتها بالاستسلام، فعل الأمر نفسه في محاولة الاستيلاء على الكرك. فعندما استسلمت مدينة القدس كانت الأميرة ستيفاني، أميرة الغور وشرق الأردن التي تؤول ملكية الكرك والشوبك إليها، بين الأمراء والنبلاء الفرنجة الذين وقع عليهم الفداء في مدينة القدس. وبعد أن أدت ما عليها وما على حاشيتها من فدية مالية، قابلت السلطان صلاح الدين وطلبت إليه أن يطلق ابنها همفري من زوجها السابق أمير قلعة تبنين، همفري دو تورون. استجاب صلاح الدين لهذا الرجاء من غير تردد، لكن شرط أن تعمل حين تتوجه إلى المنطقة لإقناع الحاميتين بالتسليم. إلاّ إن طلبها جوبه بالرفض فعادت خائبة وأعادت ابنها إلى الأسر. ولمّا رأى صلاح الدين هذا التصرف الفروسي النبيل كافأها بإطلاق ابنها بعد ذلك. وفي هذه الأثناء ظل حصار المسلمين للحصنين مستمراً لأكثر من عام حتى نفدت المؤن، واضطر أفراد الحامية إلى أن يذبحوا خيولهم حتى فنيت كلها، وعند ذلك خضعوا ورفعوا راية التسليم. وبعد استسلام الكرك بعدة أشهر استسلم حصن الشوبك والحصون الأخرى في المنطقة وهي: هُرْمُز والوعيرة وسَلْع.(٩٥)

## الهجوم الفرنجي المضاد

أحدث سقوط القدس في يد صلاح الدين دوياً هائلاً في نفوس الأوروبيين، وشمل ذلك الأوساط الدينية والعلمانية على حد سواء. وما إن أطلق البابا أوربان الثالث نداء الاستغاثة بفك أسر القبر المقدس من أيدي المسلمين حتى استجاب له الأباطرة والملوك والنبلاء وأمراء الإقطاع. وكان ملك صقلية النورمندي، وليم الثالث، الأسرع إلى تلبية النداء، إذ لم ينتظر إلى وقت خروج الحملة الصليبية الثالثة التي دعا إلى تنظيمها، وإنما سارع إلى إرسال السفن التي تحمل المقاتلين والمتطوعين كي يدافعوا عن إمارة طرابلس التي كانت تتعرض لخطر الاجتياح على يد صلاح الدين أواخر سنة ١١٨٨. اقتصرت مساهمة الملك النورمندي عند هذا الحد بسبب التوتر الذي كان يسود علاقة مملكته مع الإمبراطورية البيزنطية، الأمر الذي حال دون



مشاركة أوسع من جانبه في الحملة الصليبية الجديدة التي ستحسم المواجهة في فلسطين لمصلحة الفرنجة. ثم جاء موت الملك وليم الثالث المفاجئ في العام التالي ليضع حداً للدور الذي كانت مملكة صقلية ستقوم به في الصراع المقبل مع صلاح الدين.

وبموت ملك صقلية انتقل زمام المبادرة إلى المؤسسة البابوية في روما. فبعد سقوط مدينة القدس أوفد حاكم مدينة صور الجديد كونراد دو مونفيرا، الذي اشتهر باسم المركيز، كبير أساقفة صور المونسنيور جوس في أواخر صيف سنة ١١٨٧ إلى أوروبا ليستصرخ رأس الكنيسة المسيحية وملوك أوروبا من أجل استعادة القدس. وبعث البابا برسائل إلى ملوك ألمانيا وإنكلترا وفرنسا يستحثهم فيها على تجريد العساكر إلى ساحة القتال في فلسطين. أبدى الملوك الثلاثة تجاوبهم لدعوة الإنقاذ، لكن تفاوت درجة الاستعداد لدى كل منهم وأجواء عدم الثقة التي تسود العلاقات فيما بينهم حالا دون خروجهم الفوري في حملة موحدة، فخرج كل واحد منهم على حدة، حتى وصلت قواتهم إلى المشرق في إبان حصار عكا من جانب الفرنجة المحليين، والذي دام نحو عامين.(٩٦)

LAU LIBRARY
BEIRUT

## حصار عكا وسقوطها
## في أيدي الفرنجة

لم ينتظر صليبيو المشرق وصول الحملة الصليبية الثالثة التي طال انتظارهم لها، وشعروا بقوة شجعتهم على بدء الهجوم بمفردهم قبل وصول الإمدادات الأوروبية الموعودة. فقد أثبتت روح المقاومة التي أبدوها في صور وطرابلس وأنطاكية نجاعتها أمام هجمات المسلمين، بعد أن ضعف زخم الهجمة الإسلامية التي قادها صلاح الدين وفترت همم الجنود عن القتال، حتى كان همّ الجندي وشغله الشاغل متى يسمح له بالعودة إلى أهله. وتربط الرواية التاريخية الإسلامية توقيت الهجوم الفرنجي المضاد بحادثة إطلاق الملك الفرنجي غي دو لوزينيان من أسره في صيف سنة ١١٨٨، حين كان صلاح الدين نازلاً عند حصن الأكراد قبل أن يدخل مدينة طرطوس. وكان إطلاق الملك من الأسر وفاء بالوعد الذي قطعه له السلطان عندما اصطحبه في حصار مدينة عسقلان لإقناع حاميتها بالاستسلام. واكتفى صلاح الدين بوعد قطعه الملك على نفسه ألاّ يرفع سيفاً في وجه مسلم. ولم يكن أمام الملك من سبيل إلاّ أن ينكث وعده. ومنذ أُطلق كان كل همه أن يستعيد مملكته الضائعة، مملكة القدس اللاتينية، فجمع من حوله من استطاع جمعه من الفرسان والجند الذين

فقدوا حصونهم وإقطاعاتهم في فلسطين وفي غيرها بعد أن وجدوا أخيراً من ينظمهم ويلم شملهم تحت زعامته. سار الملك بهؤلاء وأمثالهم وخرج من طرابلس متجهاً نحو مدينة صور وهو يظن أن أهلها سيرحبون بقدومه. لكنه نسي، على ما يبدو، أن المركيز كونراد دو مونفيرا استغل الفراغ السياسي الذي كان سائداً في صور بعد معركة حطين واستولى على زعامتها من دون أن يجد من ينافسه، واستطاع أن يثبت طوال العام الماضي جدارته بهذه الزعامة بعد أن صمد في وجه الحصار الذي ضربه صلاح الدين على المدينة براً وبحراً أواخر سنة ١١٨٧. وصل الملك إلى صور وأعلم المركيز بقدومه، لكن الأخير لم يسمح له بدخول المدينة، واعتذر عن ذلك بقوله: «إنني نائب للملوك الذين وراء البحر، وما أذنوا لي في تسليمها إليك.» ولمّا طال انتظار الملك على أبواب المدينة بلا جدوى قرر الزعيمان أن يشرعا في الهجوم على المسلمين وأن تكون مدينة عكا الهدف. فسار الملك وجنده على الطريق الساحلية عبر رأس الناقورة، وسارت السفن بمحاذاتهم في البحر حاملة عدتهم وسلاحهم ومؤنهم، وهي في الوقت نفسه ملجأ آمن يحتمون به إذا ما دهمهم خطر من جانب المسلمين على الساحل. فوصل جيش الفرنجة إلى عكا في أيلول/ سبتمبر ١١٨٩، وأقام الملك معسكره على تل الصليبيين قريباً من باب عكا الشمالي.

في هذه الأثناء كان صلاح الدين يحاصر قلعة شقيف أرنون شرقي مدينة صور، وكان مضى على حصارها ثلاثة أشهر كان خلالها ضحية المواعيد العرقوبية التي أطلقها أرناط صاحب القلعة، الذي كان يطالب بتأجيل تسليمها حتى يفرج المركيز عن أهله وأولاده الذين يعيشون في مدينة صور. أمضى صلاح الدين وجيشه هذه المدة لا يحرك ساكناً ينتظر التسليم الموعود. وعندما علم بتحرك الفرنجة نحو عكا ظن أن في الأمر مناورة يقصد بها صرفه عن حصار شقيف أرنون، لكنه لمّا أيقن أنه هجوم حقيقي، لا مناورة، كانت ردة الفعل الناجعة قد فقدت قيمتها، وجاءت بطيئة ومترددة. لم يفك صلاح الدين الحصار مباشرة عن الشقيف ليتفرغ للقوة المهاجمة، ولم يطارد هذه القوة مستخدماً الطريق الساحلية السريعة، وإنما اختار الطريق الالتفافية الطويلة، فاتجه من الشقيف نحو سهل الحولة، ثم اتجه غرباً نحو كفر كنا وصفورية، ووصل إلى مشارف عكا. وكان اختيار هذه الطريق تجنباً للمشقة التي قد تلحق بجيشه، كما برر ذلك بعض قادته الذين استشارهم. وهكذا استغرقه الوصول إلى عكا أكثر من أسبوع. ولمّا وصل إلى هناك وجد أن الفرنجة طوقوها من البحر إلى البحر، وأغلقوا المنافذ إليها كافة. وبعد مضي أكثر من أسبوعين على الحصار، قام صلاح الدين بهجوم استطاع بواسطته اختراق الطوق، وفتح منفذاً إلى المدينة أدخل من خلاله المؤن والذخيرة والتعزيزات لحاميتها المحاصرة. لكن سرعان ما قام الفرنجة بهجوم



LAU LIBRARY
BEIRUT

مضاد أنزل هزيمة منكرة بجيش صلاح الدين، ففر كثيرون من المقاتلين من ساحة المعركة حتى بلغوا نهر الأردن، بل وصل بعض الفارين إلى دمشق.

بعد هذه الهزيمة اضطر صلاح الدين إلى التراجع شرقاً إلى الخطوط الخلفية قريباً من شفا عمرو. وهكذا عزز الفرنجة حصار مدينة عكا حتى انقطع عنها الاتصال بصلاح الدين براً وبحراً، ولم يكن يتم الاتصال إلاّ تسللاً أو عن طريق الحمام الزاجل. وبينما كانت معنويات المسلمين تتدهور يوماً بعد يوم، كانت همم الفرنجة وعزيمتهم القتالية تزداد قوة بفضل الإمدادات التي كانت تأتيهم من أوروبا. فقد وصل ملك إنكلترا وملك فرنسا وابن الإمبراطور الألماني على رأس إمدادات من الجند والمؤن والتجهيزات، بينما لم ينقطع ورود سفن التجار الإيطاليين من الجنويين والبيازنة والبنادقة، وهي تحمل معها عدة الحصار والمتطوعين.

بعد ذلك اتخذت معركة عكا طابع الجمود، وتحولت إلى ما يشبه حرب الخنادق. ولم يستطع المسلمون تطوير هجومهم لمحاولة فك الحصار، وصار موقفهم في تراجع مستمر. وقد كان صلاح الدين يعاني نقصاً في عدد المقاتلين، فجيشه موزع على امتداد جبهة المواجهة مع الفرنجة؛ هناك مجموعة ترابط أمام أنطاكية للدفاع عن حلب، وأُخرى مكلفة الدفاع عن حمص، وثالثة في مقابل طرابلس، ورابعة قبالة صور. وكان عساكر مصر يرابطون عند تفرعي دمياط والإسكندرية، ولمّا وصل أخوه الملك العادل لم يأت معه إلاّ عدد يسير من جيش مصر. أمّا الاستعانة بالأسطول المصري فلم تغير من هيمنة الأساطيل الأوروبية المرابطة على السواحل. وأقصى ما نجح هذا الأسطول في تقديمه إلى المسلمين المحاصرين كان إدخال كميات محدودة من المؤن التي لم تكف إلاّ أياماً معدودة. وبدا العجز الفاضح لدى القوات الإسلامية عندما أُجريت عملية استبدال المدافعين عن عكا بقوات بديلة تنوب عنهم، إذ لم يتمكن المسلمون من إيجاد أعداد موازية للأعداد التي أخرجت من داخل المدينة، ولم يتجاوز عدد الداخلين ثلث عدد الذين خرجوا.

وصل الأمر بالمسلمين إلى حد فقدان الأمل بالقيادة التي بدت عاجزة عن توفير الحماية للمدينة. فبادر القادة المحليون إلى إجراء مفاوضات مع الفرنجة بشأن الاستسلام من دون علم صلاح الدين. كانت الشروط التي وضعها الفرنجة مغالية، إذ كان بينها أن يعيد صلاح الدين مدينة القدس إليهم. لذلك رفض صلاح الدين هذه الشروط، لكنه ترك لقادة الحامية الإسلامية حرية اتخاذ القرار، فاتفقوا على الاستسلام في مقابل تقديم فدية مالية ضخمة، وإطلاق أعداد من أسرى الفرنجة، وإعادة الصليب المقدس. لكن الفرنجة بالتالي لم يحترموا هذا الاتفاق، وارتكبوا مجزرة بشعة بالمسلمين ذهب جرّاءها آلاف الأرواح.

وهكذا استسلمت مدينة عكا في تموز/يوليو ١١٩١، بعد حصار دام نحو عامين. وكان ذلك مقدمة كي يستعيد الفرنجة ما كانوا فقدوه من مواقع على الساحل الفلسطيني قبل أربعة أعوام، ليستمروا في احتلال هذا الشريط ما يقرب من مئة عام آخر.(٩٧)

## استعادة الفرنجة للساحل الفلسطيني

بعد سقوط مدينة عكا ترك الملك الفرنسي، فيليب أوغست، فلسطين وعاد إلى بلده، وأصبح الملك الإنكليزي ريتشارد زعيم الفرنجة بلا منازع. فقام بتسوية النزاع بشأن عرش المملكة اللاتينية بين المركيز كونراد دو مونفيرا، حاكم صور، وبين غي دو لوزينيان، الملك الشرعي. ثم استقر رأي قادة الفرنجة على المضي في استعادة ما كانوا فقدوه من أرض فلسطين بعد موقعة حطين. انطلق جيشهم من عكا في ٢٢ آب/أغسطس ١١٩١ صوب حيفا، واستولى عليها بعد أن وجدها خالية، وكان المسلمون تركوها عند سقوط مدينة عكا. تقدم الفرنجة جنوباً بمحاذاة شاطئ البحر عبر الممر السهلي الضيق بين منحدرات جبال الكرمل وساحل البحر، بينما كانت تسير قطع الأسطول بمحاذاتهم في مياه البحر، وهي تحمل المؤن والذخائر والتجهيزات، وتشكل رديفاً للقوة البرية تلجأ إليها عند الحاجة. وصل جيش الفرنجة إلى قيسارية فوجدها خالية قد انسحب منها أفراد الحامية الإسلامية بعد أن دمروا تحصيناتها. وكان السلطان صلاح الدين أصدر أوامره بتدمير مدن الساحل الفلسطيني ودك حصونها كي لا تتحول إلى موطئ قدم حصين ينطلق منه الفرنجة لاسترداد ما فقدوه من مواقع داخل فلسطين كما حدث لمدينة عكا. وكان قراره بهذا الشأن نابعاً، على ما يبدو، من إدراكه رجحان كفة الفرنجة العسكرية على كفة المسلمين، ومن اقتناعه بعدم قدرة المسلمين عسكرياً على التصدي للهجمة العنيفة التي أفرزتها الحملة الصليبية الثالثة التي كان احتلال عكا باكورة إنجازاتها. وشمل قرار صلاح الدين بتدمير المدن كلاً من قيسارية وأرسوف ويافا على الساحل، بالإضافة إلى مدينة طبرية القريبة من الطريق السلطانية بين شمال فلسطين ومدينة دمشق.

لم يترك صلاح الدين جيش الفرنجة الزاحف جنوباً على امتداد الساحل الفلسطيني يتحرك بحرية إلى أهدافه، وإنما سار بجيشه على الطرق الداخلية بموازاة الساحل يناوش العدو حيناً ويغير على مؤخرته أو على أطرافه حيناً آخر، لكن من دون أن تسبب هذه المناوشات الأذى للفرنجة. كما أنه لم يدخل معهم في معركة مواجهة حقيقية، لأنه كان ينتظر وصول الإمدادات التي أرسل في طلبها من منطقتي الجزيرة



والموصل. ولذلك كان يلتمس تأجيل موعد الاشتباك معهم كلما سنحت فرصة؛ فعندما لاحت بادرة للتفاوض مع الملك ريتشارد قبل معركة أرسوف (سيدنا علي المعاصرة)، خول أخاه الملك العادل إجراء التفاوض في شأن الصلح. ولمّا وصلت الإمدادات العسكرية أخيراً، فإنها لم تكن، على ما يبدو، بالحجم والعدد اللذين كان يأمل بوصولهما، الأمر الذي دعاه إلى التعجيل في إرسال كتب الاستغاثة من جديد إلى حكام النواحي في أرجاء مملكته يطلب إرسال إمدادات جديدة. لذلك ظل ميزان القوى يميل إلى مصلحة الفرنجة كما أثبتت ذلك الهزيمة التي مني بها صلاح الدين في معركة أرسوف، والتي كانت من أقسى الهزائم التي لحقت به بعد حطين. وقد قوضت هذه الهزيمة، على ما يبدو، ما تبقى في نفسه من آمال بكسب معركة الساحل الفلسطيني الذي لم يبق صامداً من مدنه إلاّ مدينة عسقلان. وهنا حدث التحول في استراتيجيا صلاح الدين، فعوضاً عن الاحتفاظ بالساحل الفلسطيني جعل همه كله منصباً على الاحتفاظ بمدينة القدس التي كانت شكلت واسطة العقد في إنجازات الحرب التحريرية التي قادها حتى هذه اللحظة. وبما أنه كان يدرك الأهمية العسكرية لمدينة مثل عسقلان، ويدرك أهمية الدور الذي قد تؤديه في خطط الفرنجة للاستيلاء على القدس من ناحية، وما يمثله احتلالها والتحصن فيها من دور في قطع الاتصال جغرافياً وعسكرياً واقتصادياً بين مصر وفلسطين من ناحية أُخرى، فقد قرر بعد هزيمة أرسوف أن يدمر المدينة كي لا تصبح قاعدة ينطلق منها الفرنجة لتحقيق أهدافهم. وجاء قرار الهدم في إثر أخذ ورد بينه وبين قادة جيشه ومستشاريه، بعد أن أيقن هبوط معنويات جيشه وغياب روح الجهاد والتضحية التي كانت دائماً الدافع لدى معظمهم إلى خوض معركة التحرير.

بعد أرسوف أمر صلاح الدين أخاه الملك العادل بأن يرابط بإزاء الفرنجة الذين دخلوا مدينة يافا وشرعوا في ترميمها وتعزيز تحصيناتها، بينما انصرف مع جيشه نحو عسقلان للإشراف على حرقها وتدميرها. فبدأ بإجلاء المسلمين من أهلها، وشرع في عملية الهدم وهو في سباق مع الزمن خوفاً من أن يبدأ الهجوم الفرنجي قبل الفراغ من العملية. وبعد أن أتم تدمير عسقلان، توجه نحو مدينة القدس ليتولى بنفسه وتحت إشرافه عملية التحصين وتعزيز الأسوار والأبراج والخنادق تحسباً للهجوم الفرنجي المنتظر على المدينة. ويبدو أن تدمير مدينة عسقلان كان استكمالاً لخطة الأرض المحروقة التي ارتسمت في ذهنه بعد سقوط مدينة عكا. فعندما غادر عسقلان نحو مدينة القدس دمر كل الحصون والبلدات الحصينة التي يمكن للفرنجة أن يتمركزوا فيها في أثناء غزوهم مدينة القدس، وأمر بتدمير الرملة واللد وحصن النطرون وبيت نوبا، الواقعة على الطريق بين يافا ومدينة القدس. فعندما تحرك الملك ريتشارد



LAU LIBRARY
BEIRUT

على رأس جيش الفرنجة من يافا إلى القدس، في نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١١٩١، لم يجد في طريقه حصناً أو بلداً يأوي إليه هو وجيشه، ولمّا اقترب من مشارف مدينة القدس ظل يعسكر في العراء في إبان الشتاء القارص الذي يميز جبال هذه المدينة. وإذ رأى ما كانت عليه القدس من حصانة عالية الكفاءة قرر الانسحاب إلى الساحل في كانون الثاني/يناير ١١٩٢، بعد أن تخلى قادة جيشه وزعماء الفرنجة في معظمهم عن فكرة الاستيلاء على المدينة.

مضت بعد ذلك بضعة أشهر، انصرف خلالها الفرنجة إلى إعادة ترميم ما تهدم من مدينة عسقلان، وكانوا قبل ذلك أتموا ترميم مدينة يافا. وشهدت هذه الأشهر القليلة تطورات سياسية في المعسكر الفرنجي، كان أهمها تتويج المركيز كونراد دو مونفيرا ملكاً لمملكة القدس اللاتينية بدلاً من ملكها الشرعي غي دو لوزينيان، الذي عوض عن عرشه بتعيينه ملكاً على جزيرة قبرص. ثم ما تلا ذلك من اغتيال الملك كونراد على يد الإسماعيلية (الحشاشين)، وتتويج ملك جديد للمملكة هو الملك هنري دو شامبانيا، الذي يمت بصلة القرابة لكل من ملكي إنكلترا وفرنسا. ولم تمضِ أشهر الصيف في هذه السنة قبل أن يتم الاتفاق بين رسل الملك الإنكليزي ريتشارد والملك العادل، أخي صلاح الدين وممثله، على الصلح بين المسلمين والفرنجة. وقد عقدت هذه الاتفاقية التي عرفت باسم صلح الرملة لمدة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر اعتباراً من ٢١ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول (سبتمبر) ١١٩٢م. ونصت هذه الاتفاقية على اقتسام السيادة على فلسطين بين صلاح الدين الأيوبي، مؤسس الدولة الأيوبية، وبين الفرنجة في فلسطين وفقاً للشروط الآتية:[٩٨]

(١) يكون الشريط الساحلي من مدينة صور شمالاً حتى يافا جنوباً في أيدي الفرنجة.

(٢) تكون مدينة عسقلان خراباً ليست للمسلمين ولا الفرنجة، شرط تدمير تحصيناتها كافة.

(٣) تستثنى مدينتا اللد والرملة وقرية مجدل يابا من عمل مدينة يافا وتصبح تحت سيطرة المسلمين.

(٤) تستثنى الناصرة وصفورية من عمل عكا وتصبحان تحت سيطرة المسلمين.

(٥) يتقاسم المسلمون والفرنجة خراج (حاصل الضرائب) الرملة واللد مناصفة بالتساوي.

(٦) تكون مناطق فلسطين الداخلية كلها في يد المسلمين.

(٧) تصبح المناطق التابعة للمسلمين والمناطق التابعة للفرنجة سلماً، يدخلها من يشاء من الطرفين آمناً في كل وقت وحين.



(٨) تتاح الزيارة للأماكن المسيحية المقدسة في مدينة القدس لمن يرغب من الفرنجة وغيرهم من المسيحيين.

(٩) يشمل الصلح المناطق الفرنجية والإسلامية الأُخرى، أي إمارتي أنطاكية وطرابلس الفرنجيتين وبلاد الإسماعيلية (المناطق التي يسيطرون عليها في سورية ولبنان).

(١٠) يشمل الصلح البر والبحر على حد سواء.



LAU LIBRARY
BEIRUT